

إكساب وتنمية اللغة



دكتور
خالد الزواوي

مؤسسة كورس الدولية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

إكساب وتنمية اللغة

د. خالد محمد الزواوي

مؤسسة حورس الدولية

الناشر

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع
١٤٤ ش طيبة - سيورتنج - الإسكندرية.
ت/فلكس : ٠٣/٥٩٢٢١٧١ - ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨

الطبعة الأولى - ٢٠٠٥

اسم المؤلف : د / خالد محمد الزواوي.
اسم الكتاب : " إكساب وتنمية اللغة ".
كمبيوتر جرافيك : أحمد أمين .
مدير النشر : مصطفى غنيم .
رقم الإيداع : ٢٠٠٥ / ٤٤٠٩
الترقيم الدولي : 977-368-080-1

- تحذير :

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

يحذر النشر أو النسخ أو الاقتباس أو التصوير
بأى شكل إلا بموافقة خطية من الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون "

صدق الله العظيم (٢ يوسف)

إهداء

إلى ابنتي رشاً ...

التي علمني اسمها معنى اللغة

فالعامّة يخطئون فيه نطقاً وكتابةً، حيث يرسمون الكلمة بدون همزة، فتكتب وتنتطق: رشا ومنها الرشوة. أما "رشاً" تكتب بالهمزة، وهي ولد الظبي إذا نما وقوى. وتنتطق بالتفخيم. والهمزة على السطر، تنتطق رِشاء، ومعناه: حبل الدلو...

الجسر الأساسي للحفاظ على هويتنا العربية هو التمسك بلغتها في عصر العولمة، والتقدم السريع في جميع المجالات، فهي اللغة التي كرمها الله، فاختارها لساناً لوحيه، ففيها القرآن الكريم، وهي لغة العرب الأقدمين، ولغة المسلمين وغير المسلمين بحكم مكانتها المقدسة بينهم، وأهميتها البالغة، بها نقرأ القرآن ونفهم معانيه فقال تعالى: "إنا أنزلناه قرآناً عربياً ليفهمه أهل العرب ومن بعدهم من الأمم العربية والإسلامية، وبها تم تأليف كل كتب التفسير والسنة والفقه والأصول والتوحيد، وغير ذلك مما يقع بين أيدينا من علوم وفنون وثقافات دينية، وغير دينية، وبها أيضاً يتم أداء العبادات والنسك والترنيمات، وهي اللغة التي يجتمع حولها الناطقون بالضاد في كل مكان، يتكلمون ويتفاهمون بها نطقاً وكتابةً، ويصوغون بها فنونهم وآدابهم ومكاتباتهم، ونقلت تراثهم الثقافي والحضاري عبر الأجيال، إذا تحدثت بها فهمك من هم في جميع أقطارهم، يذكر لنا الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربي، حين غادر المغرب من رحلته إلى القاهرة، قال له سفير المغرب وهو يودعه: بلغ تحيات المغرب إلى الشعب، ديالكم، ولم يفهم الدكتور معنى ديالكم إلا بعد أن فسر لها له سفير مصر في المغرب آنذاك.. بأن معناها طرفكم، فلو أنه تحدث بالعربية لفهمه كل إنسان ينطق بالعربية التي منها ينطلق الأدب العربي برونقه وجلاله، فقد وصف الله اللسان العربي بأبلغ ما يوصف به للكلام، وهو البيان، فقال عز من قائل: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان"، ومن هنا فاق اللسان العربي كل الألسنة.. وكان الإسلام هو صاحب الفضل في تفجير الطاقات العربية التي كانت كامنة في شبه الجزيرة العربية، وحقق العرب به أعلى درجات الرقي الإنساني، فاللغة باقية ما بقي القرآن الكريم، والعربية بهذا هي اللغة الخالدة.

ومن خلال ممارستي للعملية التعليمية والتربوية قرابة أربعين عاماً، وخاصة في ميدان اللغة العربية، والتقاني بدفعات من الطلبة والدارسين والمدرسين والموجهين، ومشاركتي في عديد من الندوات والمؤتمرات الأدبية والفنية والثقافية والإعلامية، التي تناولت القضايا اللغوية والأدبية، ومشكلاتها التي ظهرت على الساحة في عالمنا العربي، وما يصادفه أبناؤنا في المدارس والمعاهد على اختلاف أنواعها ومراحلها من قصور في النهوض بلغتنا نطقاً وكتابة، فاللغة العربية تشعر بأنها غريبة وسط أهلها، لا تستخدم بطلاقة في التعبير بالفصحى، الفصحى الميسرة المعاصرة، أو الكتابة بها على جميع مستويات المراحل التعليمية، ومن ثم يكون استخدامها في الحياة العامة بنفس المستوى في جميع الميادين والمجالات، ويرجع السبب في ذلك إلى فقر المحصول من ألفاظ الفصحى، لتدني المستوى الذي يقدم لهم ولأن الحوافز والوسائل لتنمية هذا المحصول مفقودة، إلى جانب قصور الوعي حول خطورة الأمر، والجهل بموارد وطرق تنمية محصولهم اللغوي، إلى جانب عزلها عن سياق التواصل اللغوي وأطرافها بعيداً عن التفاعل معها.

إن اللغة العربية ذات تاريخ مجيد، لا تزال تنطقها شعوب من العراق إلى المحيط الأطلنطي من قارتي آسيا وأفريقيا، وقد تعهد الله - جل جلاله - ببقائها وخلودها على مر الأزمان، فقال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"، فالذكر، هو القرآن وهو الوحي، وهو الكتاب، لغته ثابتة راسخة ملأت الأرض قروناً متصلة شرقاً وغرباً، أدباً وعلماً وفلسفة، وإذا كان قد اعترأها صداً، فواجبنا أن نمحوه عن وجهها العربي الأصيل، فهي أقدم اللغات الحية زمناً، وأطولها عمراً، وأكثرها قدرة على تمثيل الحضارات السابقة عليها، تمثلت حضارات الأمم القديمة التي سبقتها في الحضارة وأضافت إليها ما جعلها ذات حضارة كبرى إذاعتها في القارات القديمة: آسيا

وأفريقيا وأوروبا، وامتازت بحيوية متأججة نفاذة بحيث لم تتأزل لغة أيام الفتح الإسلامية إلا ظفرت بها، لمرونتها الشديدة واشتقاقاتها الكثيرة، وقادت اللغة العربية العالم حضارياً طوال ستة قرون منذ القرن الثامن الميلادي، وظلت علوم العرب وفلسفتهم تصب في أوروبا وجامعاتها منذ بدعوا في ترجمتها بالقرن الحادي عشر الميلادي ومضوا يتعلمونها حتى القرن السابع عشر، وأخذت تضيء لهم مسالكهم إلى علومهم الحديثة.

نعم أصاب للغة العربية ركود قرونًا، وعادت إلى الازدهار في عصر محمد علي، وخلفائه، وفي هذا القرن الحادي والعشرين يفتح العرب على علوم الغرب، وينشطون في ترجمة الطب والعلوم المختلفة إلى العربية، ويضعون معاجم العلوم فرادى وجماعات.

فللغة العربية وعاء الثقافة، وركن من أركان الوطنية، علاوة على أنها أداة اتصال وتفاهم بين أبناء كل الأوطان العربية، ولا تقدم لأي مجال من مجالات العلوم والثقافة إلا بازدهار اللغة العربية، وبغيرها لا علم ولا ثقافة، وهي بوجه عام العنصر الأساسي في كل قومية، والمرآة التي ترى فيها كل أمة أهم مقومات شخصيتها، وتجمع فيها مجمل حكمتها وخبرتها، ورصيد قيمها ومبادئها التي تعيش بها، وتكافح من أجلها.

يقول الدكتور السعيد محمد بدوي، عالم الدراسات اللغوية، نحن نصلي بالعربية، ونتعلم بالعربية، ونؤلف بالعربية، ونقرأ بالعربية، ونكتب بالعربية، ونحاضر بالعربية، ونناقش بالعربية، ونغني بالعربية، ونمزح بالعربية، ونشاجر بالعربية، ونبكي بالعربية، ونبيع بالعربية، ونشتري بالعربية، ونغش بالعربية، ونصح بالعربية ونكذب بالعربية ونصدق بالعربية ونكره بالعربية ونحب بالعربية، ونقوم بكل نشاط لنا في المجتمع باللغة العربية، و"نحن" هذه ذات ألوان مختلفة: فمننا المتعلمون بأنواعهم المختلفة من خريجي الأزهر،

وحرجي المدارس الخاصة من إنجليزية وفرنسية. وأما إيطالية ويونانية، من دينية وعلمانية، وخارجي المدارس الحكومية، ومما حرجو الجامعات المصرية، والجامعات الأوروبية والأمريكية وغيرها، ومما المهندسون والمحامون، والمدرسون والأطباء والقضاة، والزراعيون والعلماء والموظفون والتجار، ومما الحرفيون من حلاقين ونجارين وحدادين وسمكية وميكانيكية وسباكين وبنائين وترزية وكوائين ومبيضين إلى آخره، ومما الأميون وأنصاف الأميين، مما لا يحصيه عد مهما طال وفي داخل كل قطاع من هذه القطاعات يتدرج أفراد في اتجاهات عدة من حيث درجة التعليم ودرجة الذكاء والسن والنوع- ذكر أو أنثى. والمنطقة الجغرافية التي نشأ فيها والتي نزع إليها، والمنطقة التي يضطر للسكنى فيها، والتي يضطر للعمل فيها، والطبقة التي نشأ فيها والتي انتقل إليها بمجهوده الخاص، والناس الذين يخالطهم بالزواج أو العمل أو اللهجة التي يضطر لاستخدامها في العمل، والأخرى التي يضطر لاستخدامها في المنزل وهكذا..

ويرى الدكتور بدوي، أن الواقع اللغوي في مصر يضم خمسة مستويات هي: فصحي التراث- وفصحي العصر- وعامية المثقفين- وعامية المتورين- أما المستوى الخامس فهو عامية الأميين، وقد فسر كل مستوى من هذه المستويات في دراسة لغوية رائدة: "مستويات العربية المعاصرة في مصر"، بحث في علاقة اللغة بالحضارة، للغة التي تتجمع حولها آمال المصريين والعرب، وترتكز عليها دعائم قوميتهم.

إن قضية اللغة العربية، والنهوض بها نطقاً وكتابةً، قضية شعب بأكمله، فإذا أصابها سوء أو مسها ضعف فقد مس الشعب كله في سلوكياته وقيمه، فهي أكسير الحياة بالنسبة له، ولكل للشعوب، وهي التي تربط المجتمع كله ببعضه ببعض، فإذا كانت في خطر فإن المجتمع كله أضحي في

وحرجي المدارس الخاصة من إنجليزية وفرنسية. وأما إيطالية ويونانية، من دينية وعلمانية، وخرجي المدارس الحكومية، ومما خرجوا الجامعات المصرية، والجامعات الأوروبية والأمريكية وغيرها، ومما المهندسون والمحامون، والمدرسون والأطباء والقضاة، والزراعيون والعلماء والموظفون والتجار، ومما الحرفيون من حلاقين ونجارين وحدادين وسمكية وميكانيكية وسباكين وبنائين وترزية وكوائين ومبيضين إلى آخره، ومما الأميون وأنصاف الأميين، مما لا يحصيه عد مهما طال وفي داخل كل قطاع من هذه القطاعات يتدرج أفراده في اتجاهات عدة من حيث درجة التعليم ودرجة الذكاء والسن والنوع- ذكر أو أنثى. والمنطقة الجغرافية التي نشأ فيها والتي نزع إليها، والمنطقة التي يضطر للسكنى فيها، والتي يضطر للعمل فيها، والطبقة التي نشأ فيها والتي انتقل إليها بمجهوده الخاص، والناس الذين يخالطهم بالزواج أو العمل أو اللهجة التي يضطر لاستخدامها في العمل، والأخرى التي يضطر لاستخدامها في المنزل وهكذا..

ويرى الدكتور بدوي، أن الواقع اللغوي في مصر يضم خمسة مستويات هي: فصحي التراث- وفصحي العصر- وعامية المثقفين- وعامية المتورين- أما المستوى الخامس فهو عامية الأميين، وقد فسر كل مستوى من هذه المستويات في دراسة لغوية رائدة: "مستويات العربية المعاصرة في مصر"، بحث في علاقة اللغة بالحضارة، للغة التي تتجمع حولها آمال المصريين والعرب، وترتكز عليها دعائم قوميتهم.

إن قضية اللغة العربية، والنهوض بها نطقاً وكتابةً، قضية شعب بأكمله، فإذا أصابها سوء أو مسها ضعف فقد مس الشعب كله في سلوكياته وقيمه، فهي أكسير الحياة بالنسبة له، ولكل الشعوب، وهي التي تربط المجتمع كله ببعضه ببعض، فإذا كانت في خطر فإن المجتمع كله أضحي في

حصر مماثر. وضر حرمير أن السبع السبب المعند هو الفدر على الحفظ على نعه وشهره وتمببه وبويره لنواكب مصطنحات ومستجدات العصر.

نقد كانت الرواية الشفوية أول محاولة لنقل الثقافة العربية، ثم اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي، مما أدى إلى اختلاط العرب بالأعاجم، وهو ما يؤدي بدوره إلى خشية إفساد اللسان العربي، وهنا في هذا الوضع بدأ التفكير في ضبط وتصحيح هذا اللسان، حيث كان تأليف كتب النحو والصرف. وتنهض الدولة العباسية ومعها تنهض الكلمة العربية المكتوبة، وتظهر الكتب.

والأمر مختلف عندنا، تدهور وتدنى رغم الحضارة والثقافة العصرية فنرى الصراع بين اللغة اليومية التي تساندها وسائل الإعلام، وبين الفصحى التي تتراجع أمام سلطة هذه الأجهزة الإعلامية، وانهيار مستوى التعليم، وتخفيض ساعات تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات، مع انتشار المدارس الأجنبية التي تعلي من شأن اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية، ليتخرج منها الطالب وهو غير قادر على كتابة سطر واحد صحيح باللغة العربية، في وقت يتقن الكتابة بغيرها من اللغات الأجنبية أبدأً كان أو علماً ولعلنا نذكر هنا حقيقة تسجلها كتب التاريخ، مؤداها أن اللغة العربية كانت إحدى لغتين في العالم القديم، تكتب بهما الفلسفة والعلوم فيما بين القرن الثامن، والقرن السادس عشر، حينما كانت العربية في الشرق، واللاتينية في الغرب، حتى اعتبرت اللغة العربية لغة عالمية وقتئذ.

د. خالد الزولوي

الباب الأول اللغة والتعليم

الفصل الأول

ماهية اللغة

اللغة من أشد وظائف الإنسان إنسانية، وهي تعد من الخصائص التي اختص بها الله بني البشر، فالإنسان وحده هو القادر على استخدامها نطقاً وكتابة، حتى يتحقق التواصل بين الأفراد والمجتمعات على اختلاف بيناتهم، فهي إذن أساس الحضارة البشرية، وتنتقل الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية بمختلف صورها عن طريقها، وعن طريقها أيضاً لا ينقطع الإنسان عن الحياة، فهي تعينه على الامتداد تاريخياً ليسهم في تشكيل فكر وثقافة وحياة الأجيال القادمة، وينقل لنا التاريخ أن ما نعرفه عن السابقين إنما وصلنا عن طريق اللغة، وما كتب في أزمانهم، وهي المفتاح لفهم الكثير عن السلوك الخاص بالأفراد أو التفاعل بينهم. وقد اهتم بعض الفلاسفة، وعلماء الخطابة واللغويين من أمثال أفلاطون وأرسطو باللغة، والعلاقة بينها وبين المجاز وبين المحاكاة، ودلالة الكلمات والعادات اللفظية، حتى أن بعض الباحثين أقبل على إدخال الحاسبات الآلية إلى مجال الدراسة اللغوية، كما أن اللغة تدخل في معظم العلوم الإنسانية، وهي مظهر من مظاهر السلوك الإنساني.

إن اللغة تتيح لنا دراسة الفكر والنتاج الفكري، ولا بد أن ندرس عملها في المجتمع فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (والأغراض هي المعاني والدلالات التي يراد نقلها من متكلم إلى مستمع باستخدام الأصوات المنطوقة أو المكتوبة)، كما قال ابن جني، ولا بد من توفير قدر من المعرفة عن طبيعة للعقل البشري لكي نتكلم اللغة ونفهمها ونكتبها لأنها قائمة على أساس نسق من القواعد البنائية والتي تمكن متكلم أي لغة من أن يميز بين الجمل النحوية، وسلاسل الكلمات غير المقيدة بقواعد نحوية- تشومسكي-

فالفغوي لكي يحدث التخاطب ينبغي أن يفهم المستقبل ما يقوله المتكلم أو يكتبه، لأن اللغة هي الطريق إلى التواصل، ولكي نفهم يستلزم تمييز الأصوات، ويعني المعرفة بشيء أو موقف أو حدث أو تقرير لفظي، ثم يكون الإدراك وهو وظيفة معرفية نشطة تعي وتفهم وتنظم وتستخرج المعاني والدلالات، ومن هنا كانت اللغة محكومة بقواعد محددة. واللغة المنطوقة أهم من لغة الكتابة، وأوسع انتشاراً على أساس أن الكلام عرف قبل الكتابة، ويرجع الاهتمام باللغة المكتوبة إلى:

- انتقالها من مكان إلى آخر عبر مسافات بعيدة.
- أنها تكاد تكون ثابتة ولا تتعرض للتغير المستمر الذي يصيب لغة الحديث.
- لا تتأثر اللغة المكتوبة بالمواقف العارضة، والانفعالات الزائدة، والتغيير الشديد من موقف لآخر.

أما اللغة المنطوقة فهي تتأثر بالبيئة، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويتم التخاطب اللفظي عن طريق الكلام والاستماع، أو القراءة والكتابة ونحن حين نتكلم نتبادل الحديث بكل أجزاء جسمنا، فيكون للإشارة المصاحبة أهميتها ودلالاتها، وهنا نلفظ إلى أهمية إيقاع النطق أو سرعته، وإلى طول الموجة أو التردد، وإلى الشدة أو السعة.

والدكتور زكي نجيب محمود فلسفة حول اللغة، إذ يقول: "إن اللغة ليست مجرد أداة تعبير واتصال، وإنما هي مشحونات فكرية وثقافية".

ويعبر جميل صليبا، أحد الدارسين عن اللغة: "مرآة الشعب ومستودع تراثه، وديوان ألبه، وسجل مطامحه وأحلامه، ومفتاح أفكاره وعواطفه، وهي فوق هذا وذلك رمز كيانه الروحي وعنوان وحدته وتقمه، وخزانة عاداته وتقاليده"، وعلى ذلك فاللغة هي الوسيلة المهمة والرئيسية للتطور والتقدم الحضاري البشري. يقول د. أشلي مونتاكو: "إن الوسيلة المهمة التي

يتحضر بها الإنسان إن هي إلا نظام من الرموز يتوسط بين المؤثر والمتأثر، وهذا النظام هو اللغة، فاللغة تضيف بعداً جديداً إلى عالم الإنسان".

وهكذا فاللغة تتضمن جميع صور التخاطب والاتصال سواء كان لفظياً أو غير لفظي، بينما لا تطلق لغة الكلام في الغالب الأصح إلا على صورة التخاطب اللفظي الإنساني، سواء كان هذا التخاطب منطوقاً أو مكتوباً.

إن لغة الكلام تعتبر أقوى مظاهر النمو العقلي والحسي والحركي، كما تعد وسيلة من وسائل التفكير والتخيل والتذكر اختص بها الإنسان، وعدت مظهراً من مظاهر التفوق على سائر المخلوقات، ومادتها هي الأصوات، لا تؤدي وظيفتها إلا إذا ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وألفت وفق نظام معين في مجموعات أو وحدات صوتية متجانسة متلائمة، وهذه المجموعات أو الوحدات الصوتية هي الكلمات، فقيمة الأصوات إذن تكمن في وجودها كمجموعات، أي في الكلمات التي تتكون منها. فالكلمة هي الوحدة اللغوية الأساسية التي تشارك مشاركة فعالة في تكوين معارف الإنسان وتجاربه وأفكاره وصوره الذهنية، كما أنها "نقطة انطلاق الإبداع الكلامي"، إن في الكلمات طاقة كامنة، وقدرة خاصة، تأثر بها الجنس البشري لأنها الأدوات للسيطرة على الأشياء، وقد فرق بعض الباحثين بين "الكلمة" و"اللفظ"، ويمكن الأخذ بالرأي القائل بأن "اللفظ" هو الصيغة الخارجية للكلمة، فهو يقرب بين مختلف التصورات.

وقد لمست أهمية اللغة وأنا في زيارتي لبيت الله الحرام، حرص وشغف وتلهف الشعوب الآسيوية لمعرفة اللغة العربية لأنها الطريق إلى قراءة القرآن الكريم. فكانوا يتهافتون حولنا ليستمعوا إليها ونحن نقرأ آيات الله، ويتمنون لو يصبحون قادرين على معرفتها، وهنا أسجل ما قاله وزير خارجية شيلي الأسبق أنسوزا "إنكم أمة عظيمة.. أعظم كثيراً مما تتصورون

أو تعرفون" وآه.. إذا كنا نعرف.. ونتعلم.. ونتعاون.. لكنا قد صرنا في حال غير الحال.. ولكانت الدول تسعى إلينا وتتمسح فينا، وتطلب الإذن بأن تحمل جنسيتنا بحكم لغاتها المستمدة من لغتنا.. وارتكازها على مخزوننا الحضاري.

إن اللغة قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما- روي- ويدخل في تكوين هذا النسق وحدات هي: النسق الدلالي- والنسق الإعرابي أو النحوي- والنسق الصرفي- والنسق المعجمي. وتأتي أهمية اللغة من أنها ضرورة من أهم ضرورات الحياة الاجتماعية، وهي وسيلة الإنسان إلى تنمية أفكاره وتجاربه، وإلى تهيئته للعطاء والإبداع والمشاركة في تحقيق حياة متحضرة، فالفرد نواة في مجتمعه، ومجتمعه حلقة في كيان المجتمع البشري، وقد ربط بعض الباحثين اللغة بالفكر الإنساني، وقرر بأن "إمكانية التفكير أولاً وأخيراً تستند إلى اللغة التي تستخدم في إبراز عناصر للفكر"، ففرض إنسان دون لغة معناه فرض إنسان دون فكر،- د. فايز ترحيني- بل إن بعضاً آخر مثل "وطسن" و"أرثر كيسلر" تجاوز ذلك فرأى أن اللغة هي التفكير نفسه.

يقول "كيسلر": "إن التفكير ليس سوى للحركات اللاشعورية للأحبال الصوتية وإنه نوع من الهمس غير المسموع الذي يدور بين المرء ونفسه"، أو بتعبير آخر أن التفكير ما هو إلا مجرد كلام باطن.

ويرى علماء التربية وعلم النفس أن النمو العقلي للإنسان منوط بنموه اللغوي، وأنه كلما تطورت واتسعت لغة هذا الإنسان ارتفعت قدراته العقلية فمما نكاؤه وقوى تفكيره، وأكد على ذلك الفيلسوف الفرنسي "إيتين كوندياك" أما بياجيه فقد رأى أن الأفكار والمفاهيم تكتسب من المجتمع، ولكنه مع ذلك أكد على اللغة، وبناء على ذلك اعتبرت المهارات اللغوية مقياساً مهماً لمعرفة

نسبة الذكاء، وأن الاختبار اللغوي له قيمة أعظم من أي اختبار آخر للذكاء، وللغة علاقة بعلم النفس، ذلك أنه قبل أربعة عقود لم يكن علم اللغة يأخذ في الاعتبار دراسة العوامل النفسية التي تفسر اكتساب اللغة، والاستعدادات الفطرية لدى المتعلمين، والمراحل العمرية التي ترتبط بالدرجات المتفاوتة لتعلم اللغة، والفروق اللغوية الفردية، والدافعية لتعلم لغة أجنبية قد أدت الدراسات التجريبية التي أجريت خلال الثلاثين سنة الماضية في مجال اكتساب اللغة الأم، واللغات الأجنبية، وخاصة في أمريكا إلى نشوء ما يعرف باسم "علم اللغة النفسي" الذي حاول أن يجد إجابات لبعض الأسئلة التي طرحت مثل: هل ثمة فروق بين اكتساب اللغة الأم واللغة الأجنبية؟

ما اللغة:

اللغة ظاهرة مجتمعية، وهي لغة وطنية قومية، يمكن استخدامها في كل البلاد العربية، وتستطيع أن تلبى جميع الاحتياجات سواء أكانت أدبية أو علمية أو غيرها، فهي لكثرة معانيها، وتنوع مصطلحاتها، وقدرتها الصرفية والنحوية، وانفرادها بوجود ثنائية فيها، تعطيها هذه الصفات قيمة جمالية، إلى جانب تنمية الثروة اللغوية عند المتكلم، مع كل هذه الأهمية، إلا أنها تتعرض لمجموعة من التحديات والمخاطر، منها تحديات خارجية تتمثل في محاولات تفريقها من محتواها، والادعاء بأنها لا تساير العصر والتطور، ومن ثم لا تصلح.. ومنها تحديات داخلية تتجسد في عدم الاهتمام والتعامل بها، وعدم تطويرها وتتميتها، وتجمد مناهج تعليمها. وتعاني مظهرية اجتماعية جوفاء تنهافت على التحدث بلغة أجنبية، وتصف بالعار من يتحدث بالعربية، وتمتدح اللسان الأجنبي، في حين أننا نرى في الدول المتقدمة، لا يتعلم التلميذ سوى لغة بلده باعتبارها اللغة الأم، وعندما يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة، يتعلم لغة أخرى كلغة أجنبية، بينما كل المناهج تدرس باللغة الوطنية، وإذا تقدم أحد في

جامعاتها للحصول على درجة علمية، فإن الشرط الأساسي هو تقديم البحث ومناقشته باللغة الوطنية للبلاد، وقد حذت جامعاتنا في مصر حذو الجامعات الأجنبية، فقد قررت بعض الكليات عدم قبول رسالة علمية إلا بعد اجتياز صاحب الرسالة لامتحان في اللغة العربية.

هناك من يؤكد أن اللغة وعاء للفكر، وأن وظيفتها هي التعبير عن الفكر البشري، وكثير من المحدثين يفضلون أن يقصروا وظيفة اللغة على الاتصال، وقد قرأنا بعض الآراء عن اللغة وطبيعتها ووظيفتها.

ويمكن لنا أن نجمل هذه الآراء، حول الوظائف اللغوية، أو مظاهر السلوك اللغوي في: استعمال اللغة للتحية، واستعمالها في الطقوس الدينية والأوردة والأدعية، واستعمالها في المناسبات الرسمية، وفي إصدار الأوامر والتحكم في تصرفات الآخرين.

واللغة المكتوبة وظيفتها في غاية الأهمية، فما نقوله أو نسمعه ونرده شفويًا، قد يضيع، وقد يزيد أو ينقص، والوسيلة لحفظ ذلك كله هو تسجيله كتابة، والأمة التي تستعمل الكتابة لا يضيع تاريخها وتراثها، ولا شك أن اللغة تستعمل أيضاً للتعبير عن المشاعر المختلفة، كما أنها تعبير عن الفكر.

وأفضل شيء أن ننظر في اللغة على أساس أنها مظهر من مظاهر السلوك الإنساني إن لم تكن أهم تلك المظاهر جميعاً، ننظر إلى أننا نضطر في معظم الأحيان لاستعمالها لترافق مظاهر السلوك الأخرى غير اللغوية، وتتفاعل معها.

وهذا هو ما فعله "إدوارد هول" في كتابه "لغة بغير كلام" الذي قسم فيه مظاهر الحياة المختلفة إلى عشرة أنواع، يتفاعل كل مظهر منها مع التسعة

الأخرى لتكون معاً تلك الشبكة المتداخلة من العلاقات الإنسانية، وقد وضع اللغة على رأس المظاهر جميعاً.

Edward Hall: The Silent Language, (N. Y. Doubledny) Several Impressions.

واللغة ليست في جانبها الوظيفي مقصورة على الجانب العقلي في التعبير، فهناك الجانب الآخر من وظيفة اللغة الذي يرتبط بتقديم الخبرة الإنسانية في صورة نقية مهذبة، ولا شك أن أخذ الطفل منذ البداية بالارتباط مع اللغة الوجدانية، لغة المشاعر والإحساس من أبرز ما يجب أن يركز عليه تعليم اللغة، فالتلميذ منذ البداية يجب أن يشعر بقدرة الكلمة على التصوير والإبداع، وبقوتها في إبراز مكنون النفس الإنسانية، وما يعتل فيها من انفعالات وعواطف، ومعنى هذا أن يحاول المعلم مع تلاميذه الإحساس بالإيقاع، والنغم الموسيقي الذي يبدو فيما يقرأونه أو يسمعونه.

إن الشعر يعلم الطفل كلمات جديدة، وأساليب للتعبير، كما يمدّه بأفكار جديدة، وبهذا ينمو تعبيره الخاص، وتقوى لغته الخاصة، ولكي يربي المعلم تلاميذه على الاستمتاع بالشعر، عليه أن يفكر فيما سلكه أحد المدرسين مع تلاميذه، ذلك أن بعض المدرسين كان يطلب من تلاميذه وهو يقرأ عليهم مضامين النصوص الأدبية، أن يفلقوا أعينهم، وأن يستمعوا بدقة لما يقوله، وأن يفكروا فيما يعرضه الشعر من صور ونماذج، وكان الأطفال ينصتون في لهفة وإحساس، وكانوا يتحدثون عن الصور الجميلة التي سمعوا عنها في الشعر.

عناصر اللغة:

ولابد للتعامل مع اللغة العربية أن نعرف العناصر التي تتألف منها، فالصانع الذي يقدم عملاً للمجتمع، لابد أن يكون عالماً بأدوات صناعته، ولمن صنعها ولم يصنعها ولأي شيء تستخدم، وكيف تستخدم، ثم يضع كتالوجاً لصيانتها إذا ما تعرضت لخلل ما، إلا أن استخدامنا للغتها شيء، ومحاولة النهوض بها شيء آخر، النهوض بها نطقاً وكتابةً، وإن لابد أن نفهم مكوناتها، فاللغة مجموعة من الأصوات، وهي اللبنيات الأولى التي تتكون منها الوحدات كالكلمات والجمل، وهذا هو المظهر الذي يسمى بالنظام الصوتي للغة، ولابد من دراسته، وهذا يجعلنا نسلم بأن عملية الاتصال تتم عند الإنسان والحيوان، وربما النباتات والجماد عن طريق الأصوات، فهي وإن كانت جذور كلمات عند البشر، إلا أنها تختلف لطريقة التواصل بين سائر الأجناس الأخرى، فالنمل يتواصل: "قالت نملة بأبيها النمل ادخلوا مساكنكم"، فله لغته.. وللطيور كذلك، ولنا في قصة "هدد سليمان" ما يدل على ذلك، إلى جانب علم سليمان بمنطقه وبلغته النمل، وكثيراً ما نسمع من يتكلم عن لغة النباتات، والجماد أيضاً له تواصله، فقول الله تعالى: "يا جبال أوبي معه..". دليل على التواصل، وليس من شك في أن الأصوات تنتج عن عاطفة، تلك العاطفة التي تسبغ التواصل بانفعالات معينة، وذات معنى ودلالة، فإذا نظرنا مثلاً إلى قول الله تعالى: "فما بكت عليهم السماء..".

عرفنا أن البكاء لا يأتي إلا من عاطفة، كالعاطفة التي ميزت الإنسان في تعاملاته، والكلمة في لغات البشر هي أصغر وحدة لها دلالتها ومعناها، ومن ثم كانت المعاجم غير أننا لا نتكلم بمفردات اللغة، وبالكلمات المنفصلة كما يفعل الطفل في أول عهده باللغة، وتتنظم المفردات بعضها مع بعض بموجب قواعد معينة لكي تكون الجملة هي وحدة التواصل الرئيسية، وعلى

ذلك فاللغة هي الوسيلة الأساسية للتواصل والتفاهم بين البشر، وهي التي تميز الإنسان عن سائر الأجناس التي خلقها الله، والجماد والنبات والحيوان- وإن كانت لها لغتها- إلا أنها تظل في خدمة الإنسان- ذلك العقل المميز- الذي يعتبر أرقى هذه الأجناس وأسامها.

وهناك علاقة بين اللغة والمجتمع والحضارة، فلغة مجتمع معين هي التي تحدد الإطار الذي لا يمكن لذلك المجتمع أن يرى العالم إلا من خلاله، كما قال عدد من كبار المفكرين في العصر الحاضر أمثال: الفرد كورزبسكي (١٨٧٩- ١٩٥٠) الذي كان يقول: "إن الخريطة لا تمثل الرقعة الأرضية كلها"، أي أن اللغة لا تمثل كل ما يشمله هذا العالم من أشياء، وما يحدث فيه من أحداث.

إن اللغة هي أداة التعامل والتواصل بين الناس على اختلافهم، وبذلك تختلف وظائفها بين موقف وآخر، إلى جانب أن هناك لغة واحدة في هذا العالم، هي لغة الإنسان، تختلف هي الأخرى عن جميع الوسائل الأخرى التي تتواصل بها سائر المخلوقات، مع وجوب التركيز على اللغة نطقاً، والاهتمام بالنواحي الصوتية المؤثرة في المعاني: النبر والتنغيم والوقف، مع الاهتمام بطريقة الكتابة وبالتهجئة والترقيم والتنقيط وغير ذلك.

إنها اللغة التي تتجمع حولها آمال العرب، وترتكز عليها دعائم قوميتهم، وبالإمكان أن تصبح لغة التخاطب بين الناس في أمور الحياة اليومية.

ويعرف (وبستر) اللغة في قاموسه: 'بأنها عبارة عن الحديث الإنساني الملفوظ الذي يمكن سماعه عندما يصدره اللسان، والأجهزة للصوتية القريبة منه، فهي رموز أو أصوات ذات دلالة بها يعبر الإنسان عما في نفسه، وما يجول بخاطره- وإن كانت في واقع الأمر- ليست مجرد أداة، أو وسيلة

للتعبير، لكنها مشحونات لتراث من الفكر والثقافة والقيم، والتراكمات من التجارب والخبرات".

وهي كائن حي مرتبط بمجتمع له تاريخه، وله ظروفه وتطوره وتنوعه، ومهما كانت جذورها المشدودة للأنماط التقليدية والكلاسيكية، فإن متابعتها للمنجزات العلمية والتكنولوجية تتطلب منها أن تتسع معدتها، ويتسع قماشها لكي يكون قابلاً لاستيعاب كل المعطيات الجديدة، فهذا الكائن الحي ينمو، ولكنه أو هكذا ينبغي ألا يموت.. وهو الذي يمتد بين ماض عريق، وصولاً إلى حاضر نتنفسه، مبتطعاً إلى غد نأمله، وهي اعتراز بانتمائنا الوطني، وبهويتنا القومية، وإحدى ركائز تجمع ما بين الأمة من محيطها إلى خليجها، وهي أيضاً إحدى وسائل انطلاقنا.

إن علاقة اللغة العربية بالقرآن والسنة والإسلام، لا ينفي عنها أنها لغة كأي لغة أخرى واللغة العربية ظاهرة شديدة التعقيد، مثلها مثل أي لغة أخرى، لأنها تتصل بجوانب مادية وفيزيائية وفسولوجية، واجتماعية ونفسية وعقلية، ولذلك تفرعت علوم اللغة، وتنوعت في صورة علوم لغوية تبلغ إلى ما يقرب من عشرين فرعاً، ومن هذه العلوم اللغوية علم التخطيط اللغوي، أو كما يسمى أحياناً الهندسة اللغوية، ويسعى هذا العلم إلى حل مشكلات الاتصال اللغوي، واستخدام اللغة على مستوى الأمة والوطن، وذلك بتقديم خطط علمية واضحة ومحددة للأهداف للتصدي للمشكلات اللغوية، واقتراح الحلول العلمية والعملية لذلك، وفق برنامج زمني محدد، وذلك من خلال دراسات لغوية علمية مثل: علاقة الفصحى بالعامية، ومستويات الفصحى التي نريد لها السيادة في حياتنا اللغوية، والمستوى اللغوي الذي ينبغي استخدامه، أو الذي ينبغي على وسائل الإعلام والإعلان المنطوقة والمرئية والمكتوبة الالتزام به، ولغة الدين والسياسة، وتعليم اللغات القومية، واللغات

الأجنبية، والمستويات اللغوية التي ينبغي أن تعلم، وأنواع المعاجم اللغوية، وغير اللغوية التي تحتاج إليها، والترجمة وما ينبغي أن يترجم، ووضع ضوابط للكتابة، والخطوط التي ينبغي الالتزام بها، وحدود استعمال اللغات الأجنبية، خاصة في الإعلان، وعلى وجهات المحال التجارية، وحدود استعمال هذه اللغات في التعليم.

ونحن نحتاج اللغة لاعتبارات قومية ودينية وثقافية، ولاعتبارات تتعلق بنضجها ذاتها، من أجل ذلك نحرص عليها، ونحاول النهوض بها: نطقاً وكتابة، لأنها إلى جانب حاجتنا إليها وحي سماوي خالد بها، فتقدير السماء بهذه اللغة على هذا المستوى من التقدير، ومن ثم يكون تقديرنا نحن لها على هذا المستوى، وإذا كان الأساس الديني لنشأة اللغة لا مرأى فيه، إلا أنها قد أصبحت الآن موضوعاً علمياً يجب الحرص عليه.

من أهداف اللغة:

- تذوق الفنون.
- ترقية ذوق الأطفال وأحاسيسهم ووجدانهم، والتدريب على سر الجمال في الكلمة.
- التعرف على بعض القيم والاتجاهات والمواهب.
- التعرف على بعض أنماط السلوك، والتركيز على ما يرتبط بها، وعلى القيم.
- التعرف على بعض المشاعر الداخلية، والتركيز على الجوانب التي تحدث تأثيراً انفعالياً عند الأطفال.
- تدريبهم على سر الجمال في الكلمة، وإثراء اللغة عند الطفل.
- الرسم والتلوين والتجميل والتصوير بقدر ما يحيط الإنسان من ألوان التجميل الطبيعي في الكلمة.
- في الكلمة جمال وتمثيل، وعلى الطفل أن يدرك سر الجمال فيها.
- التعبير بصورة مباشرة سعة لغوية للطفل.
- الموسيقى جزء أساسي ضروري من التعليم للطفل، وأيضاً الكلمة المغناة.
- تنشئة التهذيب، والإحساس بالكرامة.
- الارتقاء بالشخصية، والشعور بالثقة.

اللغة واستخداماتها:

- الاستفهام عن كيفية استخدام كلمة معينة.

- اللغة مظهر من مظاهر السلوك الإنساني.
- الطرق المختلفة في الاستعمال اللغوي.
- الاستفهام عن واقعة وإعطاء معلومات عنها.
- الدلالة على موقف انفعالي.
- دور الاستماع في حياة الطفل التعليمية.
- توسيع النظرة الإنسانية للحياة عند الطفل.
- تزكية الشعور الوطني، وإلهاب العواطف القومية.
- الأناشيد المرتبطة بحياة الطفل وواقعه.
- الاختزان اللغوي عند الطفل، وأهمية الحفظ وتنمية الميول.
- تقوية الملكات في التخيل، وزيادة القاموس اللغوي في الألفاظ والأساليب والمعاني.
- الأفكار والصور وألوان الخيال، وتنمية الإحساس بالمعنى والإدراك الجمالي.

الفصل الثاني

اكتساب اللغة "ميكانيكية النمو"

لمفهوم مطالب النمو أهمية في الكشف عن المستويات الضرورية التي تحدد كل خطوط تطور الفرد، وهي بذلك تصلح لتوقيت العمليات التعليمية المختلفة وترتيبها في وحدات متتابعة متعاقبة، وتبين تلبية مطالب النمو مدى تحقيق الفرد لحاجاته، وإشباعه لرغباته وفقاً لمستوى نضجه وتطور خبراته التي تتناسب مع سنه، وتظهر هذه المطالب نتيجة للنمو العضوي، وبعضها ينتج من الآثار والضغط الثقافي للمجتمع، وبعضها ينتج من القيم التي يعتنقها الفرد، ومن مستوى الطموح الذي يهدف إليه، وتنتج مطالب النمو من تفاعل عوامل هي: مظاهر النمو العضوي، ومظاهر الثقافة القائمة - ثم مستوى طموح الفرد.

والإنسان يتعلم لغة الكلام القومية منذ طفولته، بعد أن يتوافر لديه الاستعداد الفطري التام لاكتسابها، ويلتقي عنده خطأ اللغة والفكر، ثم يبدأ شيئاً فشيئاً بالكشف عن مميزات اللغة وإدراك غاياتها ووظائفها وارتباطها بما حوله، وتصبح عملية اكتساب الإنسان للغة متطابقة مع قوانين اكتساب العادات والتقاليد الأسرية والاجتماعية، ضمن إطار العلاقات المثيرة والاستجابات، كما يرى السلوكيون أمثال "واطسون" و"سكندر".

وتخضع عملية اكتساب اللغة لمراحل زمنية مختلفة تبعاً لهذا التقسيم: مطالب النمو في مرحلة المهد، والطفولة المبكرة من الميلاد وحتى سنت سنوات: تبدأ بمرحلة المناغاة، تتحول حين يتجاوز الطفل شهوره السبعة الأولى من المناغاة إلى مقاطع ثم كلمات، ويبدأ بعدها في التعبير عن جملة بأكملها في كلمة واحدة، معتمداً في ذلك على قدرته على التقليد والمحاكاة.

وفي نهاية السنة الثانية، يبدأ في تعلم العلاقات بين عناصر الجملة والصفات الدلالية لأجزائها المكونة، ويبدأ في تكوين الجملة ذات الكلمتين، ثم إلى تكوين الجمل.

وتكون القدرة على اكتساب اللغة في أوج نشاطها- كما يرى بعض علماء اللغة- قبل السنة الخامسة، ويبدأ الطفل في اكتساب الكلمات وتحصيلها كجزء من اكتسابه العام للغة منذ طفولته، وقد يتأخر نطق الطفل للكلمات أو يبقى حتى الشهر العاشر أو الثاني عشر في مرحلة الكلمة الواحدة، أو في دور نطق المقاطع رغم أنه يفهم كلمات عديدة.

يحصل الطفل من ألفاظ اللغة في الثمانية عشر شهراً الأولى بين (٣-٥٠) كلمة يصل متوسط عدد الكلمات التي يكتسبها إلى أربعمئة كلمة تقريباً، عندما يبلغ سنتين ونصف السنة من العمر، ويبلغه سن الثالثة يمكن أن يصل عدد الكلمات التي اكتسبها إلى ألف كلمة في المتوسط، ويظل هذا العدد في تمام وتطور مستمرين، بقدر ما يتاح له من عوامل النمو والتطور، وقد لاحظ بعض الدارسين أن معظم الكلمات التي يكتسبها طفل ما قبل المدرسة، أو الطفل في بدايات نموه عامة، ذات مدلولات محسوسة، وبالأخص الكلمات التي تدل على أشياء أو مخلوقات متحركة أو قابلة للحركة.

وقد أظهرت الدراسات التي أجريت على الأطفال في المراحل الدراسية الأولى، أن المفردات اللغوية لديهم تظل تتزايد سنة بعد أخرى، فالكثاب اللغة تظل أكثر ارتباطاً بالأطفال، والإنتاج والفهم (أو الإدراك) ليست محددة بمراحل عمرية معينة.

إن اكتساب الطفل السوي للغة ولمفرداتها في المراحل الأولى من نموه عامة ربما يكون كما يرى (نوام تشومسكي) عفوية تلقائياً، لأن ذهن الطفل

مهياً بشكل من الأشكال لإتمام عملية التكلم واتجاهه لإثبات وجوده الاجتماعي اتجاه فطري والطفل يعتمد على أمه في بداية هذه المرحلة اعتماداً كلياً، وعليه فالأسرة ، بل المحيط الذي يعيش فيه الفرد بأكمله منه هو إجزاء من المجتمع الكبير الذي تظهر وتتمو فيه اللغة القومية، وقد بينت الدراسات والتجارب أن الأطفال الرضع في سن شهر أو شهرين يمكنهم التمييز بين بعض للوحدات الأولية للأصوات الصادرة أثناء الكلام.

مطالب النمو في مرحلة الطفولة المتأخرة (٦-١٢) سنة:

يتعلم الطفل المهارات الحركية، مع تكوين اتجاه عام نحو نفسه وحولها ككائن حي ينمو، ويتعلم مصاحبة الأتراب، ويكون المفاهيم والمدرجات الخاصة بالحياة اليومية، وتكوين الضمير والقيم الخلقية والمعايير السلوكية، وتكوين اتجاهات نفسية متصلة بالمجتمعات البشرية المختلفة، ولا يأتي ذلك عن طريق ما يعرفه الطفل من لغة، فتتكون الجمل من الكلمات لديه في تسع سنوات، فيستخدم الأسماء للدلالة على الناس والحيوانات والأشياء، وكذلك الأفعال لتعبر عما يفعله الناس وما يحيط به، ويستخدم الصفات لوصف ما يشاهده.

مطالب نمو للبلوغ والمراهقين (١٢-٢١ سنة):

في هذه المرحلة يتقبل الفرد التغيرات التي تحدث له نتيجة نموه الجسمي، ويكون علاقات جديدة مع الأصدقاء، ويستقل عاطفياً عن الأسرة، ويصل إلى مستوى الاطمئنان كما يحدد مستقبله لما يتكون لديه من المهارات والمفاهيم العقلية الضرورية للمواطنة الصحيحة، ويتقبل المسؤولية الاجتماعية، وتتكون لديه قيم سلوكية.

إن أنماط الحياة وأساليبها في تغير متواصل وتطور مستمر، وتبعاً لذلك تتغير حاجات الناس وأغراضهم وأساليبهم، وتطور لغاتهم ولهجاتهم وألفاظهم ومعانيهم، ومهما كان الاستعداد الفطري للإنسان، وكانت العوامل المساعدة، والأمور مهياة لاكتساب اللغة، فإن حصيلة اللغة القومية من الألفاظ تبقى أوسع من أن يحيط بها الفرد أو يتلقاها بمجرد التعايش مع أقواد أسرته، والاختلاط بأهل محيطه، "إن الألفاظ تابعة للحياة، إنها تتحول بتحولها، فطالما أن الحياة لا تثبت على طور من الأطوار، فكذلك الألفاظ لا تثبت على وجه من الوجوه على تراخي الأحقاب، فالصلة بين الحياة والألفاظ مستحكمة الأواصر".

إن من المسلم به أن لدى الأطفال استعداداً ولادياً لمهارة لغوية تسمى: "جهاز اكتساب اللغة"، يمكن الأطفال من السيطرة على الإشارات للقادمة وإعطائها معنى وإنتاج استجابة . "ويرى الكثيرون أن الأطفال يأتون إلى العالم مجهزين وراثياً أو جينياً للتعامل مع اللغة بطريقة معينة، وأن المبادئ الفعالة في تعلم اللغة جزء من ميراثنا البيولوجي"، حتى إذا كانوا ينتمون لمستويات شديدة الاختلاف من الذكاء والبيئة الثقافية، وتطاع القواعد في حدود معينة دون أن يظهر ما يدل على فهمها في البداية، وقد قول إن الإنسان: فريد فيما لديه من استعدادات لغوية، ولكن ما هو الطريق الذي يتبعه الأطفال في تعلم كيفية فهم وإنتاج اللغة في المراحل العمرية الأولى؟ لاشك أن اللغة تتيح لنا دراسة الفكر، والنتاج الفكري، وقد بدأ علماء اللغة أمثال سلوبين، وبادن، وسبولسكي، وغيرهم في دراسة لغة الطفل وتطورها، وخاصة في المرحلة المبكرة- ما بين سنة ونصف وأربع سنوات- وأثبتوا أن لغة الطفل لها سماتها المميزة عن لغة الكبار، كما أثبتت أن أفضل المراحل العمرية لاكتساب اللغة هي ما بين عامين وسن البلوغ، وأن تعرض الأطفال للغة في مواقف طبيعية يعد مفيداً للغاية.

إن اللغات التي يكتسبها أطفال العالم هي التي أمضى اللغويون في
دراستها وتحليلها وفي محاولة التوصل إلى النهوض بها نطقاً وكتابة،
وما زالت المحاولات متصلة في سبر أغوار هذه اللغة، فكلما وصلت
المحاولات إلى شيء من النتائج المرضية جئ بمنهج مختلف اعتقاداً في أنه
أفضل من غيره، وهكذا محاولات مستمرة دون أن يتمكن الإنسان من حل
شاف حول هذه القضية.

اللغة والأطفال

الخطأ والصواب:

يولد الطفل مزود بنعم كثيرة- كالسمع، والبصر والحس والعقل- ما تلبث أن تنمو لتشكل له رأس مال يكون به قادراً على العيش، ومواصلة النماء، وتلبية حاجات الحياة، ومضت سنة الله في خلقه استكمالاً لهذه النعم الفطرية بما أودع في الإنسان من طاقات هائلة، تؤهله للرقى والارتقاء، وتعدده للإنتاج والإبداع، وتساعده على التكيف والعطاء، وتشكل له أساساً لا بد منه في حياته الفردية والاجتماعية، وأبرز ما يتمثل ذلك في اكتساب اللغة، من هنا وجب الاهتمام بتعليم اللغة، على مستوى الفرد والمجتمع أيضاً، وتنهض عناصر التربية، ومؤسسات التعليم بهذا المطلب الحيوي الجوهري بحيث يتحقق الإتيان للغة في صورتها: الرمزية الصوتية، وتشمل: الكلام والاستماع، والرمزية الخطية، وتشمل: القراءة والكتابة والضعف أو القصور في أحد هذين الجانبين، أو في المهارات المساعدة المتصلة بهما، قصور في الاتصال الاجتماعي، وتعطيل لوظيفة اللغة، ونقص يعترى الأفراد، وخطر يهدد الأمة، وحيف يلحق تاريخها، ويشوه شخصيتها، ويساومها على ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وأصبح الضعف اللغوي ظاهرة العصر، وقصر الأداء اللفظي والكتابي عن استكمال مظاهر الصحة بين كثير من أبناء المدارس والجامعات، وامتد الضعف إلى وجوه الأداء اللغوي الأولية. والمهارات المساعدة، وأخلت بالمعنى في بعض الأحيان، وبمظهر الكتابة بوصفها وسيلة للاتصال والتعبير، ونقل الطلاب ضعفهم من التعليم العام إلى الجامعات، التي خرجت فئات من المعلمين غير المؤهلين لسد العجز وتلافي النقص، في دائرة مغلقة لا يعرف مبتدؤها ولا منتهاها لتحديد نقطة الضعف، وما يغص به إنشاء الطلاب وكتاباتهم في مراحلهم التعليمية، وقد أصبح الخطأ في اللغة

هما يورق جفون المهتمين والمعلمين وأولياء الأمور، وأساتذة الجامعات،
والغير من أبناء الأمة، وضجت الشكوى من هذا الضعف، وتنادت الصحف،
والندوات والمؤتمرات، والمجامع بأن هذا الضعف أصبح بدرجة يهدد اللغة
العربية واقعاً ومستقبلاً، يخشى منه على الأمة، وشخصيتها، وعقيدتها،
وكيانها، وصلتها بتراتها وجنورها.

وإذا كان البناء المعرفي لهذه اللغة من المرونة والاتساع بحيث يعطي
مزيداً من للتفسير والاحتمال لكل ظاهرة لغوية، حتى قيل "النحوي لا يقلب"،
وكان الأساس للنظري للغة قد احتل فيما احتل تعدد اللهجات، فليس
الغرض من قضية الصواب والخطأ في اللغة أن نقع على الاختيار الثاني أو
الثالث من العربية، لو أن نجد وجهاً فرعياً للمسألة، لو أن نلتمس تعليلاً
لجواز هذا أو ذلك. فكل ذلك أمر ممكن، ولكن الغرض أن نحتكم إلى
الأفصح والأقوى والأشيع والأصح الذي استقرت عليه النصوص، وجرت به
الأسنة، وأثبتت الاستعمال اللغوي الممتد، وجاء في النصوص الشرعية. فذلك
مخالفته مخالفة، وموافقته هي الصواب الذي ينبغي ألا نحيد عنه، وسيضمن
لنا هذا الاتجاه وحدة للغة، ووحدة للتعبير، ووحدة الأمة، ويجنبنا أن نخوض
في فوضى لا حدود لها.

وإذا استخرجنا "نظرية" الخطأ، وأصبحنا قادرين على أن نقدم لجمهور
الطلبة وللكتبة تفسيراً يهين لهم (وعياً نظرياً مقنعاً)، على حالهم مع اللغة،
فإننا نستطيع أن نأخذ بأيديهم إلى تدارك أخطائهم في اللغة عن بينة. نلك أن
كل تعلم محدود بزمان وغاية إلا تعلم اللغة، فإنه يبدأ قبل المدرسة، ولا ينتهي
أبداً، ويستخدم في تحصيل كل العلوم، وأن مفاهيم المدرسة وعلومها كثيراً ما
يصيبها النسيان، إلا اللغة فإنها تزداد بالزمن، والاستعمال تطوراً وغنى
وثراء.

وأخطاء الطلاب النحوية تحتاج منا إلى فرط عناية وتركيز، بحيث توليها المناهج، ويمنحها المعلمون اهتماماً خاصاً من الممارسة والوعي، يتجاوز حفظ القاعدة، واستظهار الأمثلة، حتى يضيفي تجديداً على طرائق تدريس النحو، وهي في أمس الحاجة إلى بعث هذه الروح فيها، وترجع الأخطاء اللغوية إلى ما يرثه الطلاب من الغلط في الصحف والكتب، ولغة الحديث، وشرح المعلمين، وكان ذلك لا يعفينا من تقويمها على أسننتهم وأقلامهم حتى لا ننتج لها الثبات والاستقرار، أما الإملاء فأشيع ما يقع فيه التلاميذ من الأخطاء الإملائية وهو على حد تعبير "روبير دوترانس"، الكلمات التي تخضع كتابتها للعرف، وليس لقواعد عامة، والقواعد اللازمة لتلافي هذه الأخطار التي يقع فيها الطلاب، النظر في توزيع المقرر وطريقته وأساليب التدريس، والتدريبات، وقدرات المعلمين، ومستوياتهم.

وعلى الرغم من التقدم الحضاري الذي يكتنف الحياة المعاصرة، والذي ظهر أثره في الرقي الذوقي، وتحسس الجمال، إلا أن الخط يتقهقر ويتخلف، مع أن الجانب الجمالي الفني هو الغالب عليه، ويأسف المرء على ما وصلت إليه خطوط طلابنا. وقد دلت بعض الدراسات على أن شكل الكتابة وجمال الخط عامل مؤثر في تقويم المدرس، وتقدير الدرجة في الأعمال التي تضم حقائق عادية، ومعارف عامة، وترجع رداءة الخط في الكتابة إلى اكتساب العادات غير الصالحة منذ للتدريبات الأولى، ثم تستقر مع الممارسة وتقدم الزمن.

إن اللغة العربية غنية بصيغها المتعددة، وبجوانبها الصرفية، وأنواع الجموع، وقدرتها على تمثل المادة اللغوية، ونقلها إلى معان عديدة بالاشتقاق، أو تغيير الحركة أو إشباعها والطالب في أكثر المناهج يدرس أنواع التصريفات والجموع والمشتقات والأبنية. ومع ذلك قدرته على استعمال هذه

الصيغ وتوظيفها والتفريق بينها تعد قليلة، وتكاد لغته تكون محصورة بين الصيغ المشهورة المتداولة، ولا تلقى المادة الدراسية ظلها على هذه اللغة فيقل فيها بعض المشتقات الأخرى.

ويرمي تعليم اللغة العربية إلى تزويد الطالب بالقدرة على معالجة الفكرة وخصبها وعمقها بنوع من الاستيعاب والوفاء بالعناصر والأجزاء والإحاطة والشمول، وتوليد المعاني الجزئية المتصلة بالفكرة الأساسية من خلال نمو داخلي مترابط تصب فيه الأفكار في قالب محكم متجانس، وترتيب منطقي يسلم بعضها إلى بعض، ويتأتى ذلك بذكر الأسباب وتقديم العلة، ورصد النتائج التي تترتب عليها مع ضرب الأمثلة والشواهد وعرض الموازنات، وتوظيف المعلومات المختلفة.

غير أن المتأمل في أسلوب الطلاب ومدى إحكامه، يجده في ظل هذه المعايير مفككاً وضعيفاً، نقل فيه الروابط، وتكثر فيه الانتقالات المفاجئة دون تمهيد مع تباين في المستوى والفكرة، وتباعد في الزمان كعطف مضارع على ماضٍ أو بالعكس، وخلل في استعمال الضمائر كالانتقال من الحضور إلى الغيبة أو العكس، ومن المفرد إلى الجمع أو العكس، وليس في الفكرة عمق يعطي الأسلوب قوة دفع وامتداد، ولا عاطفة تؤدي إلى الربط والإحكام، وعلى الرغم من الانفجار المعرفي الذي يتسم به العصر، والنمو المستمر، والتقدم المطرد، حتى قدر العلماء أن المعرفة تتضاعف كل عشر سنوات تقريباً، وعلى الرغم من القفزة الهائلة في وسائل الاتصال والتقنية التي تمدنا بالمعرفة، فإن كثيراً من المتعلمين يظل جامداً منغلِقاً مقتصرأ على جانب معين، منعزلاً عن الثقافة الضرورية، وهذه العزلة ليست من طبيعة العصور، ولا من روح التربية.

الموهوبون

إن لغة الطفل تمر في فترات نمو سريعة، وأخرى أقل نمواً، ولكنها تظل تدريجية وأن الطفل في السنوات الأولى لا يستثار باللغة وحدها الاستثارة الكافية ما لم تصاحبها ظروف أخرى كالإشارات والحركات، وتتمثل ثورة الطفل اللغوية في الكلمات التي يعرف مدلولاتها عندما يسمعها أو يقرأها أو يستخدمها، وهو ينظر إلى اللغة على أنها تأليف بين كلمات، وتعلمه اللغة يتطلب تعلم الكلمات أولاً، وكلام الأطفال المكتوب يختلف عن كلامهم الشفوي.

وقدر ركزت البحوث التي أجريت في الوطن العربي لقياس ثروة الطفل اللغوية على حساب تكرار الكلمات التي يستخدمها الأطفال في أحاديثهم الاعتيادية، أو حساب تكرار الكلمات التي تشيع في كتبهم المدرسية. وتعتبر سعة الثروة اللغوية للطفل إحدى المهارات الاتصالية في حالة تعبيره وفي استقباله المضمون الاتصالي، والاتصال بالأطفال يستلزم استخدام لغة يفهمون دلالتها ويتذوقونها، ومقدار ثروة الطفل اللغوية تتيح له التفاعل اجتماعياً، وهو يعبر بها عن أفكاره، ويستقبل أفكار الآخرين، غير أن الطفل الوليد حين يصدر أصواتاً لفظية دون أن يكون لها معنى فلا ينظر إليها على أنها تعبر عن فكر، ولغة الأطفال تعجز أحياناً عن التعبير عما يحملون من أفكار من مشاعر وعواطف.

إن اللغة مقياس حقيقي للحكم على شخصية الأطفال، ومعرفة قدرتهم على التفكير، والتعبير عن العواطف والمشاعر، والحكم على المواقف والمشاهد التي يتعرض لها، وكيفية التصرف حيالها، كذلك تعتبر الركيزة الأساسية للابتكار عند الأطفال، والرغبة في تحقيق نجاح في جميع أعماله

وتصرفاته، ومن هنا نستطيع الحكم على الأطفال، ووضع أيدينا على الموهوبين منهم، ونوي الابتكارات.

حيث تبدأ موهبة الخلق والابتكار عند الطفل في المراحل المبكرة من العمر، خاصة في سن الثانية، كما أكدت ذلك دراسة للإخصائية الأمريكية "باتريكا هندريون" بجامعة شيكاغو، وبينت أن الطفل في هذه المرحلة من العمر يكون لديه القدرة على التعبير عن احتياجاته ومطالبه، وأحاسيسه ومشاعره، ويستطيع أن يقوم برسم بعض الرسومات البسيطة أو اللعب ببعض الألعاب كالعرائس، إلى جانب اللعب الجماعية، ففي هذه المرحلة يكون خيال الطفل خصباً عندما يختلق بعض القصص والحكايات، ويتخيل أن اللعب الخاصة به شخصيات حقيقية، وهنا يجب مشاركة الطفل في تخيلاته، وعدم إظهار الدهشة إذا ما رسم وجه أي شخص بطريقة غريبة، بل يجب تشجيعه إلى أن يتعرف للطريق السليم من خلال تجاربه، ومن المعروف أن الأطفال في هذه المرحلة من العمر يكون لديهم مقدرة كبيرة على الخلق والابتكار، ولا بد من تشجيعهم على تنمية هذه الموهبة، وقد أكدت الأبحاث والدراسات العلمية على أهمية موهبة الخلق والابتكار عند الأطفال، لأنها تسمح لهم بالتفكير السليم، وتساعدهم على التوصل إلى أنسب الحلول لمشكلاتهم، ومن المعروف أيضاً أن موهبة الخلق والابتكار تشغل كيان الطفل وتفكيره ومشاعره، وتساعد على النجاح في حياته الدراسية والاجتماعية فيما بعد، وهي إحدى المفاتيح المهمة في تكوين شخصيته، فينمو بطريقة طبيعية، ولا يصاب بالانطواء أو التوتر النفسي، فيجب ترك الحرية الكاملة للطفل لكي تكتشف موهبة الخلق والإبداع عنده دون الاعتماد على الآخرين.

ولقد ركزت العديد من الدراسات، والأبحاث العلمية على الأطفال، وأهم الوسائل التي تؤدي إلى نجاح موهبة الخلق والابتكار عندهم، ومن أهمها تزويده بالأدوات التي تساعد على تنمية هذه الموهبة، ولا تقدم له إلا الأشياء السهلة البسيطة. وتصل به إلى الأصعب عن طريق التدرج، وتترك له الحرية الكاملة في تخليق الأشياء التي يريدها، فإن لديه شغفاً كبيراً في اكتشاف ما يقدم إليه، على أن نهى له الظروف المناسبة.

وتعد الموسيقى من أهم الأشياء التي تنمي موهبة وقدرات الطفل في مراحل العمر المختلفة، من أجل ذلك كانت الكلمة التي تصل إلى الطفل مغناة أسرع وأجدى مما لو قدمت له عن طريق الإلقاء، فالكلمة ذات الإيقاع لها أثرها لدى الطفل، وتجعله يقبل عليها برغبة وحب.

إن التغيرات السريعة في عالمنا المعاصر، تجعلنا نعيد النظر فيما يمكن أن نعامل به الأطفال، وما يمكن أن يتعلمه وكيفية خاصة في سنواته الأولى حيث يتم فيها أسرع نمو في الخصائص الجسمية والعقلية، وأنها أعظم الفترات للتأثر بالبيئة، وما حوله، والرغبة في أن يتعلموا عن العالم الذي يعيشون فيه، ولكي يعرف لابد من اللغة، ولابد من الوقوف عليها نطقاً وكتابة، وإتقانها إتقاناً يؤدي إلى اكتشاف المعاني والدلالات.

ومن المؤكد أن هناك علاقة أثبتتها الدراسات العالمية والمحلية بين الرعاية الصحية والغذائية، وبين نمو الطفل وقدرته على التحصيل والتفوق والإبداع، وأن البيئة الغنية بالظروف الطبيعية، تعمل على نمو الجهاز العصبي والمخ، وعلى ذلك فالأطفال محتاجون إلى ذلك، لأن الخلايا العصبية في مخ الطفل تنمو بدرجة متزايدة منذ لحظة ولادته، لتكون المراكز العصبية المرتبطة بوظائف المخ كالتفكير والانتباه والإدراك، والعاطفة والسلوك، ولذلك كلما عاش الطفل في بيئة غنية بكل الأبعاد المعنوية والمادية، كان ذلك

مؤثراً قوياً على مستوى نكائه، كما أن زيادة عدد خلايا المخ في مرحلة الطفولة والشباب تحمي من أمراض الشيخوخة.

إن نمو نكاء الطفل يتطلب معيشته في جو عائلي، يتوافر فيه العطاء المعنوي، والانتماج الاجتماعي، مع توفير وسائل التسلية والألعاب التي يفضلها، وتشجيعه على التعبير عن نفسه، وإحساسه بالثقة حيث يساعد ذلك على نمو خلايا المخ، ونضج مراكزه الحيوية، وزيادة عدد خلاياه، وهذا النمو والنضج يصاحبه زيادة في اكتساب القدرات العلمية، وارتفاع معدل الذكاء لديه.

إن الموهبة وراثية فطرية، ولنا أن نكتشفها بالملاحظة لبعض سماتها وخصائصها أو عن طريق بعض الاختبارات، وأن العقل البشري ساحة فسيحة غير محدودة من حيث مرونتها في الاستقبال والتفاعل مع مؤثرات خارجية معلومة وغير معلومة لنا، تتولد من خلالها طاقات وقدرات متعددة ومتنوعة. ومن ثم فإن ما يمكن أن يظهر في تلك المساحة من موهبة أو أكثر، إنما هو نتاج ومحصلة لتلك المؤثرات البيئية، ومن بين ذلك النتاج قدرات معينة تتصف بالحيوية والنشاط، وسمات لمحاولة تجاوز النمط العادي في تجلياته وأشكاله المألوفة، ولابد أن تعني مؤسسات المجتمع كلها وتسعى لاكتشاف الموهبة ورعايتها وتميئتها، لأنها ضرورة قومية.

وقد أثبتت جميع الأبحاث التربوية والنفسية، أنه كلما قللنا القلق والتوتر والشد العصبي - استطاع الطفل أن يستمتع بسنوات دراسته الأولى، كما أن التقويم المستمر للتلميذ طوال العام، أفضل من التقويم مرة واحدة، وقد تضافرت الجهود لخدمة طفل المرحلة الأولى، في سنوات عمره الأولى، بحيث وفرت له كل الإمكانيات التي تساعد وتعينه على إثراء اللغة عنده، فمن خلال بحثٍ تجريبي ميداني قام به بعض الدارسين العرب بهدف التعرف

على اللغة الأساسية للأطفال من سن الثالثة حتى الثانية عشرة، واتخاذ ذلك أساساً في وضع معجم للطفل العربي، وجد أنه من الضروري تقسيم معجم الطفل إلى مراحل، من أجل تيسير تناول المادة اللغوية، على الرغم من التداخل الطبيعي في السنوات، والنمو، والوعي، والذاكرة، وغيرها من القدرات أو المهارات الطبيعية والمكتسبة، وهذا يؤكد ضرورة السير باللغة نحو مستوى أفضل، والسير بأبنائنا نحو طريق أصح.

إن كل طفل في أي مكان، وفي أي مجتمع، قادر على اكتساب اللغة التي يتحدث بها مجتمعه ببسر وسهولة، وفي فترة زمنية قياسية، بل إنه ليس هناك طفل لا يكتسب لغة مجتمعه، حتى لو كان هذا الطفل متخلفاً عقلياً.

الباب الثاني

اللغة في مفترق الطرق

الفصل الأول

انحسار اللغة

لغتنا العربية تصادف في وقتنا الحاضر بعض المشكلات التي تعترض مسيرتها، وتحد من مكانتها، وهي مشكلات ترجع إلى عوامل مختلفة، منها ما هو مرتبط بالتعليم وبالطلاب، وأولياء الأمور، ومنها ما هو متعلق بخريجي الكليات والمعاهد العليا، ومدى معرفتهم باللغة في أسرارها وأيضاً القائمين على الإعلام ووسائله المتعددة، وكذلك ما تأثرنا به في إعلاناتنا، وغير ذلك. ورغم ذلك فنحن متفائلون بمستقبل اللغة العربية لأنها أولاً لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، فهي وإن كانت على هذا الحال في القرن الحادي والعشرين، فقد وصلت في القرن التاسع عشر، وما قبله إلى مستوى أقل مما هي عليه الآن في الأساليب والمصطلحات. من أجل ذلك فنحن نحاول أن نلقي الضوء على مدارسنا ومناهجنا الدراسية. ونعطي اللغة العربية، فما يقدم لأبنائنا لا يجد عندهم صدى، وينفرون منه، ويحفظونه على غير رغبة منهم، ويرجع ذلك إلى أسباب منها: طريقة العرض لفروع المادة، أو لمن يقوم بتقديمها وعرضها، أو للوسائل المعينة لها، أو للمنهج الدراسي المقرر، أو للوسائط المختلفة التي يتعامل معها الطالب: في الأسرة أو المدرسة أو الشارع أو الأندية أو حيث يلتقي إنسان بإنسان، وهذا يدفعنا أن نقف عند منحنى في فروع اللغة يعتبره الدارس شاقاً عسيراً عليه، وكيف نزيل ما بينه وبين ما يجده من عوائق فيما يقدم إليه، حتى نصل به إلى إدراك ما يعرض عليه. وفهمه فهماً دقيقاً محبباً إليه، في غير ما عسر.

سيقول قائل إنها مادة النحو والصرف كما يشاع، وأقول لا- وإن كان فيها صعوبة على الطالب- بل هو الشعر أصعب الفنون اللغوية في تدريسها، أقول لا.. فقد أوهموه أنه صعب فاستصعبه، ذلك لأن الشعر دائماً في أية لغة

لا يكشف عنه دائماً الكلام المسطور، وإنما ليس من السهل الوصول إلى مضامينه إلا بالتعمق مع الموقف الذي قيل فيه الشعر، مع الخلفية الثقافية لمن يقول الشعر، مع إدراك الإشارة والإيحاءات، وما تحمله من دلالات- وإن كان البعض يفسرون الشعر بمعزل عن هذه المؤثرات، وعلى اعتبار النص كائن حي بذاته- وهذا يحتاج إلى جهد واضح، وبحث، واطلاع لا يقدر عليه إلا المخلصون. إنما العسر يرجع إلى أننا فقدنا المتعة الحسية في عدم ممارسة اللغة، وتفضيل غيرها عليها، واعتبار المتمسك بها يمثل عاراً في مجتمعه، فتركنا لغتنا، وبعدنا عنها، فأصابها ما أصاب من خور وضعف، وأصبحنا في وضع لا نحسد عليه، وحتى لا نفقد هويتنا وقوميتنا، نحاول أن نجد حلولاً لهذه القضية، وأن نضع لها ما يرفع بناءها، ويعيد لها صورتها، ومكانتها التي سادت العالم العربي والإسلامي.

وهكذا بعد أن رأينا ماهية اللغة، وأهميتها، وضرورتها في حياتنا الاجتماعية، وعلاقتها بالفكر والذكاء والحضارة، والثقافة والمجتمع، وأوضحنا في عجالة طبيعتها، وتركيبها، ووظيفتها، وكيف تكتسب في مراحل النمو المختلفة، وخاصة في المراحل الأولى من عمر الإنسان، حيث يكشف الموهوبون، والمبدعون، ونحرص عليهم، ولن يتم ذلك إلا عن طريق اللغة، والنهوض بها نطقاً وكتابة، وقد مرت قرون انحسرت فيها اللغة تحت الاحتلال الإنجليزي والفرنسي ثم عادت وازدهرت، ولبست ثوبها من جديد، ولكنها تتعرض أيضاً لأخطار على الطريق، علينا أن ننتبه إليها ونعمل على الحفاظ على مكانتها، وحمايتها من هذه الأخطار حتى لا تصبح المشكلة مستعصية، ويضيع منا الطريق، والمشكلة لا تكمن في اللغة العربية نفسها، ولا فيمن يقوم بتعليمها، ولا في طريقة تدريسها، ولا في الطالب ولا في ظروف التعليم، ولا في المناهج، ولا في المحيط الاجتماعي الذي تجرى فيه العملية التعليمية، ولا في أولياء الأمور، ولا فيمن يستخدمونها في جميع

الميادين والمجالات، ولكنها نتيجة لوضع تترابط فيه هذه العوامل جميعها، وتتشابك تشابكاً شديداً لا يمكن فكها، ويستدعي ذلك سير الأغوار، سواء في اللغة نفسها، أو العقل البشري، أو النفس الإنسانية، أو العمليات العقلية والنفسية المختلفة، أو أغوار المجتمع الإنساني الذي تجرى فيه عملياتنا التعلم والتعليم.

لابد أن ننظر إلى اللغة نفسها، لا على أنها مادة علمية تعليمية فحسب مثلها كمثل الكيمياء والرياضيات وغيرها من المواد المختلفة العلمية الأخرى التي يجدها المرء في أي خطة دراسية، كما لا يجوز النظر إليها كما لو كانت واحدة مما يكتسبه الطفل في سنوات عمره المختلفة، والحفاظ عليها وحمايتها والعمل على انتشارها والتمكين لها في أوساط المجتمعات العربية، ولدى الجاليات العربية الإسلامية في بلاد المهجر، ليس عملاً تعليمياً تربوياً، أو نشاطاً ثقافياً أدبياً، أو وظيفة من وظائف وزارات التربية والتعليم، والمؤسسات والهيئات والمنظمات المختصة فحسب، ولكنه عمل من صميم الدفاع عن مقومات الشخصية العربية، والذود عن مكونات الكيان العربي الإسلامي، وعن خصوصيات المجتمعات العربية الإسلامية، وعن الركيزة الأولى للثقافة العربية وللحضارة العربية الإسلامية.

اللغة الأجنبية:

إن اللغة العربية ركن أساسي من أركان الأمن الثقافي والحضاري والفكري للأمة العربية والإسلامية، في حاضرها ومستقبلها، واللغة العربية هي القاعدة المتينة للسيادة الوطنية، والقومية الإسلامية، وهي ليست لساناً فحسب، ولكنها عنوان لهذه السيادة التي تحرص عليها كل دولة من دول المجموعة العربية الإسلامية، فهي إذا تعرضت لخطر من الأخطار فعلياً أن نواجهه على النحو الذي يعيد لها مكانتها وقيمتها، وما نراه ونحس به جدير بأنه يحرك السواكن، ويحفز إلى تدارك الأمر، قبل أن يبلغ درجة من الاستفحال يصعب معه العلاج، ولذلك، وباعتبار أن اللغة العربية قضية استراتيجية في المقام الأول، تمس الأمن الثقافي والحضاري للأمة، فإن المسألة في عمقها وجوهرها تتطلب بقطة أشمل وأعمق، وحركة أكبر وأنشط، وعملاً أكثر جدية وفعالية واستنفاراً للطاقات الحية، وحشداً للجهود المخلصة، في إطار من التنسيق والتكامل والتعاون، والعمل العربي المشترك على مستوى المنظمات والمؤسسات والجامعات والهيئات المختصة.

فاللغة العربية هي العروة الوثقى التي تجمع بين الشعوب العربية، والشعوب الإسلامية التي شاركت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، لغة القرآن الكريم، ولغة الثقافة العربية الإسلامية، ومن هنا تأتي الأهمية الكبرى لتدعيم مكانة اللغة العربية، والعمل على النهوض بها نطقاً وكتابة، ونشرها وتعليمها، لأنها قضية وجود، وقاعدة كيان، ودعامة النظام العربي الإسلامي، وعلينا أن ندرك المخاطر التي تحاصرها حتى نعمل على إزالتها أو للتقليل منها، ولكي نستطيع النهوض باللغة نطقاً وكتابة لابد أن ندرك المخاطر الآتية:

ولعل من أبرز العوامل التي كان لها أثر قوي على النيل من لغتنا العربية، الصراع المرير الدائم مع اللغة الأجنبية، فقد أصبح استثمارها كسباً تجارياً لأصحاب المشاريع والمؤسسات التعليمية- إن جاز التعبير- وصارت ميداناً للتنافس، مما أدى إلى تباري أولياء الأمور في إلحاق أبنائهم على هذه الأبنية العلمية الخاصة، حتى أن بعضها فرضت على الطلبة غرامات مالية لمن يتحدث العربية، فكانت المأساة التي يعاني منها الناشئة، ومما يزيد الموقف سوءاً وخطراً، الأسلوب والطريقة التي تقدم لغتهم الأصلية أثناء الدروس الخصوصية- وسيأتي الكلام عنها- ومن هنا ينشأ الخوف على مستقبل هؤلاء الطلبة، ومن ثم لغة المجتمع الذي سيواجهونه، ويشكلون جزءاً مهماً فيه.

إن الدافع للاهتمام باللغة الأجنبية، والاتجاه لتعلمها في المدارس الخاصة من ورائه الكسب المالي- تجارة رابحة غير كاسدة- وإن كان التعليم فيها يشترط ويتطلب إدارة حكيمة، وأعضاء هيئة تدريس منتقاة، وأسلوب ونظام تربوي سليم من نظافة ودقة واهتمام، غير أن الباعث إليها من خلال تعلم اللغة الأجنبية، وإعطائها أهمية بالغة على حساب الاهتمام باللغة العربية، والتي يغلب فيها استخدام الإنجليزية في دراسة المواد العلمية، على أنها اللغة المعتمدة، وممارستهم لهذه اللغة على مستوى عريض نطقاً وكتابة، والمناقشة والحوار مع أساتذتهم، والمشرفين واستخدام الوسائل السمعية والبصرية في توصيل المادة إليهم، والدورات التي يقيمونها لتطوير وسائل للتدريس، والتقويم والتطوير، وإغرائهم بالمؤثرات الخارجية الأخرى التي تدعوهم إلى الاحتفاء بها.

كل ذلك يبعث على النظر إلى اللغة العربية على أنها اللغة الأقل شأنًا، والأقل جدارة بالاهتمام، فتزيد من جهلهم بها وبمكانتها ودورها في عملية

البناء الحضاري، وتقلل من احترامهم لها، ومن العناية بها، وتضعف من سعيهم أو من حماسهم لتطوير مهارتهم فيها.

أنا لا أنكر وجوب معرفة اللغات الأجنبية، وأوصي بتعلمها، فمن تعلم لغة قوم أمن شرهم، لكني لا أومن بإهمال لغتنا، أو العمل على ضعفها، فإن في ذلك هدماً لهويتنا، وتدميراً لديننا، فلغتنا العربية هي لغة القرآن الكريم، ومن أجادها فقد أجاد الدين، واستطاع أن يتعلم القرآن، وأن يعلمه، وفي ذلك خير عميم.

إن الرواسب أو المؤثرات التاريخية المهيئة لضعف اللغة العربية لدى أبنائنا، وفي مجتمعنا يرجع إلى أمور مجتمعة تخضع لها لغتنا في الوقت الحاضر، وتعليم اللغات الأجنبية أولى هذه الأمور، والتنافس فيها على المستويات الخاصة، والإقبال عليها والانبهار بها، قلل بلا شك من فرص الاتجاه لتعلم اللغة الأم، وقلل من ممارستها، ومن تداول ممارستها، فقلل رصيد هذه المفردات.

إن اللغة الأجنبية مغنم لا يستهان بقيمته، غير أن فرط الاهتمام بها لا يجب أن يكون على حساب لغتنا الأم، ففي مجالات التعليم العلمي، أصبح الاهتمام باللغة الأجنبية واضحاً، فاستخدمت المصطلحات والتعبيرات الأجنبية، وتسربت إلى لغتنا، وسرت على ألسنتنا، فقلل فرص استعمال العربية واستخدمها، وإنعاش مخزونها اللفظي عن طريق الكتابة والقراءة.

لقد تسربت ألفاظ اللغة الأجنبية ومصطلحاتها إلى لغة الجمهور العربي، لضعف ثقة كثير من أبناء المجتمع العربي بأنفسهم، وبلغتهم، وبقدرة هذه اللغة على الوفاء بمتطلبات الحياة، ومستلزمات الحضارة الحديثة، فضعف الاعتزاز بها وإحساسهم بضرورة التمكن منها.

بل لقد وصلت المهانة باللغة العربية إلى أن أحد محرري صفحة ثقافية في إحدى صحفنا اليومية، قدم عرضاً من كتاب فقال ضمن ما قاله: 'يضم

أيضاً تراكماً معرفياً وتطوراً ومتابعة لكل ما هو Up To Date .. هذا فضلاً عما يحدث في كتابة أساتذة الاقتصاد والقانون، فيما ينشرونه في مختلف صحفنا، عندما يشعرون بأن المصطلح الذي يستخدمونه باللغة العربية قد لا يعبر عما يدور في أذهانهم، فيكتبون أمامه مقابله باللغة الإنجليزية، برغم أنه قد يكون في كثير من الأحيان مصطلحاً شديد الوضوح إلا في أذهانهم التي تعودت على لغة أخرى غير العربية التي يضطرون إلى الكتابة بها في بعض الأحيان، وبجانب هذا هناك تخطيط لإزاحة اللغة العربية، وإحلال لغة أخرى مكانها، وذلك في بعض مناطق فلسطين التي سيطر عليها اليهود، فأصبحت العربية لغة ثانية، لأبناء العربية من الفلسطينيين، مما ترتب عليه نشأة جيل من أبناء العرب في هذه المناطق، من أصحاب الأزواج اللغوي، يستخدمون فيه العبرية بجوار لغتهم العربية، ولا بد أن نأخذ في الحسبان هذا الصراع بين العربية واللغات الأخرى، على مستوى الوطن العربي، إذ أن مستقبل الحضارة والثقافة العربية والإسلامية، سيظل أهد للدهر مرتبطاً باللغة العربية وجوداً وهدماً.

وهناك ظاهرة أخرى تسيء إلى اللغة العربية، فنظرة إلى اللافتات المنتشرة في الشارع العربي، أو القراءة العابرة للأسماء والمسميات لتدعو إلى الألم والحسرة، وتثير في النفس الأسى والحزن، حين تصاغ هذه الإعلانات بلغة أجنبية، وحروف عربية أو العكس، فهل فرغت قواميس اللغة، ونضبت مسميات التجارة العربية من أسماء للمنشآت والمرافق والمحال والمؤسسات الاقتصادية؟ فإذا أضفنا إلى ذلك ما يسمعه الناس ويرددونه من غناء للقول، تبين لنا الحال الذي آلت إليه لغتنا العربية.

نحن الآن نتجه نحو تدريس العلوم باللغات الأجنبية في الجامعات، لقد أصبحنا نتخلى بمحض إرادتنا عن استخدام لغتنا القومية في التدريس والتعليم

لتحل محلها اللغتان الإنجليزية والفرنسية، وأصبحت اللغة العربية في وضع حرج للغاية.

إن اللغة العربية ليست بأقل شأنًا من لغات الأمم التي سبقتنا في مضمار التقدم، فليست أقل شأنًا من اللغة الروسية، أو من اللغة اليابانية، أو حتى من اللغة العبرية، فقد أصبحت هذه اللغات وغيرها لغات علمية، يكتب الباحثون والعلماء بها، وترجم أبحاثهم واكتشافاتهم إلى كل اللغات الأخرى، فما بال أبناء اللغة العربية يقبلون طواعية أن يقضى على لغتهم، وما بالهم لا يدركون أنهم حينما يوافقون يوماً بعد يوم على إنشاء جامعات أجنبية، وتخصصات بلغات أجنبية، إنما يوافقون بإرادتهم على انتحار لغتهم، ما بالهم اليوم قد استسهلوا أن يقرأوا العلوم باللغات الأوربية، وأن يعلموها لتلاميذهم بنفس هذه اللغات، دون أن ينقلوها إلى لغتهم العربية- لغة القرآن- ورمز الهوية، والسبيل الوحيد لغرس الانتماء، ولإدراك التقدم، وعلينا أن ندعو إلى تعريب العلوم، وتحريم تدريس العلوم في الجامعات بلغات أجنبية، حتى نكون على بداية الطريق الحقيقي للتقدم، وأنا أؤمن بأنه كلما اشتدت الظلمات، وتقافز العديد من الكلمات الأجنبية يلو كونها دون وعي، ودون فهم لمضمونها، تساقطت حبات حروفنا العربية، ولا ريب في أن طلاب الكليات العلمية يشعرون بغير قليل من الهوان للغتهم العربية، إذ يدرسون علومهم بلغات أجنبية مختلفة، ولا يجدون للغتهم العربية مكاناً بينها، مما يجعلهم يشعرون بأنها لغة مختلفة، ولا توجد أمة متقدمة في العالم تعلم العلوم في جامعاتها بغة أجنبية سوى مصر، وبعض البلاد العربية، ومعروف أن سوريا هي البلد العربي الوحيد، الذي يعلم العلوم الغربية في جامعاته بالعربية منذ سنة ١٩٢٠م. ولم يحدث فيه أي خلل أو ضعف، ويشترك علماءها في المؤتمرات العالمية.

ورغم ذلك فإن هناك من يدعو إلى الإبقاء على الإنجليزية لغة لتعليم العلوم الغربية في جامعاتنا العربية، وتعميمها في كل سنوات الكليات العلمية، ويقولون إن اللغة العلمية السائدة في العالم اليوم، لتعليم العلوم هي الإنجليزية، ويسندون كلامهم بأن أساتذة العلوم في اللغات الكبرى، مثل الفرنسية والألمانية واليابانية، يعلمون الشباب في جامعاتهم بلغاتهم الوطنية، غير أن كثيرين منهم يتقنون الإنجليزية، ويكتبون بها مقالات علمية قيمة، ويقولون أيضاً إن العلم عالمي، ولماذا لا نعلم شبابنا بالإنجليزية اللغة العلمية السائدة في المحيط العلمي؟ ويقولون إننا إذا علمناهم العلوم باللغة العربية، يخشى عليهم من الانغلاق، وألا يستطيعوا متابعة التيار العلمي العالمي، ونسوا أننا حين نقول بتعريب التعليم الجامعي في البلاد العربية، سنحرص أشد الحرص على إتقان الشباب للغة الإنجليزية، أو إحدى اللغات الحية الأجنبية، وستوضع للشباب البرامج والمناهج الكفيلة بتحقيق ذلك.. بحيث يكون أساتذة جامعاتنا، مثل أساتذة الجامعات الأجنبية، فيعلمون الشباب في الجامعات باللغة العربية، ويكون منهم من يتقنون الإنجليزية، أو لغة حية غربية أخرى، يكتبون بها مقالات علمية، تنشر في المجلات العالمية.

ويمكن القول بأن تاريخ اللغة العربية لا يمكن استيعابه بدون اللغات الشرقية القديمة، فاللغة العربية وحضارتها، استوعبت كل حضارات الشرق القديم، ومازالت بها إلى يومنا هذا رواسب مماثلة في اللغة التي نتحدثها في أيامنا هذه، ومن ثم فإن درس العربية لا يمكن أن يكتمل أو يتميز دون البحث اللغوي المقارن بين العربية وهذه اللغات الشرقية، إننا نحتاج لدرس اللغات الأخرى ذات الصلة بلغتنا القومية، فمن الثابت أن تعلم لغة أجنبية، يساعد على فهم اللغة القومية، بشرط أن تكون موظفة لذلك، ولا تستأثر بالجهد كله، حتى لا تقلل من شأن اللغة الأم.

الدروس الخصوصية:

وليس من شك في أن ظاهرة الدروس الخصوصية قد انتشرت انتشار الوباء بين أسرنا، وعلى أبنائنا الطلاب، حتى أصبح التفاخر بها كتفاخر الجاهليين بأنسابهم وأحسابهم وحتى أصبح الطلاب يتبارون في الإسراع إلى حجز أماكنهم عند الأسماء التي لمعت في سماء هذه الظاهرة، والتي أصبحت لها خصوصيتها في هذا الميدان أو المجال أو الساحة التي افتعلها المدرسون لأنفسهم بتخصصاتهم الوهمية، التي أصبحت تنافس تخصصات الأطباء والمهندسين والذي لا نعرفه أن هذه للظاهرة من وسائل هدم اللغة العربية، حيث يستخدم المدرسون اللغة المبتذلة في سيناريو دعوتهم، وهي زيف وتزوير يعتمد على التخيل والإيهام، في فعلهم كفعل السحرة والحواة، مستغلين أرخص وأدنى الوسائل لاستقطاب ضحاياهم، كأن يقومون باقتعال إغراءات تعتمد على اختلاط البنات بالبنين أثناء الدرس، أو بتقديم وسائل مغرية أخرى أثناء حضورهم للمكان الذي يتلقون فيه علاجهم، حتى أصبحوا مدمنين لهذا العقار الذي يتعاطونه، ولا يقدرّون على تركه، أو تجنبه غير عابئين بما يصيب المجتمع من فساد وإضرار من جراء ذلك للفعل المهين.

ولو تنبه أولو الأمر لخطورة هذا الإيثار، وفكروا قليلاً لوجدوا الأبدال لأبنائهم، لوجدوها في البرامج التعليمية، وفي المجموعات الدراسية- تحت الرقابة والإشراف- وبما يضمن سلامة اللغة العربية، وحفظها من الضياع، وقد دلت الدراسات وأثبتت البحوث التي أجريت حول الاستفادة من هذه البرامج، أنها قد وصلت إلى معدلات مرتفعة.

وإني أرى أن العمل الذي يقوم به المدرسون، وهو ما يسمى- بالدرس الخصوصي- عمل إجرامي، مثله كمثل الجرائم التي تقترف في المجتمع،

والقضاء عليها يستلزم تضافر جميع الجهود والجهات في المجتمع ككل، وليس جهة بعينها على حدة، فلو استطعنا أن نفعل ذلك، ونقوي عليه لأمكننا للتخلص من هذا الداء الذي استشرى بنا، ولسقط المجرم صريعاً دون محاكمة، ودون إيداء الأسباب، ولوجد نفسه طريد المجتمع، وأصبح التخلص منه سريعاً ميسوراً، لكننا نتخاذل ونتعاس أمام هذه القوى التي لا تعرف منابعها ومصادرها، ولا تعرف أيضاً مراميها ومآربها، غير ما يعترينا من مصائب من جراء استمرارنا على هذا الحال، وكأننا أمام عمل إرهابي نشترك فيه جميعاً، وكلنا مدانون وعلينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن يعصف بنا الزمن، ونصبح عاجزين على اتخاذ أي إجراء أو قرار، ونصبح مجتمعاً خائراً لا قيمة لنا بين سائر المجتمعات.

إن الدروس الخصوصية يعتمد فيها المدرسون على النقل، وفي هذا إلغاء للعقول، وتعطيل للملكات، وضياح للغة العربية، فهي تشل القدرة على الاختيار والإبداع والابتكار والخلق والاستكشاف، وتمنع تحقيق للرغبات والأمال، وتطمس للميول والاستعدادات، وتحجب المهارات والقدرات، وتجعل الأبناء أمام قيد لا يمكن الفكك منه، أو التخلص من آثاره، وفي مقدمتها قحصار لغتنا العربية، فأسلوب التلقين، وحشو العقل بأكبر قدر ممكن من المعلومات لم يعد مجدياً في هذا العصر، المليء بالتطور التكنولوجي الهائل، والتقنيات الحديثة.

وعليه فالحاجة ماسة إلى عقول نشطة، ولسان عربي فصيح، وعقول مدربة واعية، تتأمل وتفكر، وتكون قادرة على التحاور والتفاوض وتبادل الخبرات، ويستلزم ذلك أيضاً تطوير المناهج التعليمية، والاحتماء بثقافتنا الإسلامية العربية، وفهم القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والتعرف إلى عظماء العلماء والمبدعين، لأن ذلك كله يضيع من جراء الدروس

الخصوصية التي ينفق عليها في المجتمع حوالي ١٢ مليار جنيه سنوياً، وهو ما يجعلنا نشير إلى هذه الظاهرة، والغول الذي يدمر المجتمع من خلال التعليم، الذي هو أساس أي نهضة، أو تقدم. والذي يخلق لنا أنصاف متعلمين، وغير قادرين على اللغة نطقاً وكتابة، بل جهلاء داخل نظام تعليمي عاجز عن محاربة آفة قاتلة ومدمرة...، وستظل وصمة في جبين التعليم المصري، وثمة مصدر آخر يعمل في هدم اللغة العربية، وضعفها نطقاً وكتابة، وإحلال اللغة الهابطة مكانها من خلال وسائل الإعلام.

لقد أصيب العلم، واعتور التعليم بالقصور، فقد دخلت الجرثومة في جسم التعليم بل الميكروب الخفي الذي ينخر عظامه، ليهدم كيانه، ويشوه صورته، ويجعله مسخاً.. الآباء والأمهات والمجتمع في جانب، ووزارة التعليم وقياداتها في المقابل، وكل منهم يتهم الآخر، ويوجه إليه اللوم، هي نبت شيطاني لا يترعرع إلا في مزرعة العفن، وبحيرة الأوحال، والتسيب والإهمال، إنه مضيعة للعلم، ومفسدة للأخلاق وليدة الإهمال والتسيب والتراخي، وغيبة المتابعة والرقابة، ولها أضواء كالبرق، ورنين كرنين العملة المغشوشة، إلى جانب ما تحدثه من هدم في بنيان اللغة العربية.

والحقيقة أن البيت بلا أركان يستند عليها الأبناء، فلا يشبعون رغباتهم وميولهم ومن ثم ينطلقون بحريتهم فيما يشتهون، وفيما ينمون مواهبهم واستعداداتهم.. لقد رأى الفرد نفسه في عالم محير، فألقى بنفسه في أحضان هذا المدرس، الذي يتلقفه، فيكون منه الفرق والجماعة ليكون الريح السريع، في الوقت القصير.. هي تجارة بلا جدال الكل يتنافس فيها لتدمير لغتنا العربية، بقصد أو بغير قصد، وتسعد الأسرة لأنها استراحت من عناء المراقبة والمتابعة والمساعدة، فهي تملك المال وتتنافس به غيرها، وتغدقه بلا

حساب إلى هؤلاء التجار، المشكلة إذن من البيت، وتزداد وتتمو مع
للمؤثرات الأخرى، فلو حاولنا أن نقف ضد هذا التيار، وأن نجتاز الموجة
الكريهة التي أودت بلغتنا، لاستطعنا أن نستعيد كرامتنا ومجدنا، ولحافظنا
على هويتنا.

وسائل الإعلام:

إن تركيز النظر على قضية الفصحى والعامية، والنهوض باللغة نطقاً وكتابة في وسائل الإعلام، وما لها من نفوذ وسلطة في عصر ثورة الاتصال، ومن تأثير على الإنسان في عصرنا، والحق أن مكانة الإعلام هذه تحمل في طياتها فرصاً لأن يكون التأثير إيجابياً لصالح الإنسان ورقبه، وفصاحة لسانه، إذا أحسننا توظيف الوسائل الإعلامية في تقديم ما هو مفيد، والحرص على سلامة اللغة نطقاً وكتابة من خلال المذياع والتلفاز والصحافة والمسرح.

فبدون تكوين الشاب بالعربية الفصحى، فإن الذين يتخرجون سيكونون أميين، ولا يستطيعون القراءة والكتابة، وقد أولت شعبة الإعلام بالمجلس القومي للثقافة، قضية اللغة العربية، وكيفية المحافظة عليها والارتقاء بها في وسائل الإعلام - مقروءة ومسموعة ومرئية - باعتبار هذه الوسائل هي الجهات الوحيدة المنوط بها إنقاذ لغتنا العربية من حالة التردّي التي تقع فيها الآن، وضرورة أن تتصدى هذه الجهات للأخطاء التي ترتكب في حق اللغة العربية.

فقد تفتشت الأخطاء العربية في السنوات الأخيرة بصورة واضحة في البرامج التعليمية والأنشطة الثقافية، والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية، والمقالات الصحفية أيضاً، الأمر الذي يجب إعادة النظر فيه من خلال خطة علمية جادة، تستهدف رفع مستوى سلامة اللسان العربي.

ويأتي عدم الاهتمام من قبل أجهزة الإعلام، بقضايا الفكر الديني، في مقدمة العوامل الجوهرية التي تسهم في هبوط المستوى اللغوي للجمهور، ذلك أنه كلما اهتمت المؤسسات الإعلامية والثقافية والتعليمية، بعلوم القرآن

والحديث والشريعة وغيرها من العلوم الإسلامية والثقافية والتعليمية، ازداد الاهتمام باللغة العربية، التي بدونها يصعب فهم هذه العلوم، لأن اللغة العربية، والعلوم الإسلامية وجهان لعملة واحدة، فالقرآن الكريم هو الذي حافظ على هذه اللغة من الضياع والتحريف، حيث أن البرامج والفقرات والمقالات الدينية يمكن أن تلعب دوراً حيوياً للارتقاء باللغة العربية، التي تقوم بها المادة الإعلامية والإسلامية في مختلف وسائل الاتصال بالجمهير.

إن العامية أصبحت منتشرة ومتفشية بصورة واضحة ومتزايدة في مجال الأعمال الدرامية التي يكتبها كثير من المؤلفين، وكتاب السيناريو، وباللهجات العامية المحلية، والتي يندر فيها التعبير بالفصحى، لدرجة جعلت معظم مسلسلاتنا ذات طابع عامي على مدار العام، وبطريقة تجعلنا نشعر بأن المضي في هذه الطريقة، سوف يصيب لغتنا العربية الفصحى في مقتل، فنسبة ما يبث باللغة العامية في وسائل الإعلام، وبلهجة رجل الشارع المصري، أصبحت تفوق بكثير ما تبثه هذه الوسائل باللغة العربية، وبما يهدد اللغة العربية بالفعل.

صحيح إنه لا يمكن أن نصل في يوم من الأيام إلى مجتمع يتكلم بالفصحى، ويتعامل بالفصحى. فأن يتكلم الناس ليل نهار، في البيت والسوق والمكتب ومكان العمل بالفصحى، أمر لم يحدث في تاريخ هذه اللغة في أي وقت من الأوقات، ولا تكون الدعوة إلى استبدال العامية بالفصحى، ولا إلى الاهتمام بالعاميات على حساب الفصحى، فهناك عاميات فصيحة، ارتفعت كثيراً عن عامية الشارع والسوق، واقتربت كثيراً من الصحيح اللغوي، واصطفت لها نهجاً متميزاً في تطور المعنى والدلالة، والظل الذي يوحى ويشير، واصطبغت بلاغتها بروح العصر، ووجدان الشعب، وحرارة الواقع.

إننا ندعو إلى النهوض باللغة العربية، وبمن يتحدثون بها ويكتبون، وأن ننهض بها حين نستخدمها، فالأمر الموجه أن ترى أربابها، بعيدين عنها، لا يحسنون نطقها أو كتابتها، ومن ثم لا يجد المتلقي ما يقوم به نفسه، فالاستخدام غير الصحيح للغة يؤدي إلى كسر عدد من قواعد وأصول اللغة العربية عند الجماهير العريضة التي تتابع الكلمات التي تسمعها أو تقرؤها، وتنتقل عل ألسنة المواطنين، ويردها الشباب في كل مكان، كما يمتد تأثيرها السلبي إلى البيوت، فيتعلمها الأطفال وينطقون بها.

وتجمع الدراسات على أن حال اللغة العربية بدأ في الاعتدال مع بداية الإذاعة المصرية في ٣١ مايو ١٩٣٤، ودخول الإعلام المصري عصرأً جديداً، أدرك معه المستمعون منذ اللحظة الأولى، أن الإذاعة جاءت لتصحح ما ازدحم به الأثير من فوضى قبل هذا التاريخ، وأخذت على عاتقها مسئولية الاهتمام باللغة العربية التي التزم بها المنيعون، في عرض وتقديم كل فقرات برامجهم اليومية، على الرغم من بعض فقراتها التي كانت تتخللها اللهجة العامية، بحكم طبيعتها، وعلى الرغم من انتشار الأمية في ذلك الوقت، أكثر مما عليه الآن، فقد لقي التمسك باللغة العربية في برامج الإذاعة، استحساناً كبيراً لدى جميع المواطنين باختلاف فئاتهم، وتوجهاتهم، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الإذاعة استطاعت من اليوم الأول أن تفرض احترامها على المستمعين، من خلال احترامها للغة العربية، واتخاذها أداة أساسية لمخاطبتهم، ولأن القائمين عليها منذ نشأتها، وحتى الآن وبكل تعاقب رؤسائها، يدركون أن اللغة العربية، تملك من المقومات والخصائص ما يجذب المستمعين إليها، حتى الذين لم ينالوا أي قسط من التعليم، والدليل على ذلك الإنصات بشغف إلى القرآن الكريم وفهمهم لآياته الكريمة بكل ما تتضمنه من صور الإعجاز البلاغي، مما يؤكد قدرة المستمع العادي على استيعاب اللغة الفصحى، كما كانوا يستمعون إلى قصائد أم كلثوم، وعبد

الوهاب، التي كتبها كبار الشعراء، ويبحثون في معاني بعض الأبيات الصعبة في بعض القصائد.

فهذه اللغة الحية التي ملأت العالم شرقا وغربا، علما وأدبا، لا يمكن أن نستبدلها بالعامية التي نستخدمها في حياتنا اليومية ، بالسوق والمصنع والمنزل، ومن يدعون باستبدالها لا يعرفون تاريخها: لغتنا ولغة العرب القومية، وطاقتها اللغوية وحملها لتراث الأمة الثقافي، الديني، التاريخي والأدبي والعلمي طوال هذه القرون، وهم لا يعرفون شيئا أيضا عن العامية- وهي في أكثرها- فصحي محرفة، ونحن إذا بعدنا عن لغتنا العربية، فلا تقدم في أي مجال من مجالات الفكر والإبداع، والحضارة. وإذا كنا قد وضعنا أيدينا على مصادر تنني اللغة العربية، أو إهمالها بحيث استبدلناها بغيرها في التعامل والاستخدام، مما أضعف منها، فإننا نضع بعض التصورات للقضاء على ما يفسد اللغة أو يقلل منها، بحيث نعمل جاهدين على إصلاحها والنهوض بها، والمحافظة عليها، واستخدامها الاستخدام الصحيح نطقا وكتابة.

الفصل الثاني

وسائل العلاج

إننا نأمل في إصلاح حال اللغة العربية.. على الألسنة والأقلام، وفي المدرسة والجامعة، وفي الصحيفة والمجلة والإذاعة والتلفزيون، وغيرها من وسائل النشر والتعبير، يقول العلامة والمستشرق الفرنسي الكبير "لويس ماسينيون" إن النهضة اللغوية هي في الحقيقة نوع من النهضة الاجتماعية الشاملة التي تتطلع إليها الشعوب الحديثة في "الشرق".

فالإصلاح لا يمكن أن يقوم على الأماني وحدها، فطريقها شاق ومتشعب، وله وسائله الحديثة والمتعددة، غير أن هذه الوسائل على تعددها وتشعبها تبدأ جميعاً من نقطة واحدة، هي دراسة الواقع، ورؤية أبعاده على حقيقتها.

ولكي نسير على طريق النهوض باللغة، لا بد أن نسأل: ما اللغة التي نريد أن نعلمها لأبنائنا في المدرسة؟ هل هي لغة التراث؟ أم اللغة العصرية التي نكتب بها اليوم، ويؤلف بها المؤلفون في كل تخصصاتهم، ومجالاتهم، ويبدع بها المبدعون، اللغة التي اصطنعتها الصحافة لنفسها من البداية، ثم أصبحت لغة للإعلام الإذاعي والتلفزيوني، ثم ما الهدف الذي نريد أن نحققه من تعلم هذه اللغة؟ هل هو الكلام بها؟ أم إتقان الكتابة بها؟ هل هو التفكير بها؟ أم استمرار التفكير بالعامة ثم الترجمة إلى الفصحى عندما نريد أن نكتب أو نتكلم؟ هل هو تنمية القدرة على تنويع الإبداع العربي في شتى تجلياته، هل هو القدرة على الإسهام بها في علوم العصر، ومنجزاته ومجالاته الشديدة الاتساع والتنوع؟ هل نتعلمها لنجعل منها لغة للحاسب الآلي، ولغة صالحة للترجمة منها وإليها، لغة قادرة على استيعاب الجديد من ألفاظ الحضارة - ألفاظ الحياة العامة - ومصطلحات العلم؟ وهل هذا الهدف

واضح لدى المخططين للبرامج والمناهج التعليمية لدينا؟ وهل نحن حريصون على وضع معجمات متخصصة في شتى الفنون والعلوم، ولشئى المراحل التعليمية المختلفة، ومتى يصبح للغتنا العربية معجم عصري، يتضمن كل ما تم إنجازه في إطار لغتنا العربية عبر العصور؟ ثم متى نتوقف عن النظر إلى العامية، وفكرة استبدالها بالفصحى؟ ولنبدأ بالأسرة، فهي نواة المجتمع، ومن خلالها يمكن تشجيع الأبناء على القراءة، وغرس عاداتها من الصغر عندهم، ووجود نواة متواضعة لقراءات تثير اهتمام الطفل، وتغذي مداركه، وهذا هو الأساس، ثم يجيء بعد ذلك جهود وزارة التربية والتعليم - في المدرسة والجامعة - وجهود المجامع اللغوية، ومراكز اللغة العربية في الكليات المتخصصة وجهود العاملين في الإذاعة والتلفزيون، ورجال الصحافة، ذلك أن القراءة، والقراءة الواسعة المتنوعة، هي المدخل الأساسي لعلاقة صميمة مع اللغة - وسيأتي الكلام عن هذا المصدر - تبدأ بالمحبة والميل - الحميم، الذي ينضج ويتأكد ليصبح إتقاناً وسيطرة، وقدرة على المغامرة والإبداع، وإثارة الدهشة والتجديد والتطور.

فإذا أردنا أن ننفذ اللغة العربية من الضياع، فإنه يجب أن تستمر أجهزة الإعلام على دقة اختيار العاملين بها، لأنهم مطالبون بتعليم الجماهير العريضة في كل مكان، ومن ثم فإنه يجب أن يكونوا على مستوى علمي رفيع، وعلى درجة عالية من الذكاء والثقافة، ولديهم القدرة العلمية واللغوية لمتابعة أحدث الاتجاهات في تطور الحياة الإنسانية، وعلى أجهزة الإعلام أن تهتم بتدريب العاملين بها - وأظن أنها تسير في ذلك - على فن الإلقاء، للعمل على ضبط مخارج الحروف والكلمات، كما أن عليها أن تلتزم بقواعد وحدود اللغة في تأليف الكلام، ونظمه حتى تأتي النصوص الإعلامية معدة على الوجه المعقول، ومنظومة بصورة تخلو من التناقض، وهذا يفرض على الكتاب والمعدين التمكن من قواعد اللغة، والسيطرة على معانيها، والقدرة

على نظم للكلام، ومراعاة الغرض المقصود منها، وأن تبتعد قنوات الاتصال المختلفة عن استخدام الألفاظ المتدنية، والإسفاف في اختيار الكلمات الهابطة لعرض المعاني، حتى يستطيع الارتقاء بمستوى الجماهير، ورفع مستوياتهم اللغوية، وملكاتهم الفكرية، كما أنه من الأهمية بمكان، استعمال هذه اللغة في مختلف المجالات العلمية الحديثة ذلك أننا إذا لم نستعمل لغتنا في هذه المجالات، فإننا نحكم على أنفسنا بالعزلة والتخلف، فاللغة والفكر وجهان لشيء واحد، واللغة العربية يجب أن تعبر عن الفكر الحديث وهي قادرة على ذلك، بدلاً من تركها تعاني من الإهمال، وعدم الاستخدام.

إن العلاج يكمن في الأخذ باللغة الفصيحة، والعمل على إزاحة المشكلات التي تقف في طريقها، والخط العلمي الموضوعي الذي يجب أن نسلكه في إصلاح مسارنا اللغوي، على النحو الذي يبسر للمتعاملين بها توظيفها في كل مجالات الحياة.

ولنقف عند وسائل الإعلام حيث نجد أن لها دوراً كبيراً في المشاركة بالتهوض باللغة العربية، فهي إذا لم تلجأ إلى العامية في تقديم برامجها، وإذا استخدمت للفصحى الاستخدام التام، فإن أسنة الناشئة تتأثر بالألفاظ والتركيب التي يسمعونها ويرددونها، ويتوقع أن يزداد محصولهم، وذلك لشدة ارتباطهم بهذه الوسائل، وانجذابهم إليها لوقت كبير.

إن الصلة بين الإعلام وبين التربية والتعليم صلة وثيقة، فالتربية والتعليم يهيئان الذي يقوم بالإعلام والذي يتلقاه، فهما فاعلان مؤثران في الإعلام، والإعلام هنا تابع لهما. لكنه بدوره يصبح مؤثراً عليهما لقوة تأثيره على المتلقي، وهذا يعني تبادل التأثير بين التعليم والإعلام، وهذه الصلة تدعونا إلى النظر في الفصحى والعامية في وسائل الإعلام، وفي التعليم، ومحاولة إيجاد مخرج من العامية للفصحى، أو إلى العربية الميسرة.

إن من شأن إصلاح اللسان العربي، عبر المؤسسات التعليمية الرائدة،
ووسائل إعلامها النافذة الواسعة الانتشار، منوط بدور مصر في مجال تجديد
رسالة اللغة العربية، ودعم كيائها في المجتمعات العربية الإسلامية، ودورها
في أن يسهم الإسهام القوي المؤثر في تحسين وضع اللغة العربية، في البلاد
العربية والإسلامية كلها.

الجمعيات الأهلية:

وتعتبر جمعية لسان العرب التي تأسست عام ١٩٩٢ من الجمعيات التي دافعت من خلالها عن أقدس لغات الأرض، وناقشت أحوال اللغة العربية، في التعليم العالي، والإعلام وإدارة الأعمال، عبر اهتمام موسع بقضايا اللغة العربية، في محاولة جادة لتشخيص واقعها في إطار الهوية التاريخية والاجتماعية والثقافية والحضارية، ومما لا شك فيه فإن الأمن القومي يبدأ باللغة التي تحفظ الهوية، وتدافع عنها، وتعبر عن الآمال والطموحات المستقبلية وتؤكد وحدة الهدف، وهذا هو عنصر القوة في اللغة العربية، فالتفريط في اللغة العربية تفريط في الدين، وهناك سعي لإنشاء مراكز للترجمة والتعريب، ونقل العلوم والثقافات المختلفة وتحقيق ونشر التراث العلمي العربي، وهذه الجمعية تنضم إلى جمعية حماة اللغة العربية، التي حددت أهدافها في حماية اللغة العربية، من التردّي المتمثل في الأخطاء اللغوية وشيوع العامية، وكتابة اللافتات بكلمات أجنبية، وتنمية الإحساس بأهمية اللغة العربية، وإظهار جمالياتها.

إن للعمل الأهلي من أجل رعاية اللغة العربية في الحياة العملية والعلمية، والتعريب قد أضحي مؤسسة قوية تستند إلى رأي عام قوي، عن احتياج ملح شديد الإلحاح من أجل إنشاء نواة مؤسسات عربية ترعى تغطية احتياجات التعريب، والنقل من اللغة العربية وإليها، وترعى إنشاء مؤسسة نموذجية تعليمية ثنائية اللغة، تكون اللغة العربية هي الأولى مستوى وتوجهاً ومنهجاً واستيعاباً.. وترعى شئون البحث والتطوير والتخطيط والمتابعة، كما ترعى توثيق وتوفير العمل بينها وبين جميع البرديات وغيرها من المخطوطات والوثائق العربية، وتوفيرها وثائقياً بالطرق الحديثة.

إن جمعية لسان العرب، تسعى إلى تيسير إذاعة استعمال اللغة العربية في الحياة العملية والعلمية، على أن تقوم الأجهزة التشريعية، بمراجعة القوانين واللوائح التي تنظم استعمالها وتفعيلها بما يناسب الاحتياجات المستقبلية، ويعتبر عام ٢٠٠٢ عاماً فاصلاً في مسيرة العربية التطبيقية فهناك شعور قومي بالحاجة إلى تخطيط النهضة العربية الشاملة على أساس لغوي سليم، حيث الأساس اللغوي يستوعب علوم العصر، وأبحاثه، ويستوعب الجهود القومية الخاصة بأنشطة البحث والتطوير على كل المستويات، ويستوعب متطلبات الأمن القومي: أمن المصير والهوية، ضمن خطة نسميها خطة نشاط اللغة العربية تتمثل في: وضع حوالي ثلاثين معجماً في مصطلح العلوم الإنسانية والأساسية والتطبيقية، وتعريب العلوم الصحية، ونشر العربية في كل مكان.

وقد تأسس مركز اللغة العربية، في جامعة القاهرة منذ ست سنوات، لينهض برسالة حضارية مرتكزها الثقافة العربية، ولبها اللغة العربية، إذ اللغة وعاء الثقافة، والثقافة هي المجسدة لهوية الأمة، وهي هوية في حاجة إلى حمايتها، والذود عنها صوناً لمقدرات الأمة، ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

الإذاعي الكبير طاهر أبو زيد، دعا في سهرته الإذاعية "أسبوعيات طاهر أبو زيد" إلى النهوض باللغة العربية، ومواجهة ظاهرة المسميات الأجنبية، وتجميع الأنصار والمؤازرين لما يطلق عليه: جبهة حماة اللغة العربية.. وهي جبهة تتسع يوماً بعد يوم، فيها الكاتب الصحفي، الأستاذ الجامعي والمجمعي، والمعلم ورجل الإعلام والطب والمهندس والصيدلي والجيولوجي.. فالدعوة إلى "جبهة حماة اللغة العربية" تعيد إلينا الثقة في النفس، وفي الآخرين، والأمل في أن تكون هذه الجبهة قادرة على تحريك

المناخ ودرء الأسي، وإثارة الهمة والحمية والنخوة، حتى يصبح الاهتمام بقضية اللغة العربية، اهتماماً قومياً حقيقياً، يلقي صداه الحقيقي عند الجميع، ولا تهتم به هيئة واحدة دون أخرى، والجبهة إضافة ثرية لما تقوم به جمعية لسان العرب، التي نجحت في إقامة عدة ندوات ومؤتمرات مهمة خاصة بقضايا اللغة العربية.

وقد جعل مؤتمر مجمع اللغة العربية من اللغة في وسائل الإعلام، موضوعاً رئيسياً له، حريصاً في توصياته على إبراز أهمية الاهتمام بحسن اختيار المذيعين، ومقدمات البرامج، وأهمية تدريبهم على الممارسة اللغوية في المواقف العملية المختلفة، وتصويبها بطريقة فورية، من غير أن يكون التركيز كله على قواعد النحو والصرف، وكأنها وحدها الهدف والغاية كما كان حرص المجمع- في إطار هذه التوصيات- على عروبة مسميات البرامج في الإذاعة والتلفزيون، والدعوة إلى التوقف عن المسميات الأجنبية، وإلى أن تكون العربية الميسرة هي اللغة المستخدمة في برامج للطفل، والرسوم المتحركة، والعمل على اتساع مساحة الغناء الفصح- في كل من الإذاعة والتلفزيون- لمواجهة طوفان الركاكة، والسوقية في الغناء الذي يستخدم مستويات متدنية من العامية، واللهجات المحلية، ويشيع على ألسنة الناس معجماً لغوياً لا علاقة له بالتحضر من ناحية، ولا بالصحة اللغوية من ناحية أخرى.

ودعوة وسائل الإعلام إلى الالتزام بالفصحى الميسرة، في المجالات السياسية والثقافية والدينية والعلمية، وإن كان لابد من استخدام العامية في جانب من مجالي الدراما الإذاعية والتلفزيونية والغناء، لكنها للعامية المتوهجة بالإبداع الفني، البعيدة عن السوقية والابتذال والتي لم يتوقف الحوار بينها وبين الفصحى على مستوى الصورة والدلالة والمجاز والعامية الجميلة بلاغتها، كما أن للفصحى الجميلة بلاغتها.

وسوف تكون انطلاقات المجمع القادمة إلى ما يراه الجمهور حول قضايا اللغة المختلفة في جميع ميادين ومجالات استخدامها. ويطلق في أداء دوره من إدراك عميق بمكان اللسان في هوية القوم، وكونه أحد أركان هذه الهوية، التي بالحفاظ عليها والتمسك بها، يتحقق نهوض الأمة، وازدهارها الحضاري.

وقد صدر قرار من كلية الآداب، جامعة الإسكندرية في العام الجامعي ١٩٩٦/٩٥م بتكليف طلاب الماجستير والدكتوراه بالكلية، بدراسة مقرر في اللغة العربية، واجتياز امتحانه، كشرط ملزم قبل تقدمهم لمناقشة الرسائلتين المذكورتين.

ولسوف لا نتأقش أي رسالة جامعية، في أية كلية من الكليات، قبل اجتياز الطالب لامتحان في مقرر واف للغة الوطنية، وأن يستمر تدريس اللغة العربية، وقواعدها وأصولها وتعاييرها ومصطلحاتها، في السنتين الأولى والثانية في كل كلية من كليات الجامعة دون استثناء.

وأنا ممن يؤمنون بوجوب إدخال اللغة العربية في مواد الكليات الجامعية، حفاظاً منهم على استشعارهم للغتهم الوطنية والقومية، ووصولاً وثيقاً لهم بأمتهم وبتاريخها المجيد، حتى لا تنقطع صلتهم بها وهم في غمار ما يدرسون من علوم، ويوم يتقرر تدريس العربية في الكليات المختلفة للجامعات، سيحاول المجمع اللغوي أن يقدم لطلاب الكليات الجامعية كل ما يعينهم على تمثل لغتهم العربية تمثلاً قوياً سديداً، وللمجتمع في تلك أعمال مختلفة.

والآن نتساءل، ماذا فعلنا لتذليل صعوبات اللغة، ولتقريبها من أبنائها، وللنهوض بها نطقاً وكتابة؟ لقد ألقت كتب كثيرة في هذا المجال، ونشر العديد من المقترحات، وتلك محاولة أعرضها من خلال تجاربي، عليها تجد صدى في الأوساط المعنية.

الباب الثالث

منابع اللغة

الفصل الأول

الروافد

بعد أن رأينا قيمة اللغة العربية، وكيف كان القدماء يملكونها، ويجددون فيها، لأنها تمثل حضارتهم، وتكشف عن ثقافتهم، وهي لغة التخاطب والمشافهة، كما أنها لغة الكتابة التي تحمل تاريخ الشعوب ونهضتها، وتعرفنا في الفصول السابقة على ماهيتها، وأهميتها، والعلاقة بينها وبين الفكر والذكاء والحضارة، والثقافة والمجتمع، وتبيننا طبيعتها ووظيفتها، وكيف تكتسب في مراحل النمو المختلفة، وما عوامل ضعفها، ووسائل علاجها، لننهض بها نطقا وكتابة.

فلا بد من الاهتمام بالنواحي الوظيفية لها، واستخدامها والتدريب عليها، وممارستها في واقع الحياة، واستعمالها في شؤوننا اليومية، واستدعائها واستحضارها في المواقف والظروف التي تستلزم ذلك، وألا نعتبر اللغة في أذهاننا بعيدة عن الواقع الفعلي، ودون الانطلاق بها إلى حيز العمل، ولا بد أن نحرص على أن نهيب الفرص للتلاميذ للربط بين الألفاظ، والصيغ اللغوية، المسموعة أو المقروءة، وبين مدلولاتها أو معانيها التي ترمز إليها، حتى لا تضطرب المعاني في أذهانهم، وتصبح غير راسخة في أذهانهم، فلا يقدر على استحضارها عند الحاجة إليها، بل ربما ينتهي الأمر إلى النسيان، وتستمر المشكلة.

وقيمة اللغة وواجب النهوض بها نطقا وكتابة، يرجع إلى ارتباطها بالقرآن الكريم، الذي أضفى عليها قدسية لا تجيز لأحد من البشر أن يمسخها بتغيير أو تبديل، فالله قد أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وأنه سبحانه وتعالى ما فرط فيه من شيء، ولذا تكون الدعوة مستمرة إلى انصراف الجهود لفهم اللغة، وإظهار مزاياها، فهي اللغة التي حفظت تراثنا،

واستوعبت تاريخنا، ووفت بحاجات الحضارة فيما سلف من الزمان ونقلتها بعد أن أغنتها إلى العالم كله، سهلة ميسرة قريبة من الإفهام، قادرة على الإحاطة بما تتفجر به الدنيا من المعرفة.

هناك من ينادي بحبه للعربية وبضرورة النهوض بها نطقاً وكتابةً، فتكون لهم محاولات كثيرة يرون فيها طريق نجاتها، فتؤلف الكتب وتنتشر المقالات، وهناك من يجمع على صعوبة اللغة، وهؤلاء ينظرون في طرق التعلم، وقصورها عن الوفاء بالغرض الذي وضعت من أجله، ويحاولون أن يضعوا أيديهم على أسباب هذا القصور فيشيرون إلى ضعف الرغبة في المطالعة، كما يشيرون إلى صعوبة الإملاء والتعقيد، وتشتد الثورة على النحو والحديث عن إصلاحه، وتيسير تعلمه وتعليمه هو الأساس الذي يبني عليه إصلاح اللغة بشكل عام..

(١) المدرسة:

إن المدرسة لا تولي العناية للعربية الفصحى، وأن مناهج التعليم لم توفق في تعليم اللغة العربية السليمة، وأن موجة تعليم لغات أجنبية اقترنت بإهمال تعليم اللغة الأم، والأسباب وراء هذا الحال كثيرة، تتعلق بقيادات التعليم، وواقع المدرس، وبمؤثرات خارجية، ولذا فإننا نشهد عند كثيرين من الطلاب "تلوثاً لغوياً"، فالكتب التي تُولف لهم لا تكتب بطريقة تربوية لتخاطب عقول الطلاب، ووجدانهم في المراحل السنية التي يعيشونها، ويجب أن تعد بطريقة تشوق الطالب، وتجعله يعتز بكتابة اللغة العربية.. إلى جانب أن قواعد اللغة العربية أصبحت تدرس بمعزل عن المواد الأخرى، مع أنها وضعت ليكون لها أثر في هذه المواد.. وقد عالج المجمع من قبل قضية تيسير النحو العربي التعليمي، وأعد له مشروعاً، وكان للدكتور شوقي ضيف، رئيس المجمع، إسهام كبير في هذا الموضوع..

وقد أصبحت المدرسة بيئة طاردة، غير جاذبة للتلاميذ، إلى جانب أن المعلم يهمل في أداء واجبه، ولا يركز مع تلاميذه، ونحن نسمع ونشاهد الأساتذة ومعلمين يخطئون ليس فحسب في النحو والصرف وبناء الجملة، بل أيضاً في الإملاء، والمرء يأسى ويأسف حين يكون هذا هو حال الأساتذة، فما بالنا بالطلاب الذين يدرسون، ويتعلمون على أيدي هؤلاء الأساتذة، وقد أعد المجمع اللغوي بالقاهرة، منهجاً جديداً ومبسّطاً يتيح استيعاب النحو الذي عادة ما يجد فيه الطلبة صعوبة فهم الفهم والتطبيق، ومع ذلك تراه لا يطبق ولا يستخدم، وما يقدم للتلميذ يقوم على التلقين والحفظ والاجترار، دون اكتساب المهارات اللغوية مثل مهارات الاستماع والنطق، والقراءة والكتابة.

لابد من تدريب المدرس على التحدث باللغة العربية السليمة، ولا بد من اشتراك جميع الطلاب في الأنشطة التربوية بالمدرسة- إذاعة وصحافة وإلقاء، ومناظرة ومسرح- وتخصيص بعض الوقت للقراءة الحرة، وتعميم مسابقات الخطابة، والتعبير الارتجالي، وتشجيع إقامة الفرق المسرحية وتوفير عدد من المدرسين المؤهلين والمدرّبين على تحسين الخطوط، وتكوين جماعات للخط العربي، وجعل الإملاء جزءاً لا يتجزأ من المادة، مع الاهتمام بما يقدم للأطفال من مطبوعات وأعمال فنية، وما تقدمه الإذاعة والتلفزيون من تمثيلات وبرامج وأنشيد خاصة بالأطفال بلغة فصيحة ميسرة، ومن هنا لا ينبغي للمدرس أثناء درسه أن يقف باللغة عند الشرح، وما هو مكتوب في الكتب الدراسية، لأننا نقرأ الكتاب لا لنجتز ما فيه، وإنما لنبعد عما فيه، أو على الأقل لنستعين به في فتح آفاق اللغة، حتى لا نشعر بالجمود، وعدم الفعالية، والإحساس بعدم أهميتها، وعدم الجدوى من التمكن منها، أو من الحرص على اكتساب ألفاظها وصيغها.

وبين المدرسين أنفسهم، فوارق عقلية وثقافية ولغوية، في الخطبة والتفويض، والمتابعة والتقييم، وتقدير الموضوعات والواجبات والعرض، وعدم الاكتراث بالمبول والرغبات والاستعدادات والهوايات، والاحتياجات اللغوية الخاصة، والسعي الحثيث لتنميتها وتطوير مهاراتها، مما يؤدي إلى الشعور بالإحباط في أداء ما يمكن أن يثري اللغة، وينمي رصيدها.

ومن هؤلاء المدرسين من يستخدم اللهجة العامية في التقديم والعوض، إننا لسنا ضد العامية، لكن العامية التي تخدم الفصحى، أو هي من الفصحى، بحيث لا يحدث فجوة بينهما، أو يبعدنا عن الفصحى، ويقلل من حصيلتنا، من مفرداتها وصيغها، وبالتالي يقلل من الإحساس بفاعليتها، وفاعلية ما يكتسب منها من عناصر، وحتى استخدام المعاجم العربية، لا يعرفه ولا يقدم عليه إلا

القليل النادر، وغير ملحوظ من قبل الناشئة ومدرسيهم، وتكاد تكون معدومة في مراحل التعليم الدنيا.

إن المدرسة مجتمع صغير، يضم الطالب والمدرس وقيادات التعليم، يدخل في كيان المجتمع الكبير، ولها طبيعتها الخاصة، ومعطياتها المتميزة، فيها يكتسب التلميذ ما يكتسب من مهارات اللغة على نحو مكثف ومنتظم ومتوازن ومتدرج ومستمر، فالمدرسة مصدر مستقل أساسي لمفردات اللغة، وصيغها وأساليبها، كما أن المجتمع بدءا من الأسرة، وما يحيط بالفرد من مؤثرات، والمجتمع الكبير بكل قطاعاته وطبقاته، وطوائفه وأشكاله، ووسائل وطرق الاتصال فيه (المورد الأول لمفردات اللغة)، حيث تربط أجهزة الاتصال الحديثة بين طبقات المجتمع المتباعدة، وقطاعاته المختلفة، وتقوم بدور كبير في تطوير عمليات المقايضة اللغوية، وطرق التلقين والاكْتساب، وفي نشر اللغة القومية.

إن للمدرس أثرا كبيرا ومباشرا في الناشئ سواء من الناحية السلوكية، أو من الناحية العلمية، فالتلميذ يحاكي مدرسه ويقلده في سلوكياته، ولغته، فالناس عامة كما يقول ابن خلدون "مولعون بالاعتداء، فهم يقتدون بمن هم أعلى منهم مكانة وثقافة ومرتبة، ويلتقطون تعبيراتهم ومفرداتهم التي يستعملونها، ويتأثرون ببيانهم الذي يسمعونه أو يقرؤونه".

وهناك من أصحاب النظريات اللغوية الحديثة المتطورة، من يؤكد "أن الأطفال ينتهون بالفعل إلى الكلام بطريقة تشبه إلى حد بعيد كلام أولئك الذين يحيطون بهم فيما يتعلق بالتفاصيل الدقيقة، من حيث الاستعمال الصوتي والنحوي، فضلا عن استعمال المفردات"، بل إن منهم من يقرر بأنه "لا توجد فترة في تاريخ البشرية على الإطلاق لم يعترف فيها بأهمية المحاكاة في

اكتساب اللغة بالتعلم.. وإن أي نظرية من نظريات علم النفس البشري لا تجعل للمحاكاة مكاناً بارزاً فيها تنفع بأنها غير مكتملة".

إن المدرسة صورة مصغرة مكثفة للحياة الاجتماعية، التي يكتسب الناشئ من خلال معاشته لها المعارف والخبرات والعادات السلوكية، عبر اتصاله وتفاعله مع عناصر وفتات اجتماعية ذات خبرة متنوعة ومتفاوتة، ولا تعتبر مكاناً لتلقي المعارف ونقل المعلومات فحسب كما يعتقد الكثيرون، فهي مؤسسة اجتماعية، وهي صورة للحياة الجماعية التي تتركز فيها جميع تلك الوسائل التي تهين الطفل للمشاركة في ميراث الجنس البشري، ولاستخدام قواه الخاصة لتحقيق الغايات الاجتماعية، كما يقول 'جون ديوي' . Dewey

وتعتبر اللغة من أهم الوسائط التي تعتمد عليها المؤسسة في أداء مهمتها، ومن أهم القوى التي تنميها، وتهين الطفل لاستخدامها لتحقيق الغايات الاجتماعية، ولذلك كان إثراء لغة الناشئة من أهم الأهداف التي يفترض أن تسعى المدرسة جاهدة لتحقيقها، وبناء على ذلك يفترض أن تكون المدرسة أيضاً من أهم الموارد التي يكتسب الناشئ منها لغته وينميها، ويثري حصيلته من مفرداتها وتراكيبها وأساليبها.

ويعتمد دور المدرسة في تنمية اللغة وتطوير المهارات فيها يعتمد بشكل أساسي على طبيعة النظام المتبع في التدريس، وعلى نوعية المناهج المقررة وملاءمتها لمستويات الناشئين العقلية، وتلبيتها لحاجاتهم العملية، وارتباطها بواقعهم، ويعتمد أيضاً على كفاءة وإخلاص من يتولى تنسيق المناهج المقررة وتطبيقها، وهذا يرتبط بطبيعة الحال بمدى ما يمتلكه المدرسون والأساتذة من مؤهلات علمية، ومن براعة في أداء عملهم، ولا شك أن لتوافر الإمكانيات والظروف والأسباب المشجعة في المدرسة، وتوافر

التقنيات اللازمة لعملية التدريس أثراً كبيراً في تحديد نسبة الاكتساب المعرفي من المدرسة عامة.

ورغم أن معظم الإمكانيات متوافرة لدى المدرسة في حياتنا المعاصرة، والعوائق للمادية التي تواجهها قليلة، والحوافز والأسباب المشجعة كثيرة، إلا أننا مع ذلك كله لا نشهد للمدرسة دوراً في تنمية اللغة القومية وتطويرها ونشرها مثلاً على النحو المطلوب في محيطنا الاجتماعي، بل إننا قد نلمس الضعف الشديد في اللغة سائداً بين الدارسين ومدرسيهم عامة، ونرى بعضهم وكثرتهم غريباء على لغتهم، أو أنها غريبة عليهم، لا سيما اللغة الفصحى.

إن من أسباب هذا الضعف ضآلة المحصول اللفظي، والجهل بمصادر مفردات اللغة وطرق استغلالها أو استخدامها، كما أن منها عدم إتقان أصول اللغة وقواعدها، أو عدم إدراك الوظائف الأساسية لهذه الأصول في الحياة العملية، ومنها أيضاً الهبوط الثقافي العام، وعدم وجود ارتباط وثيق بمصادر التنقيح الرئيسية، أو الفنية، وخاصة المواد المقروة.

ولمست للمدرسة هي المسئولة الوحيدة عن هذا الضعف، ولا عن كل الأسباب التي أدت إليه، ولكن وجود هذا الضعف يدل على تقصير المدرسة أو قصورها في القيام بدورها تجاه اللغة على النحو المطلوب. ولهذا القصور أو للتقصير في أداء مهمتها في تنمية حصيلة الناشئة من مفردات اللغة وتركيبتها، وأساليبها، وفي تطوير مهاراتهم على نحو عام أسباب متعددة، بعضها يعود إلى المدرسة وهيئتها، وإلى طبيعة البيئة التي تنشأ فيها، والظروف والأوضاع العامة التي تحيط بها، أو بالمؤسسات التعليمية بشكل عام، ويعود للبعض الآخر منها إلى ما قد تلاقيه المدرسة من عوائق، وثمة أسباب أخرى تعود بصورة مباشرة إلى أساليب التعليم ونظمه المتبعة، وإلى الكتب والمناهج الدراسية التي تفرض على الطلاب.

إن اللغة يكتسبها التلميذ من المدرسة- وهذا هو المكمل لمؤثرات أخرى- فهو يتلقن اللغة في رحاب مدرسته من كل مدرسيه، ولذلك إيجابية كبيرة في تعلم اللغة- على أن يكون المدرس متقناً لها عارفاً بها- كما أن للمدرسة ميداناً رحباً للاتصال الجماعي الفعال في إغناء الحصيلة اللغوية - عن طريق الزملاء -، وهو أيضاً ميدان واسع للقراءة التي تفتح آفاق اللغة، كما أن الطفل يأتي إلى المدرسة ومعه ثروة من المفردات اللغوية من خلال المجتمع الذي يعيش فيه، يقول (فريدريك هربرت) في نظريته التربوية: "عندما يدخل المدرسة يحمل معه ثروة فكرية ناتجة من احتكاكه بالبيئة، وعلى ذلك فإن التركيز في التعلم والتلقي والتواصل داخل إطار المدرسة، عندما يكون موجهاً إلى لغة واحدة- هي اللغة الفصحى- يصبح المحصول المكتسب من مفردات هذه اللغة، وصيغها وأساليبها ومعانيها "أوفر وأخصب".

وليس من شك في أن للمدرسة دوراً يمكن أن يكون ذا فعالية في تنمية اللغة، وتطوير المهارات فيها، يعتمد وبشكل أساسي على كل المؤثرات التي تحيط بالعملية التعليمية، وهنا يعظم دور المدرسة، ويتسع نطاق فعلها وأثرها في الفائدة، وتصبح من أهم المصادر التي يمكن أن يستمد منها الطلاب على اختلاف مستوياتهم، والعناصر المكونة للغتهم، أو المطورة لها، وللمهارات المرتبطة بها، وتزويد من صقل ما عندهم من خلفية في اللغة جاؤا مزودين بها، وبناء على ذلك تصبح المدرسة من أهم المؤسسات التي يمكن أن تلعب دوراً مؤثراً في نشر اللغة للقومية، وفي ترسيخها، وجعلها دعامة أساسية قوية للارتقاء بثقافة الأمة، وبوعي أفرادها، فتطور دور المدرسة، وتطور وظائفها التي يمكن أن تؤديها للمجتمع، وتعدد نشاطاتها، يجعلها من أهم الصروح في المجتمع، فماذا لو انتشر شعاعها عن طريق المسابقات التي تشجع لها، والأنشطة التي تظهر فيها البراعات اللغوية كالخطابة والإلقاء

بالفصحى، والكتابات التعبيرية، وتقام هذه المسابقات على مستوى المراحل الدراسية المختلفة، إلى جانب المناظرات. والمساجلات الشعرية والأدبية، والندوات الثقافية، هنا يعظم دور المدرسة، لأن الممارسة تعتبر في نظر علماء التربية أساساً في النهضة اللغوية نطقاً وكتابة، فهي تعمل على زيادة فاعلية المخزون اللفظي لدى المتعلم، وعلى ربط التراكيب اللغوية بمملولاتها ومعانيها، ومن ثم حضورها في ذهنه بشكل عام ودائم.

(٢) المناهج:

لا بد من وقفة عند المقررات المتعلقة بموضوعات اللغة، في مراحل التعليم المختلفة، فهي تحتاج إلى اختيار وعرض وإخراج، بحيث تلمس حاجات التلميذ، وتلمس واقعه، وظروف حياته، وثقافة عصره، وتطوراته، إلى جانب عنصر الاستمالة والتشويق والجذب، وإثارة حب القراءة، وإذكاء روح المنافسة والتحدي، فهناك نماذج توحى بصعوبة اللغة، أو بجمودها وعدم ملاءمتها لثقافة العصر، ومن أجل ذلك تنبّه المضطلعون بالعملية التعليمية إلى حذف ٢٠% من الموضوعات التي تحتشد في أذهان التلاميذ، ويعتمد عليها على السرد، والغريب في موضوعه، والبعيد عن تصور التلميذ وفكرهم ومشاهداتهم، وربما يكون الموضوع متكرراً، أو ضحلاً تافهاً في محتواه مما ينفر الطلاب، ولا يثير في نفوسهم الرغبة في الاطلاع. ومن هنا يحفظ التلميذ آلياً دون وعي بالمعنى، أو الظلال أو الصور والأفكار والكلمات، فلا يخرج نطقه صحيحاً سليماً، ولا كتابته كذلك صحيحة سليمة، إلى جانب عدم تنمية رصيد التلميذ من مفردات اللغة، وشعوره بالملل والإحباط، والكرهية لموضوعات اللغة.

من المفترض أن توضع المناهج الدراسية على أساس دراسات ميدانية دقيقة متفحصة، تستقرئ وتتحسس أنواق التلاميذ وميولهم واتجاهاتهم، ومستوياتهم العقلية والثقافية، وتتعرف على حاجاتهم، وظروف حياتهم الفعلية، وطموحاتهم الخاصة، ويختار من الموضوعات أو المقررات ما يتناسب مع هذه الأنواق والمستويات، وهذه الميول والظروف والحاجات والطموحات، بمنأى عن النزعات الإقليمية، والرغبات الفردية والمجاملات الشخصية، والمفترض أن يستعان بالمدرسين، وأولياء الأمور، والتلاميذ في

اختيار المناهج، فهذا يشد التلاميذ إلى كتبهم الدراسية، وإلى الموضوعات المقررة فيها، ومن ثم تنمية حصيلتهم الفكرية واللغوية.

وما دنا نتحدث عن اللغة العربية، وكيف نهض بها نطقاً وكتابة، لذلك يفترض أن تضمن المناهج الدراسية عامة، والمتعلقة منها باللغة والأدب خاصة، نماذج قريبة في لغتها من لغة العصر وروحه، تظهر فيها فاعلية اللغة ومرونتها وحيويتها، وقدرتها على استيعاب جميع مستجدات الحياة الحاضرة، وتلبيتها لجميع متطلبات هذه الحياة، وتبرهن للناشئ على أن لغته، لغة حضارة متطورة متجددة، وليست لغة حضارة قديمة سادت ثم بادت، فيطلع على موضوعات يتجسد فيها ثراء اللغة واكتمالها وغناها بالمفردات اللغوية، ويتمثل فيها طابع العصر المتطور.

ينبغي أن تشمل الكتب الدراسية، والكتب المرتبطة باللغة والأدب، على كل ما يمكن أن يحفز الناشئ أو يدفعه إلى ممارسة اللغة الفصحى الملائمة لروح العصر، وكل ما يتيح له الفرص المتعددة للحوار والمناقشة والخطابة والكتابة، ويقوده إلى استغلال ما من شأنه أن يمرن لسانه، وينمي طاقته اللغوية والفكرية، ويرتقي بقدراته على الإنشاء والإبداع الفكري والفني، ويشعر بضرورة التمكن من لغته نطقاً وكتابة.

وكذلك ينبغي أن تتضمن المناهج الدراسية، موضوعات تشجع الناشئ على التعليم الذاتي، وتنمي لديه حب الاستطلاع، والفضول العلمي، وتربي لديه الطموح والتطلع إلى آفاق فكرية وثقافية رحبة، يتسع فيها مجال استخدام اللغة، وتتووع مستوياتها ليتضاعف محصوله من مفردات هذه اللغة، وتراكيبها، ويزداد معرفة بأساليبها وتزداد أصولها وقواعدها رسوخاً في ذهنه، وينبغي أن تسعى المدرسة بصورة أساسية، ومستمرة من خلال المناهج إلى تشجيع التلاميذ على الاشتراك في الأنشطة التربوية وممارستها،

ولا ريب في أن لوجود المكتبة أثرا كبيرا في اجتذاب الناشئة وتحفيزهم على القراءة والبحث، ومن ثم تنمية رصيدهم اللغوي.

إن الكتب الدراسية- التي بين أيدي للتلاميذ- خاصة للكتب المتخصصة في اللغة، تحتوي على عدد من النصوص التي ترحم فيها الكلمات والتراكيب والعبارات اللغوية غير للمألوفة أو للنادرة الاستعمال أو المهجورة، التي يتعسر على كثير من الطلاب استيعابها، وفهم معانيها وملولات مفرداتها، وتصورها، حتى مع تفسيرها لهم، مما يلجؤهم إلى حفظها مع المفردات الغريبة الغامضة التي تشتمل عليها، ومرادفاتها المفسوة لها- أنا لا أنكر العودة للقديم، بل أوصى به- لكن ما ينتقي من هذا القديم، ويتلاءم مع مستوى الطلاب تبعاً لمراحلهم المختلفة، مع إدراك ملولات الألفاظ، وتذوق النص الذي يبعث على الرغبة فيه، والإحساس بالنواحي الجمالية فيه، حتى يقبل على اللغة بحب وشغف، وأن تكون كلمات للنص المختارة مفسرة تفسيراً واضحاً بعيداً عن الغموض، مما يجعلها محببة في أذهان الطلبة، ويزيد من إقبالهم عليها، ويدفعهم لحفظها عن وعي وفهم وإدراك، وألا تفسر الكلمات في الكتب بألفاظ وعبارات متعددة، فقد تكون هناك فوارق دقيقة بين معاني هذه الألفاظ والعبارات، ولا يتمكن الطلبة من تمييز هذه الفوارق، ولا من تحديد المعنى المراد، أو تعيين اللفظ الذي يفسر الكلمة المشروحة على نحو واضح ومحدد، فتبقى معاني الكلمات قلقة ومضطربة في أذهانهم، ومن ثم لا تشكل أي رصيد لغوي نافع لديهم.

كما أن للطباعة والإخراج أثراً ملموساً في تقبل المادة المقرّوة، وفي الانجذاب لها، فإذا لم تكن الطباعة سليمة، بارزة للحروف، فإن هذا يفضي إلى اضطراب الناشئة في نطقها وإلى نفورهم منها، أو حفظها على صورة محرّفة، وتثبت في الذاكرة مضطربة الشكل، ومن ثم لا يستقيم للمعنى في

الذهن، وتلك آثار سلبية، إلى جانب البطء في الاستيعاب، واحتياج التلميذ لجهد أكثر من المعدل الاعتيادي، لأنه يسعى إلى حفظ كلمات وعبارات لا يفهمها، "وأن تعلم الكلمات ذات المعنى أسهل من تعلم الكلمات عديمة المعنى، أي أن التعلم اللفظي يتأثر بدرجة معنوية الكلمة موضوع التعلم"، وأن سوعة الحفظ تتوقف على كل ما ورد لها من معانٍ ومرادفات، وأن ما لم يفهم معناه من المفردات لا يمكن استخدامه في مجال التعبير.

إن كثيراً من المناهج الدراسية، يتصف بالقريرية التي يكتفي فيها بسرود الموضوعات، وشرح بعض النصوص، وتفسير طائفة من الكلمات، ثم وضع بعض الأسئلة على نحو ترتيب أو شكلي في الغالب، لا يولي اهتماماً كافياً بتسمية مهارات الطالب اللغوية، وتعويدَه على ممارسة اللغة، واستخدام مفرداتها وصيغها المكتسبة منها بشكل فعلي مباشر، ينمي فيه القدرات الخطابية، ويثير فيه الحماسة للتعلم، ويبعثه على المنافسة، ويشعره بفاعلية لغته، ويدفعه لاكتساب المهارة، وإظهار البراعة فيها، إلى جانب أن مناهجنا تسير على نظام التحفيظ والتسميع وعدم التمييز بين ما يجب أن يحفظ وبين ما يمكن أن يكون للدراسة، مع أنه لا بد من التركيز على الفهم والإدراك والتخيل والاستنتاج في جميع الأحوال، غير أننا نكتفي في كثير من الأحيان بالاستخدامات النظرية المجردة للألفاظ والتراكيب اللغوية التي ترد في النصوص المقررة دون ربطها بالخبرات الحسية التي يكتسبها الطفل في المدرسة أو في حياته العامة، فلا تجرى في الكتاب المقرر، ولا من قبل المدرس الذي يتولى تدريس الكتاب التطبيقات العملية الحسية على هذه الألفاظ والتراكيبات، ولا تربط مفاهيمها ومدلولاتها بواقع الطلبة وأجوائهم وظروفهم المحيطة بهم، ليتمكنوا من إدراك هذه المفاهيم والمدلولات وتصورها على نحو تام وصحيح، ويتوثق ارتباط اللغة بشئون حياتهم.

كما أن المقررات الدراسية لا تحتوي على ما يكفي من المواد لبيت الشعور في نفوس الناشئة بشكل مباشر وفعال بقوة لغتهم، وبعيوتها وقدرتها على استيعاب التطورات العلمية، والتقنية الحديثة ووفائها بمتطلبات الحياة الجديدة.

وليس من شك في أن للمناهج الدراسية عامة دوراً مشاركاً في هذا الضعف، فالجمود في المنهج والرتابة في الموضوعات للمقرررة مستمر، وغزو اللغة الأجنبية متواصل، واللغة تتراجع وتهزل، وتتداخل مع اللغة الأجنبية على الألسنة، فإن الموقف عسير.

وإذا تركنا الحديث عن المناهج في الفروع التي تحدثنا عنها، وانصرفنا إلى مقررات النحو والصرف، وجدتها تتصف بشيء من الجفاف والتعقيد والرتابة، وعدم التركيز على الوظيفة الأساسية لكل من النحو والصرف، وليس هذا الموضوع جديداً، فقد طال الحديث فيه، وكثرت المؤلفات والمحاضرات في محاولات تبسيطه وتيسيره، غير أننا ما نزال نرى أن مستوى الناشئة لا يدل على تقدم في هذا المجال، وأن الوحشة بينهم وبين تراثهم وأدب لغتهم تزداد يوماً بعد يوم، وتوشك أن تكون قطيعة تعصف بما نرجوه من آثار بناءة في تكوين أبنائنا الفكري والنفسي والحضاري. وليست المشكلة بالشيء الهين اليسير، فالشكوى من صعوبة النحو والصرف قديمة، فقصه أبي الأسود للدولي مع ابنته، وخصومة الحضرمي والفرزدق وخشية عبد الملك بن مروان وقولته المشهورة: شيبيتي المنابر وخشية اللحن، وما كان يؤخذ على النصحاء من خطأ يسرع إلى ألسنتهم، كل ذلك قديم، وكل ذلك كان يحصل والسليقة العربية سليمة، فماذا نقول الآن، والحال كما نعرف؟ يقول محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في مقدمة كتابه "المفصل": "الله أحمد أن جعلني من علماء

العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى أن انفرد عن صميمهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصبني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بالأسنة اللاعنين"، وكان الزمخشري كان يلحظنا بعين الغيب، ولكن بأثواب جديدة، ومذاهب مستحدثة، فيقول في المقدمة نفسها: "ولعل للذين يغضون من العربية، ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها.. لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيفاً عن سواء المنهج..". إلى أن يقول: "وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم، وتدريسهم ومناظرتهم.. فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا، غير منفكين منها أينما وجهوا، كلٌ عليها حيث سيروا.. ثم أنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها، ويدفعون خصلها، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلمها وتعليمها، ويمزقون أديمها، ويمضفون لحمها، فهم في ذلك على المثل السائر: للشعير يؤكل ويؤذم" ..

وقد نادى للكثيرون بأهمية النحو وأثره في اللغة، وبذلت محاولات لتيسيره، وقدم لبعضها الدكتور طه حسين بقوله: "وأنا أتصور للنحو على وجهين: الأول: أن يقرب النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويستسيغه ويتمثله، ويجرى على تفكيره إذا فكر، وعلى لسانه إذا تكلم، وعلى قلمه إذا كتب، والثاني: أن تشيع فيه القوة التي تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله، والجدل في أصوله وفروعه بعد أن عرضوا عنه"، وقد وضعت لجنة- في محاولة- كونتها وزارة التربية والتعليم في مصر من كبار الأدباء والمشتغلين بقضايا اللغة، كالدكتور طه حسين، وأحمد أمين، وعلى الجارم، وإبراهيم مصطفى وغيرهم، وجعلت مهمتهم تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة، تبسيطاً لا يمس أصلاً من أصول اللغة العربية، ولا شكلاً من أشكال الإعراب والتصريف.

وهكذا توالت المحاولات، وكلها ترمي إلى تبسيط المادة ليقبل عليها الطلاب في يسر وسهولة، ووجدت الكتب التي تبين ذلك، ككتاب "المفتاح لتعريب النحو" الذي نشره الأستاذ محمد الكسار، عام ستة وسبعين وتسعمئة وألف للميلاد، وغيره.. على أن ما ينبغي أن يوجه للنظر إليه من أمور تتصل بتعلم اللغة، وليس من تيسير النحو والبلاغة في شيء، فالنحو والبلاغة قد يتفان العقل، ويرقيان الذوق، ويصفيان الطبع، ويقومان الألسنة، ولكن الأهم والأجدى تعلم اللغة نفسها، أي أن تصبح أداة الفهم والإقحام، والتفكير والتعبير، ووسيلة يهون على أبنائها أن يؤدوا بها من الأغراض، ما يؤدي من غيرها من اللغات الحية، متخذين ما دعت إليه للمجامع العلمية واللغوية، والندوات والمؤتمرات التي عقدت والمجامع اللغوية، من مقترحات في سبيل النهوض باللغة عامة، والنحو خاصة، وهناك محاولات واقتراحات كثيرة، قام بها أساتذة كبار منهم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، في كتابه: النحو الجديد، والدكتور شوقي ضيف في كتابه: تجديد النحو، ومنهم الدكتور مهدي المخزومي، والأستاذ عبد الطيم إبراهيم، في النحو الوظيفي، والدكتور عبده الراجحي، في كتابه: تطبيقات نحوية. فإذا أخذت كتب النحو للمدرسية بمبادئ التسهيل، واصطنعت طرقاً جديدة في تعليم العربية وقواعدها، ارتفعت الشكوى، وأصبح طلابنا أفضل ممن سبقهم، واستطعنا أن نحقق شيئاً في نهضة اللغة: نطقاً وكتابةً.

(٣) أساليب التدريس:

هناك أسباب أخرى نراها في الأوساط التعليمية، والأوساط الثقافية، من مثل: طرائق التدريس وأساليبها المتبعة في مؤسساتنا التعليمية، والكتب الدراسية، والمناهج المقررة في هذه المؤسسات، وضعف المهارات والقدرات وعدم وجود الاهتمام الكافي بتقويتها، وتطويرها بحيث تصبح مواكبة للطوق والمناهج الحديثة في التعليم، ومتلائمة مع ثقافة العصر، ومع ما تواجهه اللغة من ظروف، فمزال مدرسو هذه اللغة ينجون في تدريسهم طرقاتاً تقليدية عقيمة، لا تستميل التلاميذ، ولا تضيف إليهم رصيداً لفظياً، ولا تطور مهاراتهم اللغوية، ولا حتى تكتشفها، بل يعمل هذا الأسلوب على تقليل الحماس لتعلم اللغة، وعلى إحضارها، ودفن المواهب، وإضعاف القدرة على كسب المفردات، والصيغ السليمة، ومن ثم يؤدي إلى تجنب دروسها والنفور منها.

هذه الطرق تعتمد على التحفيظ والتلقين، والشرح بعيداً عن الحوار، ودون إتاحة الفرصة للتلميذ للمناقشة والتفسير، فهي تقوم بشحن الذهن بالمعلومات بحيث تسرد نصاً على من يستخدم تعبيره الخاص في نقلها أو التعبير عنها، فمثلاً في النصوص الشعرية والدينية، والموضوعات النثرية، تعطل قدرات التلميذ على التعبير كنتيجة لاستخدام الطرق العقيمة، والصيغ اللغوية لا يستتارون لها، ولا يشجعون على فهم واستيعاب معاني ومفاهيم الألفاظ، وأسباب النص ومضمونه، معتمداً على معلومات المدرس التي تكون في الغالب موجزة، وغير مجدية، رغم أن مصادر المعرفة كثيرة ومتعددة، ومتنوعة لا تحتاج سوى الإشارة إليها.

إننا بذلك نخلق لدى التلميذ شعوراً بالحرج والخوف والتخاذل عن الاستفسار عن معاني الكلمات، وصحتها نطقاً وكتابة، أو صيغ التعبيرات

اللغوية الغامضة، أو التي قد تكون غريبة عليه، مما يتردد على لسان المدرس نفسه، أو ترد في النصوص المقررة، فتمكث هذه الكلمات والتعبيرات في أذهانهم مجردة من مدلولاتها، ولا يستقيم نطقها عنده، وربما أيضاً كتابتها، إلى جانب شعورهم بالضجر والملل، أو إلى الانحراف بالذهن إلى غير ما فائدة.

إن تدريس اللغة العربية، لا يجد العناية المرجوة في معاهدنا أو مدارسنا وكلياتنا، فتصبح اللغة هامشية تكميلية، لا تبتعث عن الاهتمام بها، وبالتالي لا يستفيد الطلاب منها شيئاً، وكذلك لا نجد أهمية لدور الأنشطة التربوية بكل فروعها في مناهجنا، وإن وجدت فإنها لا تؤدي رسالتها الفعلية في إحياء اللغة، والنهوض بها نطقاً وكتابة.

مع تقدم وسائل الاتصال، وسهولة تنفق للمعلومات، أصبح للعالم وكأنه يعيش في قرية صغيرة مليئة بالمعلومات المتقدمة والمتشبكة، وأصبح من الضروري إحداث ثورة في طرائق للتدريس، وأساليبها، لتخلق جيلاً واعياً بما يدور حوله في العالم، دون أن يفقد هويته، ليصبح قادراً على التنبؤ والإبداع، لا للحفظ والتلقين، خاصة وأن واقعنا التعليمي للراهن يؤدي في معظم الأحيان إلى تدريس مفاهيم أو موضوعات منفصلة عن بعضها البعض، وأن تطور ونجدد في مناهج تدريس اللغة العربية للاعتماد على تنمية المهارات والكفاءات، وإعادة النظر في مناهج تدريسها في مختلف المستويات، وتطويرها بجهد علمي، وبحثي منظم تقوم به المؤسسات المتخصصة.

وليس من شك في أن هناك أموراً كثيرة، تتعلق بأساليب التدريس، لها أثرها الكبير في الحد من ظاهرة اللفظية، والتقليل من آثارها السلبية على الناشئة فالطريقة المشوقة في التدريس لها أثرها في جذب انتباه الطالب،

ومتابعة ما يقوله المدرس، وما يدلي به من أفكار ومعان وألفاظ جديدة، وليس من شك في أن الحيوية في عرض ومناقشة الموضوعات المقررة، وإشراك الطالب المستمر في المناقشة والحديث والتطبيق العملي، وإتاحة الفرصة للطالب لممارسة جميع الأنشطة اللغوية الممكنة، وإزاحة ما قد يعرض من ملل، واهتمام أئمزس بتتقيف نفسه بصورة مستمرة، وإيجاد رابطة بينه وبين طلبته، وحرصه على كسب ثقتهم، وطلب اهتمامهم بما يقدم إليهم، كل هذا يؤدي إلى استيعاب الموضوعات على النحو السليم.

وكما أن لطريقة التدريس أثرا مهما على ظاهرة اللفظية، فإن للمسواد والموضوعات المقررة، ولطرق عرضها وإخراجها وتنسيقها في الكتب للدراسية دورا مهما أيضا.

الفصل الثاني

الإثراء اللغوي

إن إثراء الحصيلة اللغوية، وتنوع مستوياتها لدى الفرد، يجعله أكثر فهماً لما يطرأ أو يكتب، وتزداد الخبرات والتجارب والمعارف والمهارات التي يكتسبها الفرد، وبالتالي يزداد المحسوس الفكري والثقافي والفني عامة، وتنتفتح الشخصية على ما يحيط بها، وتنمو غريزة الاجتماع لديها، ومن ثم تنمو روح الألفة، والجرأة الأدبية، والثقة بالنفس، وهكذا فإن "معرفة الإنسان الحضاري لفنون لغته، وكيفية نطق الحروف والأصوات المكونة لبنيان اللغة، بما يلائم الموقف، ويناسب للحالة، وينسجم مع النوق، يوفر له قفزة نوعية في بناء شخصيته الجديدة" ..

إن اتساع حصيلة الفرد من الألفاظ والتراكيب اللغوية التي يكتسبها بفضل علاقاته الاجتماعية، يساعده على فهم وإدراك كثير مما يقرأ، وتعين الثروة اللفظية المكتسبة عن طريق ممارسة قراءة اللغة المكتوبة بصورة خاصة على فهم ما في التراث من نتاج فكري، ومن نماذج ونصوص وإبداعات أدبية، والاستمرار في القراءة يكسب للفرد ثقافة وعلماً، كما يعين على فهم واستيعاب قواعد اللغة، وأصول نحوها وصرفها، وبالتالي يعين على توظيف هذه القواعد والأصول على الوجه الصحيح في التعبير عن أفكاره وأحاسيسه، فثراء للحصيلة اللغوية يجعل للفرد فعالاً في محيطه، وبين أفراد مجتمعه أو أمته، ولا تظهر أهمية للحصيلة من ألفاظ اللغة، مهما بلغت من الثراء، ما لم تكن هناك قدرة على صياغة وتركيب وسبك، وربط المفردات اللغوية المكتسبة على نحو سليم، وطبقاً للمقاييس والقواعد اللغوية المتفق عليها في اللغة الواحدة، وما لم يرافق وجود كل ذلك نوق فني صقيل، وطبع صاف مهذب، يتمكن معه صاحب هذه الحصيلة من تحقيق التلازم

والانسجام التام بين الأفكار والانفعالات التي يريد نقلها للأخرين، وبين القوالب اللفظية التي يوصلها بها، ويختارها لها "إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلمة مفردة" كما يقول الجرجاني، "وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة أو خلافتها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها". والثروة اللفظية لا تظهر أهميتها، ولا تظهر البراعة في استخدامها ما لم تبرز معبرة عن ثروة فكرية، أو عن حصيلة متميزة جيدة نافعة من المعاني، ومخزون مؤثر فعال من العواطف، وعن صور ذهنية متلائمة معها. "إن الألفاظ لا تدل على البلاغة، ولا توصف بالفصاحة وحدها، وإنما المزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح"، كما يقرر الجرجاني أيضاً "عائدة في الحقيقة إلى معناه، ولو قيل أنها تكون فيه دون معناه لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظة أنها فصيحة أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك، فإننا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنما كان كذلك لأن المزية التي من أجلها نوصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد ألا تكون، وتظهر في الكلمة من بعد أن يدخلها النظم، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها، وقد جئت فيها أفراداً لم ترم فيها نظماً ولم تحدث لها تأليفاً، طلبت محالاً...".

وإذا تبينا أهمية الثروة اللفظية، وعرفنا الدور الأساسي المهم الذي تلعبه أو تؤديه في عملية التواصل والتعايش والترابط، والتفاعل الاجتماعي، وعرفنا فاعليتها الكبيرة في اكتساب الخبرات، وفي تنشيط عملية الإبداع، والإنتاج الفكري، ومن ثم في تحقيق التقدم الحضاري، إذا عرفنا كل ذلك أمكن إدراك ما يترتب على نقص هذه الحصيلة، أو عجزها من سلبيات يعود أثرها في الفرد، وفي المجتمع وحضارته عامة، من عزلة اجتماعية، وضعف القدرة على التفاعل، واضطراب الشخصية، وضيق الأفق الثقافي

والفكري، وضحالة الإنتاج الإبداعي أو الفكري، ثم هجران اللغة، والازدواجية اللغوية.

إن كل هذه العوامل والدوافع تؤكد ضرورة خلق وتطوير المهارات اللغوية، والمهارات البيانية عن طريق إغناء الحصيلة اللغوية واللفظية، من أجل تحقيق المطامح الشخصية والاجتماعية والقومية في الإنتاج والإبداع والتطوير، ومن أجل تحقيق الاستقلال الفكري، وإحراز المكانة المرموقة، والتقدم الحضاري المنشود.

إن ما يجب أن يتخذ في سبيل إدراك أهمية الثروة اللغوية، ومعرفة مصادرها ومواردها وطرق وسائل تنميتها، تهيئة النفوس للإقبال عليها، وعلى تعلمها، واكتساب المهارة فيها، استخدام اللغة في التعليم، وفي التأليف والتنقيف والإعلام، واستخدامها في المعاملات الرسمية في كل مرافق الدولة، وفي التعامل الاجتماعي والتجاري بجميع أنواعه وأشكاله، كل هذه أمور تبعث الثقة باللغة، وتوجه الأنظار والقلوب إليها، وتزيد من الاهتمام بها، عن طريق التوجيه السديد إلى مصادرها، وإلى طرق ووسائل تنميتها، ومن ثم تثقيفها ونشرها والارتقاء بها، ومن هنا نشأت ضرورة تطوير المهارات في تدريسها، وتطوير مناهجها. والمقررات الدراسية المتعلقة بجميع فروعها: تهيئة المدرس الكفاء القدير الذي يمكن أن يكون قدوة صالحة في سعة معرفته، ومسلكه العلمي والخلفي، وفي عمق تفكيره وبعد نظره وجمال ذوقه، ووفائه لمهنته، وفي فصاحة لغته وطلاقة لسانه، وتهيئة الكتاب المدرسي الذي نقدم فيه اللغة حية متجسدة، مرنة محسوسة، مواكبة لتطورات الحياة، ملبية لكل متطلبات الحضارة، وتهيئة المنهج السليم الذي ينظر إلى اللغة وكأنها كائن حي متطور، كما يجب أن تولي المؤسسات اللغوية والعلمية عنايتها واهتمامها بإحياء ونشر الأعمال الأدبية التراثية. والعمل الدائم على

توثيق الارتباط بهذه الأعمال، وجعلها قاعدة أساسية لإيجاد نهضة فكرية نشطة، وبناء حضارة جديدة نامية متطورة أصيلة في متعناها ومبناها، ولا بد من أن يصاحب حركة إحياء ونشر الأعمال الفكرية التراثية تشجيع متواصل على جعل تلك الأعمال منطلقات رئيسية لإيجاد أعمال عديدة باللغة القومية.

وهذا النشاط أساسه القراءة، ومن هذا المنطلق جاءت حتمية التشجيع على القراءة، والسعي الحثيث من قبل الجهات الرسمية، والمؤسسات اللغوية والعلمية لتوفير المادة المقروءة، والكتاب الجيد، وجعله في متناول اليد، وبأسعار مناسبة، وإنشاء المكتبات العامة الثرية، وتهيئة جميع الوسائل المشجعة على الارتباط بالمادة المقروءة، وأن تسعى الدولة لتتقو جميع أجهزتها مما يسئ إلى اللغة القومية، وأن تجعل منها منابع صافية يستقي منها الجمهور مفردات لغته سليمة فصيحة صحيحة.

إن النهوض باللغة نطقاً وكتابة، قضية سياسية اجتماعية وإنتاجية، ذلك أنه عندما ينهض المجتمع حضارياً وإنتاجياً، ينهض الفكر، وتنهض اللغة، وعندما يتقدم الفكر واللغة، يتقدم المجتمع، ومن ثم فإن نهضة اللغة مرهونة بتحقيق مشروع حضاري عربي قومي، تتمرد فيه الأمة على واقعها، وتخرج من تمزقها، وتتجاوز تخلفاتها وخلقاتها، لتتطلق إلى المستقبل الذي يليق بها، بشراً وتاريخاً وأملاً.. ، واللغة جزء من التقدم الحضاري للمجتمع القائم على أساس سلامة الرؤية، ووضوح الهدف، وحرية التعبير والاجتهاد، والفكر والإبداع المنطلق إلى اللا حدود.

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

إن القراءة وسيلة من الوسائل التي لا بد منها، ومن وجودها إمداد الفكر الإنساني بأسس الإبداع، فبالقراءة يعيش الإنسان حياة الحاضر والماضي معاً، يعيش عصوراً وأزماناً بعيدة ممتدة، يشارك أهلها معارفهم، وخبراتهم ونجارتهم، ويستوحي منها ومما أبدعته عقولهم إبداعاته الجديدة، إذ أن "صور نكاء البشر ومعارفهم" كما يقول فرانسيس بيكون.. "تبقى في الكتب بمنجاة عن عنكبوت الزمن، وهي قادرة على التجدد الدائم"، وتتوقف نسبة إغناء المحصول اللغوي على كمية القراءة، وعلى نوعية النتاج المقروء وأسلوبه وقيمه من الناحية الفكرية واللغوية، وعلى أسلوب القراءة نفسها، وطريقة استغلالها كوسيلة لتنمية الحصيلة اللغوية، ومدى القدرة على القواء والفهم والاستيعاب والتذكر، وكلما كان النموذج المقروء عالياً ثرياً في لغته، جميلاً في أسلوبه، جلياً في صياغته، كانت فعاليته في إنماء الحصيلة اللغوية أكثر، والمحصول اللغوي المكتسب من قراءة الموضوعات الأدبية يكون وفيراً.

إن "اللغة مادة الأدب كما أن الحجر أو البرونز مادة النحت، والألوان مادة الرسم، والأصوات مادة الموسيقى"، وليست اللغة على عمومها، وإنما لغة الألفاظ والحروف والمقاطع الصوتية المكونة منها بصورة خاصة، يقول غيورغي غانشف: "إن الإبداع الأدبي نوع راق من أنواع العمل الاجتماعي، ومادة البناء في الأثر الأدبي هي للكلمة، أي الشكل المتميز للوعي، إن الكلمات وما تتركب منه من مقاطع صوتية وحروف، وما تكمن فيها من طاقات دلالية مختلفة هي المادة الأولى التي تتجلى فيها وفي انتقائها واستخدامها واستغلالها موهبة الأديب المبدع، وتظهر بها براعته في التعبير عن مشاعره وأخيلته وأفكاره ومعانيه، ومواقفه الإنسانية المترامية الأبعاد،

وكل ما يجيش في نفسه ويتبلور في ذهنه، وهي المرأة الحقيقية التي نرى فيها ومن خلالها إبداعه الفني، ونشهد تميزه ، ونرى شخصية بكل ما لهذه الشخصية من نوازع وسمات، ولذلك كان الأدب الحقل الأوسع الذي تمارس فيه اللغة بمختلف ألفاظها وتراكيبها وصيغها، وبكل ما يكمن فيها من أسرار، وما تحمله من صفات أصيلة ومن طابع فكري ووجداني قومي متميز.

والأديب لا يتخذ اللغة وسيلة لبناء عمله الأدبي، وإنما هي لديه غاية: إنها جزء مهم من عمله الإبداعي، يسعى إليه ويعمل على تحقيقه، وهو لا يستخدم اللغة على النحو المألوف لدى الآخرين، وإنما هو يخدمها.

إن العزوف عن القراءة، والإعراض عن ممارسة الأنشطة التربوية، عامل مساعد للضعف في اللغة، ولضآلة المكتسب منها: من صيغ وألفاظ وتراكيب وأساليب وقواعد لدى الجميع، وقد تنبته مصر إلى أهمية هذا العامل، فدعت السيدة سوزان مبارك، إلى مهرجان القراءة للجميع، وماذا تقرأ لطفلك؟ وكانت مكتبة الأسرة، وأصبح هناك وعي لضرورة القراءة، وتشجيع التأليف والمسابقات الثقافية، حتى أصبحنا على الطريق المؤدي لتصحيح المسار، فالقراءة وسيلة من وسائل النهوض باللغة العربية نطقاً وكتابة، وهي ذات أثر فعال في تنمية الحصيلة اللغوية، وتطوير القدرات التعبيرية، من أجل ذلك كانت الدعوة إلى مهرجان القراءة للجميع، إلى مكتبات الأسرة، وإلى ماذا تقرأ لابنك، قد وجدت رواجاً كبيراً من جميع الأوساط، وأقبل عليها الكثيرون، وأحييتها المؤسسات العلمية، والمراكز الثقافية، والمكتبات العامة.

إن القراءة مصدر رئيسي للمعرفة، منها يستمد الإنسان ما يمكن أن يرتقي بعقله وخياله، وهي مصدر رئيسي لمفردات اللغة، ومورد ثابت مستمر لا بد من الكشف عن طبيعته، وأبعاده المهمة، ومدى فاعليته، وطرق

استغلاله في تكوين حصيلة لغوية نامية فعالة، فهي إذن تعد الميدان الرحب الذي تتجلى فيه اللغة بكل ما تحمل من طاقات، وما تشتمل عليه من عناصر، وما يدخل تحت طوقها من أساليب، حيث دعا إليها القرآن الكريم في سورة القلم، فقال: "ن والقلم وما يسطرون"، وهذا يعني أن القراءة ووسيلتها القلم، يعني بداية الحياة لأمة تريد أن تتعرف على نفسها في ميدان الحضارات، والقراءة والكتابة في الإسلام، ضرورة وفريضة، وقد أمر القرآن بها فقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق..." - العلق - وينبغي علينا أن نختار الكتب التي تقدم للناشئة، كما ينبغي أن تتجه القراءة إلى التأكيد على القيم، والاتصال المباشر بالتراث الصحيح، وبكل ما يخدم الإنسان المتقف عقله وفكره وخلقه.

وتهيئ القراءة الحرة الفرصة لاكتساب الكلمات، كما أن قراءة آيات القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، وحفظها، يهذب لسان الناشئ بلا شك، ويسمو بسليقته ويرتقي بلغته، كما ينمي قدرته على الاسترجاع والتذكر، حتى وإن لم يدرك ويفهم كل ما يحفظ أو يقرأ.

ولقد تميزت اللغة العربية بغزارة مادتها بفضل مرونة أصواتها، وطواعية مفرداتها وتعدد طرائق نموها وتوسعها وعراقة الأدب والشعر فيها، لأن الشاعر كما يقول "هربرت ريد" ينطلق إلى العمل من وحدة عاطفية، وهذه الوحدة تكتسى بما يمكن أن يسمى بالصورة اللغوية الداخلية، ولكن يظل الشاعر مخلصاً لهذه الصورة اللغوية الداخلية، فلا بد له من أن يخترع الكلمات، وأن يبدع الصور، وأن يتلاعب بمعاني الألفاظ ويوسع في نطاقها، ويقول "سارتر" "إن الشاعر لا يستخدم الكلمات بحال، ولكنه يخدمها، وهو أبعد ما يكون عن استخدام اللغة كأداة، وقد اختار طريقه لاختياراً لا رجعة فيه، وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعري في اعتبار الكلمات أشياء في

ذاتها، وليست بعلامات لمعان.. والكلمات للمتحدث خادمة طيبة، والشاعر عصبية أبية المراس، لم تستأنس بعد، فهي على حالتها الوحشية، والكلمات للمتحدث اصطلاحات ذات جدوى، وأدوات تبلي قليلاً قليلاً باستخدامها، يطرحها حين لا تعود صالحة للاستعمال، وهي للشاعر أشياء طبيعية، تنمو طبيعية في مهدها كالعشب والأشجار".

وحين نتحدث عن تنمية الحصيلة اللغوية، وأثر ذلك على الفرد، إنما نقصد مصدرها القراءة التي تعالج المشاكل المتعلقة بالحياة، والعلاقات الناشئة بين المخلوقات في هذا الكون، ويتجه فيها الخطاب إلى النفس البشرية، أو للروح والعقل معاً، ويقصد بها للتأثير في أحاسيس المتلقي، أو في أحاسيسه وفكره معاً، ويسعى إلى تغيير مواقفه في إطار تعبيره فني جميل، يتعانق فيه الخيال مع الفكر، وتترقرق الأفكار فيه في نوب من العاطفة، وتتضح فيه رهافة الحس، وأناقاة للنوع، ورقة الطبع، وثراء للغة، وعلى نحو مختصر نقول: "كل الأعمال التي تغلب فيها الوظيفة الجمالية".

هناك من يقرأ وقصده مما يقرأ معرفة محتوى النموذج المقروء، والإحاطة بما يتضمن هذا النموذج من معان وأفكار، أو معلومات جديدة، دون الاهتمام بالشكل، ودون التفات إلى نوعية وطريقة نظم القوالب التي أدت ونقلت تلك المعاني والأفكار أو المعلومات، فهو كما يعبر ابن رشيق للغيراوني لا يبالي "حيث وقع من هجئة اللفظ وقبحه وخشونته".. وعدم التفات هذا للقارئ للألفاظ وشكلها، وعدم تنوقه لها ولصياغتها، وإيقاعات أصواتها تجعل نسبة العالق منها في ذهنه والمستقر منها في ذاكرته قليلاً.

وهناك من يقرأ عابراً، فلا يعلق في ذهنه من المعاني والألفاظ والأفكار، إلا ما كان متكرراً، وهناك من يقرأ متعزراً فهو لا يستفيد إلا على

قدر ما يستوعب ويهضم من أفكار ومعان، وما عسى أن يعلق في ذهنه من الألفاظ والتراكيب المعبرة. ومن وجهة نظر أخرى نجد من يقرأ بأناة وحرص متتبعاً المعاني والأفكار ومدنوقاً في الوقت نفسه التراكيب والألفاظ والصيغ التي تنقل هذه المعاني وهذه الأفكار أو تعبر عنها ولطريقة القراءة من حيث للجهر بها، أو الإخفات فيها أثر في اكتساب مفردات اللغة، فمع أن للقراءة الصامتة إيجابيات وفوائد في زيادة وسرعة استيعاب القارئ لما يقرأ، وفي توفير جهده ووقته، وتوفير الهدوء له ولمن يحيط به أو يجالسه، وفي تخيل المعاني للتجريدية، والعبارات وما توحى به من صور، فإن للقراءة للجهرية إيجابياتها وفوائدها الكثيرة، من حيث لكتساب المهارات اللغوية بنحو خاص.

وهناك فرق عظيم كما يقول الكاتب والشاعر الإنجليزي (جلبرت كيث تشسترتون) "بين شخص متشوق يريد أن يقرأ كتاباً، وشخص متعب يريد كتاباً ليقرأه" فالقراءة تؤدي وظيفتها عندما يكون الإنسان في حالة مرضية، وقد أشار بشر بن المعتمر البغدادي (ت ٢١٠ هـ) إلى ضرورة مراعاة الجانب النفسي في الكتابة تصريحاً، وفي القراءة ضمناً، فقال: "خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ، ولشرف حسبأ وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش للخطأ، وأجلب لكل عين وعزة من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعادة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً وخفيئاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه" فهذا القول وإن كان لئن المعتمر يعني به الكاتب الناشئ، نراه ينطبق على القارئ الناشئ أيضاً.

ومهما كان نوع القراءة وشكلها وحجمها وهدفها ومرجعها وموضوعها، فإنها تعد بلا شك مصدراً أساسياً، ووسيلة من أهم الوسائل لاكتساب اللغة بجميع صيغها وتركيبها ومفرداتها، كما أنها تعتبر عاملاً رئيسياً من عوامل الارتباط الوثيق باللغة القومية، وجميع مراحلها وأطوارها، وبترت هذه اللغة في مختلف أشكاله وصوره المدونة للموروث.

إن القراءة تجسيد حقيقي للغة ولحياتها وحياة أبنائها من كل عصورهم وأزمانهم وبمختلف أوقاتهم وأمزجتهم وأفكارهم وأحاسيسهم وظروفهم ومواقفهم وعاداتهم وتقاليدهم.. لهذا كانت الدعوة إلى القراءة، وللتشجيع عليها ضرورة حتمية تفرضها المطامح التربوية والقومية والاجتماعية، وعلى الأسرة والمدرسة، والصعيد الاجتماعي العلم للتركيز على هذه الدعوة، حتى تصبح هناك علاقة بين الناشئ والكتب لدخل الأسرة ودخل المدرسة، وفي المكتبات العامة، لينشأ للطفل منذ عهد مبكر على حب القراءة، لما لها من آثار إيجابية في حياته، وفي تنمية رصيده اللغوي، وفي إيقاف شعوره وتطوير قدراته على التنوق الفني، وعلى التخيل والحفظ والإلقاء الجيد، إن هذا يستتبع تشجيع المؤلفين على الاهتمام بكتب وقصص الأطفال. والعمل على تطوير فن الكتابة للأطفال، عن طريق إنشاء فروع خاصة لدى المؤسسات الثقافية، والمؤسسات اللغوية المعنية بهذا الفن، وتقديم الدعم المادي والمعنوي اللازم لهذه الفروع، مع العمل المتواصل على تطوير مجالات الأطفال، وإقامة جمعيات خاصة بتقافتهم، ومؤسسات أدب الأطفال والمكتبات العامة، ومكتبات الأطفال، ونوادي القراءة الصيفية، وتشجيع إقامة نوادي الكتب، ومعارض ومهرجانات أسبوعية أو شهرية للكتب، وتطوير المكتبات المتجولة.

الممارسة اللغوية:

للممارسة أهمية للتعلم عامة وتزداد بالنسبة لتعلم اللغة، لأن ما يبقى المعلومات المخزنة في الذاكرة حية حاضرة في الذهن سهلة الاسترجاع، هو ممارسة استخدامها بصورة مستمرة، فذلك يهيئ الارتباط الدائم بين هذه المعلومات وبين الحوافز، وبالتالي يساعد على إتقانها وبلورتها، وتعلقها وثباتها ونموها في الذاكرة. يقول (لودفج فتجنشتين: "إن كل كلمة تبدو في حد ذاتها كما لو كانت شيئاً ميتاً. وما الذي يعطيها الحياة؟ إنها تكون شيئاً حياً أثناء استخدامها، فهل دبت فيها الحياة بهذا الشكل، أو أن الاستخدام نفسه هو حياتها؟

والتخاطب لون من ألوان الكلام، وطريقة من طرق استخدام اللغة وممارستها، تزداد نسبة تسميع الكلمات التي تتلقاها الذاكرة، ويزداد ترددها على الذهن، ويتكرر استرجاع مجموعات كبيرة منها ربما لفترات طويلة ومستمرة، بحسب الفرص المتاحة لهذا التخاطب وهذا يزيد من ثبات الكلمات في الذاكرة، ويسهل على مكتسبها استرجاعها من هذه الذاكرة، واستحضارها عند الحاجة إليها، مما يؤثر إيجابياً على نمو الطلاقة اللغوية.

يقول (رومان جاكوبسن): "عندما يتكلم أحدنا إلى متحدث جديد يحاول دائماً، عمداً أو عن غير قصد، أن يكتشف مفردات مشتركة بينه وبين الآخر، فهو يستعمل ألفاظ المخاطب، إما لإرضاء المتحدث، أو للتفاهم معه فقط، أو للتخلص منه. ذلك أن الملكية الخاصة لا وجود لها في ميدان اللغة: كل شيء مشترك، والتبادل الكلامي، مثله في ذلك مثل أي شكل من أشكال العلاقة الإنسانية".

إن ممارسة اللغة نطقاً تعتبر أساساً مهماً في معرفة وإدراك معان وملولات وظيفية معجمية، أو لهجية خاصة، أو سياقية إيماثية إيحائية جديدة

للألفاظ التي سبق اكتسابها، وهي تثبت المعلومات والمعاني والمدلولات التي سبقت معرفتها، وسبق ارتباطها بهذه الألفاظ في ذهن مستخدمها. والفرد قد يكتسب من خلال علاقات واتصالات اجتماعية، أو قراءات سابقة، ألفاظاً بمدلولات معينة، وقد تكون متعددة، ومختلفة فليس للكلمة الواحدة معنى واحد، ولا استخدام واحد، وإنما تقوم للكلمة للوحدة باستخدامات لا حصر لها" .. وليس للغة حساب منطقي دقيق لكل كلمة معنى محدد، ولكل جملة معنى محدد بحيث يمكن الانتقال من جملة ما إلى ما يلزم عنها من جمل حسب قواعد الاستدلال المنطقي، لكن للكلمة للوحدة تتعدد معانيها بحسب استخدامنا لها في الحياة اليومية.

"وتعدد معاني الجملة الواحدة حسب السياق الذي تذكر فيه، وإن للكلمة مطاوعة تتسع لاستخداماتها، أو تضيق حسب الظروف والحاجات، وإن للغة ليست كرجل صارم يعرف دائماً ماذا يريد ويفعل دائماً طبقاً لقاعدة محددة، وإنما هي كرجل فضفاض متقاتل، له نشاط متعدد يتلاعب بما لديه من دون صرامة، أو خطة محكمة.

"إن مستعمل اللغة لا يكتسب المعنى للتام لأي كلمة، ويستخدمها بدقة إلا عند سماعها بوصفها رمزاً يستخدم في مواقف متعددة متنوعة. وقد يختلف معنى كلمة ما اختلافاً كبيراً أو طفيفاً بالنسبة لمستعمل اللغة للوحدة، وحتى بالنسبة لأفراد أو جماعة بشرية صغيرة متوطنة، ولتعريف معنى أي كلمة، أي ما ترمز إليه بالنسبة لمستعمل واحد للغة، فإن من الضروري تحليل جميع المواقف التي سمعها فيها، واستوعب ما ترمز إليه، ومن ثم استخدامها في نفس المواقف، لكي نستطيع في النهاية عزل الملمح المشترك ومن ثم تحديده".

أما ممارسة اللغة كتابة، فالأمر مختلف حيث لا يوجد طرف آخر يفرض إرادته في الإسراع بتغيير الموقف، أو تحويل الفكرة وصرف الذهن عما يشغل الفكر، فهو طرف واحد يتحكم في زمن التخاطب، وموضوع التفكير وزمن الإنتاج، وبإمكانه أن يطلق العنان لفكره وخياله فيستدعي ويتنكر ويفوض في طيات الذاكرة في لحظات من التأمل أو التخيل أو للكشف، ومن هنا تكون الفرصة أكبر عند ممارسة الكتابة لتداعي وتوارد للتصورات والأفكار والمعاني والألفاظ المعبرة عنها أو المرتبطة بها، كما تكون الفرصة أكبر أيضاً لدوران ما يسترجع من الذاكرة، ولبقائه طافياً حاضراً في ذهن من يمارس الكتابة، حتى مع تغير للموقف الفكري أو الشعوري، ولا شك أن لهذا الدوران وهذا الحضور أثره في نمو الطلاقة اللغوية.

إن ممارسة القراءة تعتبر إلى جانب التخاطب نوعاً من الرياضة النفسية، وتتحصر هذه الرياضة كما يعبر فندريس: "في التوفيق بين الرسم والصوت، وفي الجمع في دائرة الإدراك بين التصورات البصرية والتصورات السمعية" ..

"عندما نسمع حديثاً ما نلاحظ في أغلب الأحيان أن الكلمات تفرع في نفس اللحظة جهازنا البصري، بقدر ما تفرع جهازنا السمعي، بمعنى أن الأثر الواقع على للمراكز السمعية ينتقل بدوره إلى للمراكز البصرية، وحينئذ نبصر الكلمات التي تسمعها آذاننا بل نحن أيضاً عندما نتكلم نرى الكلمات التي نلفظها، فتمر أمام عقولنا كأنها مسطورة في كتاب مفتوح والصورة التي نتخذها شفاهنا محددة غالباً بالمنظر الذي تظهر فيه أمام عقولنا".

لذلك كان من خير الوسائل لتجنب أخطاء النطق أن نرجع إلى صورة الكلمة البصرية التي تصحب دائماً صورتها السمعية في أذهاننا، وكذلك

صورة الكلمة البصرية يصحبها عند القراءة إحساس سمعي، فترانا نعني لأنفسنا جمل للكتاب الذي نقرؤه، وعندما نكتب، نرى قلمنا يتبع الإشارات التي يملها عليه الصوت الداخلي، فيمكننا أن نقول إنه في أثناء النشاط اللغوي لدى الشخص المتحضر العادي، تشترك صورة اللغة جميعها، في العمل". وعن طريق هذا الاشتراك تحضر صورة الكلمات في الذاكرة بطابع وشكل أدق وأعمق.

ونتيجة لثبات اللغة المكتوبة واستقرارها النسبي، بالإضافة إلى انتقال السلسلة الكلامية من المستوى الزماني، إلى مستوى الإشارات المكانية كما يعبر (رومان جاكوبسون) تبقى الكلمات بالنسبة للقارئ موجودة، وهو يستطيع أن يعود من العنصر اللاحق إلى ما سبقه من العناصر لا ليصحح ما قد أخطأ في نطقه أو تصوره من هذه العناصر فصب، وإنما ليذكر ما قد فاته استيعابه أو فهمه أو تذكره منها أيضاً يجدد العهد بما نسيه من الألفاظ والمفاهيم، وهكذا تعمل ممارسة القراءة على زيادة فرص الاستيعاب للفرد لمعاني اللغة، وفرص ربط هذه المعاني بألفاظها على نحو وثيق صحيح، كما تعمل على إنعاش العناصر اللغوية التي يكتسبها، أو على تعزيز تذكر هذه العناصر، ولكل محيط اجتماعي لغة تتناسب معه في مفرداتها وتعبيراتها وطرق نطقها.

وإذا كان للقراءة أثر، فإننا نلمسه في تنقية المحصول اللغوي للنتائج عن التحاور، وتهذيبه، وفي انتقاء اللغة التي تصلح للتخاطب والتواصل اللغوي بمستواه الفصيح الراقى الذي يحتاج إليه الإنسان في مجتمعا الذي نعيش فيه.

وللقارئ محتاج لتفسير ما يمر به من مفردات وكلمات وألفاظ، ولفهم وإدراك ما يقرأ، فيبحث في الذاكرة عن معاني ومطلوبات المفردات اللغوية

في فاعلية مستمرة وسريعة، والذهن أحياناً "يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعاً لشكلها الخارجي".

إن اللغة- نطقاً وكتابة- تخلق للكلمة قيمة "حضورية" كما يعبر فندريس فإن المعاني المختلفة للكلمة التي قد تكون كامنة في الذهن، ربما تتداعى وتستحضر أيضاً لأن "الكتابة تخلق ما سماه بعض الباحثين لغة "طليقة من السياق، ومن الثابت في علم النفس أن الخبرات أو المعلومات القديمة تساعد على خفض الفترة الزمنية اللازمة لتعلم مهارات جديدة، أو تلقي معلومات جديدة، كما يقرر (فنجنشتين) أن معنى الكلمة يتحدد بناء على الظروف المختلفة التي تستخدم الكلمة حدودها بالفعل"، وشرح معنى للكلمة "يكون بإظهار كيفية استخدامها"، لذلك دع الألفاظ تعلمك وتوضح لك معناها من خلال استخدامها سواء كان هذا الاستخدام مقروءاً أو مسموعاً.

إن ألفاظ اللغة المكتسبة كلما كانت مستمرة للحضور في الذهن، كانت عملية اكتساب الألفاظ أو المولد الجديدة أسرع، وأكثر إيجابية، حيث تكون عملية تذكر واستيعاب ما يقرأ أو يسمع أسرع، كما تكون عملية اكتساب المفردات والألفاظ الغريبة للمجولة لها المرتبطة بها شكلاً أو معنى في سياقها القائمة أسرع أيضاً.

يقول الجاحظ: "إن الألفاظ إذا طال مكثها تتأكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أكرم ثمرة، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلفة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر".

النشاط اللغوي:

ويعتبر النشاط التربوي لأبنائنا- في المدارس والمعاهد والجامعات- ركيزة مهمة للنهوض باللغة نطقاً وكتابة، ومن ثم يخرج هؤلاء الأبناء إلى الحياة العامة، فيستفاعلون مع بعضهم البعض بلغة سليمة صحيحة- نطقاً وكتابة- والنشاط المدرسي هو الجهد العقلي أو البدني الذي يبذله المتعلم في سبيل إنجاز هدف ما، ولا بد للنشاط المدرسي من هدف، فهو الذي يخلق لنا أفراداً في المجتمع يعملون في شتى ميادين ومجالات الحياة، ويصبح لدينا الصحفي، والمذيع، والكاتب، والمهندس، والطبيب، وغير هؤلاء من الفئات الأخرى، التي تخرج لنا أعمالهم بلغة راقية صافية معتمدة على ممارستهم للغة السليمة نطقاً وكتابة، فما يبذله المتعلم من نشاط تربوي له قيمة كبرى فالمنهج جوهره النشاط، يدور حول تربية الفرد تربية جديدة، ذات فلسفة خاصة، حيث يدفع إلى تربية الأبناء، وبنائهم من الداخل، ويدعو إلى بناء المعلم أيضاً من الداخل؛ ومدى قابلية المعلم لاستخدام النشاط الذي يحتاج إلى إمكانات للتخطيط له، وتنفيذه.. ويقصد بالنشاط تنوع ألوان الممارسة العملية للغة- نطقاً وكتابة- يقوم بها الأفراد مستخدمين فيها اللغة استخداماً موجهاً ناجحاً في المواقف الحيوية الطبيعية التي تتطلب الحوار والمناقشة، والتخاطب، والاستماع، والقراءة والكتابة، في الاجتماعات والندوات والمناظرات، وغير ذلك من ألوان الثقافة، وفنون المعرفة، وذلك بممارسة القراءة الحرة، وزيارة المكتبات العامة، ومكتبات المدرسة، والفصل، وبما يتاح من فرص الاستماع إلى الأحاديث والمحاضرات، ولذلك كله أثر في تنمية الحصيلة اللغوية، وفي إتقان اللغة- نطقاً وكتابة-.

وتعتبر الإذاعة المدرسية، والمسرح المدرسي، أكثر فاعلية من المقروء مع الحاجة للقراءة في تنمية المحصول اللغوي لدى الفرد، وهذا

المحصول يصب في الصحافة والمجلات، ذلك النثر العلمي، الذي يكتب بأسلوب سهل معبر، معتمدة على الأسلوب العلمي في العرض، وما يتميز به من عذوبة التعبير، تعمل على توسيع آفاق الفرد ومدركاته اللغوية، وتزويده بالثراء اللغوي، كما يخلق المقروء نوعاً من النقد الذاتي، الذي يعبر عنه القارئ بأسلوبه مستخدماً مخزونه اللغوي.

وللإذاعة فوائد قيمة، فهي تقوي شخصية المذيعين، وتدريبهم على حسن الأداء، وجودة الإلقاء، وتعودهم إتقان اللغة، وبقية الأساليب، وتهيئ لهم مواقف حية طبيعية، يستخدمون فيها اللغة استخداماً ناجحاً، فتصقل مواهبهم، وتشحن ميولهم، وتربي فيهم الجرأة، والقدرة على الارتجال، وسرعة الخاطر، واستدعاء المخزون اللغوي، ومن ناحية أخرى تنمي معارفهم، وتدفعهم إلى الاعتماد على أنفسهم فيما يحصلون من شتى المصادر لإعداد ما يقدم للمتلقى..

وللإذاعة المدرسية دور معروف في تنقيف التلاميذ، ونقل المعلومات والخبرات إليهم وتقوية الجرأة الأدبية لديهم، وتطوير قدراتهم الخطابية وصقلها وإيرازها، وتنمية حصيلتهم اللغوية، ويمكن أن يزيد التركيز في الإذاعة المدرسية على جانب اللغة، وعلى إمداد التلاميذ بألفاظ وتراكيب وصيغ جديدة منها، ومما يزيد من فاعليتها في إغناء حصائل التلاميذ اللغوية، تخصيص فترات معينة فيها للخطابة الارتجالية الحرة، والتي ينتهي لها في كل يوم مجموعة من التلاميذ تحت إشراف مدرسهم، مع استغلال المؤثرات الموسيقية وغيرها، وتتوقف لفائدة على الأنشطة المقدمة من خلالها، ومما يزيد ارتباط التلاميذ باللغة، وينمي حصيلتهم اللغوية، إيجاد مكثبات صغيرة إلى جانب مكتبة المدرسة، ويمكن أن يستعين للطلاب بالأجهزة الحديثة لمعرفة اللغة، يقول أحد الباحثين في شؤون اللغة "إن حاسة السمع ينبغي أن ترافقها دائماً حاسة البصر، وينبغي أن يدرّب اللسان بالترابط مع اليد كما

ينبغي ألا تدرس الموضوعات شفوياً، بل توضح بطريقة مرئية، وإن من الحكمة أن يصور على جدران الصف كل موضوع يعالج داخل الصف".

والحقيقة إن استخدام أي وسيلة سمعية أو بصرية، أو أي وسيلة حسية أخرى تساعد على استيعاب المعاني والأفكار، وتجسيد استخدام اللغة، وتناول المفردات اللغوية بشكل حيوي ملموس، أصبح أمراً ضرورياً في الأوساط التربوية الحديثة، كما ينبغي ألا يقتصر استعمال التلاميذ للغة في المدرسة، على إعادة ما يتعلمونه من مدرسيهم أو يقرأونه في كتبهم الدراسية. إن "مدرس اللغات الذي يدرس بطريقة معينة ويطلب من طلابه اتباع أنماط معينة في استجاباتهم لا يحدون عنها، لا يوفر لهم حرية الاكتشاف، ولا الفرص الكافية لمعالجة المشاكل التي قد تواجههم عن طريق استخدام لغتهم".

يرى ديوي أن من الضروري أن نثار في التلميذ غريزة اللغة، وأن تجذب اللغة إلى هذا التلميذ بطريقة اجتماعية ليتحقق اتصاله المستمر بالواقع. إن من المفترض أن يدرك التلميذ في المدرسة إدراكاً تاماً أن للكلمات والتراكيب التي يتعلمها تعد وسائل مهمة للتعبير عن المواقف والمشاعر والمعارف والعلوم التي يتلقاها، وأنه لا جدوى من تعلمها ما لم توظف لذلك، لهذا ينبغي أن يشارك كتابة ونطقاً في الحديث عما تعلمه وعما سيتعلمه على نحو متواصل ليتمكن منها، ويحرز المهارة في استخدامها. يقول "كومينوس" وهو أحد المهتمين بتطوير اللغة: "يجب أن يتعلم طلاب المدرسة الكتابة عن طريق الكلام، وينبغي ألا يهمل تدريس الكلام في خضم التأكيد على القراءة والكتابة..".

إن كل هذه الإجراءات تعد إشارات حيوية للغة، أو وسائل لاجتذاب الطالب إلى اللغة، أو اجتذاب اللغة إليه، وكلها تعمل على تطوير وإنعاش ما

لديه من محصول لفظي. ويجب ألا تغفل أهمية النشاط الديني، فهو ميدان خصب في إثراء اللغة لدى الأفراد، وهو ينمي الإنسان فكرياً ووجدانياً، ويجعل علاقته بالآخرين تقوم على الود والإخاء والمحبة، فيتبادلون التحاور والتخاطب مما يزيد من حركة تداعي الكلمات، واستجماعها، واستخدامها- نطقاً وكتابة-.

من أجل ذلك لا بد أن نهتم بلغتنا القومية، ونعمل على إثرائها، وأن نتعلمها تعليماً دقيقاً فهذا يعيننا على تلاوة القرآن الكريم، ومدارسه، وفهم معانيه، واستيعاب مدلولاته وكذلك للحديث الشريف.

المعاجم:

ليس من شك في أن معاجم اللغة العربية تعد وسيلة من وسائل النهوض باللغة نطقاً وكتابة، وإن كنا نفتقر إلى المعاجم المرحلية، والمعاجم السياقية، ومعاجم الأضداد، والمتراجمات المناسبة لحاجات الناشئة على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم فبعض الناشئة قد يرجع إلى المعجم، لبحث عن معنى كلمة، ربما يجد هذه الكلمة مفسرة بلفظ أو عبارة أكثر غموضاً، وأشد غرابية من الكلمة نفسها، أو يجد مجموعة من الألفاظ المطروحة لتفسير الكلمة التي يبحث عنها.

ويمكن أن تستخدم الشواهد التصويرية، ويقصد بها الصور الفوتوغرافية، والرسوم والخطوط والألوان والرموز، وجميع الأشكال المرئية مظلمة وغير مظلمة، ملونة وغير ملونة، وربما شمل ذلك تنقيط الكلمة ورسمها أيضاً، إذا كان لذلك ارتباط بتجسيد أو تصوير معنى الكلمة- أن تستخدم في المعاجم، وخاصة معاجم الطلاب، والمعاجم المرحلية فيها، كما يمكن أن تستخدم في الكتب الدراسية عامة، وكتب الناشئة في المراحل الأولى والمتوسطة من التعليم بصورة خاصة، بشرط أن تتناسب هذه الشواهد مع أحجام الكتب الدراسية، ومع الموضوعات التي تشتمل عليها.

إن اللغة تنمو وتتسع وتتطور على مر العصور، سواء من حيث قواعد نحوها وصرفها، أو من حيث مفرداتها وتراكيبها وأساليبها، تبعاً لتطور الناطقين بها فكرياً وحضارياً واجتماعياً، وأن مجموعات كبيرة من صيغها وألفاظها تتغير في مدلولاتها ومفاهيمها، نتيجة لعوامل وظروف طبيعية وحضارية مختلفة، وبذلك فإنها تصبح من الضخامة والسعة والتنشعب بحيث لا يستطيع أحد الإحاطة بها، وبكل ما تشتمل عليه من صيغ وتراكيب، وأساليب وكلمات، وبالنسبة للغة العربية، فقد أكد ابن فارس ذلك بقوله: "وما بلغنا أن

أحدًا ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها" ونزه الخليل بن أحمد الفراهيدي، أن يدعي ذلك، مع أن الخليل كان علامة ونابهة عصره في اللغة وعلومها.

إن المعاجم اللغوية هي خزائن اللغة وكنوزها التي يستمد منها الإنسان ما يغني حصيلته اللغوية وينميها، ويجعلها مرنة طيعة في مجالي الأخذ والعطاء: مجال الاستيعاب والفهم، والتوسع الفكري، والنمو العقلي والمعرفي، وفي مجال التعبير والعمل الإبداعي والإنتاج الثقافي، ومن يطلع على معجم: "أساس البلاغة" لمؤلفه: جاز الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) يعرف ما كان للأدب العربي من آثار في تحقيق هذا النماء.

لقد تفنن الإنسان على مر الأزمان في تأليف المعاجم، وتصنيف مفردات اللغة وقد تفرعت أنواع المعاجم، في بعض اللغات المتطورة إلى أنواع جديدة أخرى عديدة وظهرت تصنيفات جديدة للمعجمات، والقواميس اللغوية العامة والخاصة، ميزت بين أنواع عديدة منها، وليس من شك في أن المحصول اللغوي المكتسب من المعاجم عامة، تعتمد في كونها ونوعها على مدى المرونة والسعة في استخدامها بأنواعها المختلفة.

وتعتبر المعاجم المرحلية بمنزلة معجم واحد متدرج، أو قاموس ذي أجزاء متسلسلة متنامية، ففيها تتنقى مجموعة من مفردات اللغة تتناسب مع عمر الناشئ ومستواه الإدراكي والعلمي، وقدراته الاكتسابية، وحاجته في التعبير، ومدى قدرته على البحث، وصبره على التتبع والفحص، وينمو ويتسع مع نمو الناشئ، ونمو قدراته الطبيعية والمكتسبة، واتساع ثقافته.

إن المعجم المرحلي له تأثير فعال في نمو حصيلة الناشئ اللغوية، ولذلك يلقى في العصر الحاضر اهتماماً ملحوظاً من بعض المجتمعات المتقدمة، وهناك معاجم لغوية عربية صغيرة أعدت لتلائم احتياجات

الطلاب في مراحلهم التعليمية الإعدادية والتكميلية مثل المعجم الوجيز - وهناك تضافر جهود من أجل إيجاد معاجم مرحلية للغة العربية كخطوة أساسية لتنمية الناشئة من مفردات لغتهم، فهو مصدر لإغناء الحصيلة اللغوية.

وإذا كنا قد ألمحنا إلى أهمية المعاجم، واستخداماتها للنهوض باللغة العربية، نطقاً وكتابة، فإننا نشير أيضاً إلى أهمية الترجمة في هذا المجال، فالمفكر الكبير محمود أمين العالم، يرى أن لغتنا العربية بحاجة لتطور يواكب التقدم التكنولوجي والثقافات المعاصرة، وذلك عن طريق الترجمة، فهي الحل، لأنه مع التعريب بدلاً من إجهاد أنفسنا في البحث عن لفظ عربي، يقابل اللفظ الأجنبي، والتوسع في حركة الترجمة في التراث الفكري العلمي، والانفتاح على الأفكار العالمية لإثراء لغتنا بالخبرات العلمية، والألفاظ والتراكيب اللغوية الجديدة، وعلى جانب آخر هناك مئات المخطوطات لا نعلم عنها شيئاً، وموجودة في أوروبا، فمثلاً اكتشفنا في الأربعينيات كتاباً للقاضي عبد الجبار، غير رؤيتنا في المذهب الأشعري فما بالنا ببقية المخطوطات؟

إن اللغة العربية هي العنصر الأساسي الذي يجمع العرب في شتى أنحاء الأرض، فهي الحلقة الرئيسية التي تربط جميع الشعوب العربية، حيث إن العربي لا بد أن يكون ناطقاً بالعربية أينما ذهب، ومهما يكن أهله ومولده. وأول من فكر في خدمة اللغة العربية هو المستشرق الألماني "فلوجل" بوضع معجم مفهرس شامل لألفاظ القرآن الكريم، وأسماء "نجوم الفرقان" في أطواف القرآن، وهذا المعجم الكبير طبع ووزع لأول مرة عام ١٨٤٢م. ثم معجم تفسير لغوي لكلمات القرآن، هو معجم لألفاظ القرآن مع ترتيب مواد اللغة بمراعاة ترتيب حروف الهجاء في أوائل المواد وما يليها، كتاب مكون من

٢٨ مجلداً مترتبةً بتسلسل هجائي من حرف الهمزة إلى حرف الياء، وهكذا يكون لكل حرف مجلد خاص، وهذا العمل أحصى ١٧٢٩ مادة لغوية، وجمع ٥٠٣٣ كلمة قرآنية، أما "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، فقد وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، وهذا المعجم لا يستغني عنه أي باحث في اللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

إن الرجوع إلى المعجم للبحث عن معنى كلمة ما، بالإضافة إلى كون أنه يعود الاعتماد على النفس في تنمية الحصيلة اللغوية، فهو أيضاً يعود للبحث والصبر، وينمي حب الاطلاع، ويعمل على ترسيخ معاني الكلمات التي تستخرج في ذهنه لمدد أطول، ومع الحث والتشجيع الدائم، والرجوع المستمر إليه، يصبح استعماله عادة، ويجد لذة في البحث فيه، ومما يزيد من فائدة المعاجم، أن تكون مناهجها مبسطة سهلة - خاصة بالنسبة للناشئة - ويستحسن أن تكون من المعاجم (النطقية) أي التي تصنف فيها المفردات للغوية بحسب نطقها أو المعاجم الهجائية الألفبائية، أي التي تصنف فيها المفردات اللغوية بحسب ترتيب الحروف الهجائية في اللغة، وأن تكون من المعاجم المرحلية، ومما يمكن أن يكون له أثر كبير في اهتمام التلميذ بالمعجم والحرص عليه وعلى الرجوع إليه، والاستفادة منه اقتناء معجم خاص به، وتعرفه على جميع المختصرات والرموز والمصطلحات المعجمية المستخدمة في هذا المعجم.

ولعلنا ندرك صعوبة اللغة، وأنها من اللغات المعقدة، ولا نستطيع إحصاء معانيها، حتى وإن أسعفتنا القواميس والمعاجم، فالقرآن الكريم نزل على العرب بلغتهم التي ينطقون بها - لغة قريش - وفي عهد نقائها وصفائها وفصاحتها، ومع ذلك صعب على بعضهم معرفة معاني ألفاظه وصيغته، فقد روي بدر الدين الزركشي أنه كان ابن عباس - وهو ترجمان القرآن - يقول:

لا أعرف (غسلين) ولا (الرقيم)، ولهذا احتاج الناس إلى من يكشف لهم معاني ومدلولات ألفاظ القرآن وعباراته، حتى أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- سأل عن معنى كلمة (بحور) في قوله تعالى في صورة الانشقاق: "إنه ظن أن لن يحور" الآية ١٤.

وهذا ما دفع علماء اللغة فيما بعد إلى تصنيف كتب خاصة يجمعون فيها ما سمي بغريب القرآن من المفردات، ويفسرونها ويوضحون معانيها، ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم عربي ما نطق إلا بالعربية الفصحى الصافية، فقد غاب على نفر ممن عاصره إدراك معاني بعض ما ورد في أحاديثه وكلامه من مفردات وتراكيب لفظية، الأمر الذي دفع فيما بعد أيضاً إلى تصنيف كتب خاصة تشتمل على ما سمي بغريب الحديث، والتي تتولى شرح وتفسير ما اشتملت عليه بعض الأحاديث، من غريب لل عبارات أو المفردات أو المعاني.

إن الواقع التاريخي والعقلي يشهد باستحالة الإحاطة باللغة، وبكل ما يرتبط بها من مفردات، وصيغ وأساليب، وأن الإحاطة بمفرداتها وتراكيبها، وبكل ما يتصل بها من معان ومدلولات شيء عسير، فالإنسان معرض للنسيان، وإحاطته بكل مفردات اللغة تكاد تكون أمراً مستحيلاً، من أجل تلك كانت المعاجم لحماية اللغة والحفاظ عليها حية نامية متطورة، تحفظ مفردات اللغة القومية، وتتولى تفسيرها وتوضيحها، وتتكفل ببيان صور استعمالها، وتمييز الأصل من الدخيل، والحقيقي من الزائف فيرجع إليها الإنسان ليتروى بما يحتاج إليه من ألفاظ يعبر بها عما تخطر له من أفكار وتبدو له من معان، ويختار منها ما يتلاءم مع مشاعره وأخيلته من صيغ، ويتعرف على ما صعب عليه فهمه من مدلولات، وبذلك يحيي لغته وينعشها، ويبقيها ثابتة حية مع الزمن باستخدامه المستمر السليم لها نطقاً وكتابةً، وبما يبدعه وينتجه فيها

فكره، كما أنه يتخطى حاجز الزمن، ويعيش مع الأجيال الماضية، فيفيد من خبراتها، وما أبدعته قرائح أهلها، وأنتجته عقولهم وقرائحهم.

ومهما كانت سعة المعجم، ومعهما بلغ استيعابه لألفاظ اللغة ومعانيها، لا يمكن أن يحيط بهذا الترخم الهائل من طاقات اللغة، فيستوعب ويوضح جميع المعاني التي يمكن أن تحملها أو توحى بها ألفاظها، ويتتبع جميع مدلولات كلماتها التي تصخب وتتوالد وتتغير مع مرور الزمن دون توقف "إن المعجم عادة يقنع بتسجيل المعاني العامة، مهملًا في أكثر الأحيان تلك الظلال المعنوية الكثيرة التي قد تفيدها الكلمة في السياقات المختلفة للكلام. هذه المعاني الأخرى إنما يتم إدراكها إدراكاً دقيقاً في الكلام المنطوق في المواقف اللغوية الحية".

الحاسب الآلي:

للحاسب الآلي في عصرنا الحاضر دور مهم وفعال في مجال البحث العلمي والإحصاء والفهرسة، وتخزين وتصنيف وتوصيل المعلومات والبيانات على اختلاف أنواعها، ولقد اتسع مجال استخدام الحاسب الآلي في عالمنا الحاضر ليصبح وسيلة للاتصال الاجتماعي لتنظيم وتنسيق كثير من شئون الحياة، وواسطة للتثقيف والتعليم وتنمية المهارات بمختلف أشكالها، ومن بينها المهارات اللغوية، هذا بالإضافة إلى كونه وسيلة للمتعة والتسلية وإزجاء وقت الفراغ. يقول أحد الباحثين "إن هناك تقنيات تربوية متنوعة وفعالة الاستخدام من التعليم عن بعد، ويتوقع أن يتطور كثيراً، وقد تطورت فعلاً هذه الأجهزة لدرجة جعلت البعض يعتقد بأنه أصبح منافساً قوياً للكتاب، وخاصة بعد تطور مرادد المعلومات، وظهور للنشرات والدوريات العلمية والثقافية الإلكترونية.

وأصبحت أجهزة الكمبيوتر تستخدم في جميع المدارس الآن، وأثرها الفعال في تعليم اللغة وتلقين الكلمات يكمن في الطريقة المنهجية التي تعد وتعرض وتستخدم بها البرامج وفي الشكل الحركي الذي تتخذه للغة، وتفاعل الإنسان واستجابته للمثيرات والحوافز السمعية والبصرية التي تصاحب عمليات تعليم اللغة، فتجسد له اللغة في إطار مرئي جميل أو مسموع مؤثر أو هما معاً.

وعلى الرغم مما للحاسب الآلي من دور مهم في عملية للتعليم عامة، ومن أثر وفاعلية كبيرة في تنمية المهارات اللغوية، وإمكانيات واسعة لاستخدامه كوسيلة لإغناء حصيلة الإنسان من مفردات لغته بصورة خاصة، فإن له سلبياته التي لا يمكن تجاهلها.

وهكذا يمكن إدراك ما للاتصال والاحتكاك الاجتماعي المرن المستمر المباشر وغير المباشر، من دور فعال، وأثر إيجابي مهم في إغناء الحصيلة اللغوية، وخاصة إذا توافر التوجيه السديد للفرد، وتهيأت له الفرص والأجواء المناسبة للانفتاح على المجتمع بجميع طبقاته، ومستويات لغته، وتمكن من توثيق الارتباط والاختلاط بالطبقات الاجتماعية ذات المستوى الثقافي واللغوي المتميز، وأتيحت له الفرص الكافية لممارسة المحصول اللغوي المكتسب ممارسة فعلية مستمرة، بحيث يبقى هذا المحصول مرناً فعالاً حاضراً في الذاكرة مهياً للاستخدام.

إن العلم قد أصبح هو المحور الذي تدور حوله كل مظاهر حياة البشرية، وكانت أبرز إنجازات هذا العلم قد تحققت في اكتشاف الطاقة الذرية وغزو الفضاء، واستخدام الحاسوب، ويرى بعض العلماء أن الحاسوب وتصميمه واستخدامه، يتفوق على اكتشاف الطاقة الذرية، وغزو الفضاء، ذلك لأن أواخر القرن الماضي، قد شهدت عصر "المعلوماتية" أو انفجار المعلومات، بحيث أخذت كمية المعلومات في أي ميدان من ميادين البحث والعلم، في الاتساع والتنوع إلى حد يستحيل على العقل البشري أن يستوعبه، يضاف إلى ذلك أن العلم لم يعد جهداً "فردياً" بل سادت فيه روح الفريق وعمله من ناحية ومبدأ تداخل العلوم من ناحية أخرى.

التفاعل الاجتماعي:

الإنسان بطبعه اجتماعي، ويبدأ احتكاكه بغيره من أبناء جنسه منذ المراحل الأولى من حياته، وتظل دائرة اتصاله تتسع شيئاً فشيئاً، مع مرور الزمن وتعدد أغراض الحياة وتعقدتها واتساعها، وعن طريق الاتصال يكتسب لغته الأولى إذا توافر لديه الاستعداد الفطري لاكتسابها.

إن أفراد المجتمع الواحد، كما يقول ابن جني في معرض حديثه عن انتقال لغة العربي الفصحى: "بتجاورهم وتزاورهم، يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه، ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مهم أمره"، وبهذه الملاحظة وهذه المراعاة يكتسب أو ينمي الفرد الناشئ منهم عند اتصاله واختلاطه بهم "سليقته اللغوية" كما يكتسب أو يطور أي عادة في مجتمعه، وتظل اللغة في تطور مادام اتصاله بأفراد مجتمعه مستمراً. ويرتبط المحصول اللغوي للفرد ارتباطاً وثيقاً بنسبة نكاته.

إن الأجهزة والأدوات الحديثة في الاتصال، وسعت من دائرة التخاطب والتواصل يلتقي الإنسان عن طريق هذه الأجهزة بغيره، أو بفئة متميزة من أبناء قومه، ويسمع حوارهم، فيأخذ منهم على قدر إصغائه إليهم، ويقدر ما يمتلك من ذكاء، يقول مصطفى مندور: "يلحظ اللغويون عودة القيادة المؤثرة إلى اللفظ المنطوق، وذلك منذ عرف الإنسان أجهزة الاتصال الصوتي: كالتليفون والراديو وأجهزة الإعلام المماثلة. ومن جديد يقف الإنسان متوجساً أمام الطاقة التي تمتلكها تلك الأجهزة لتحويل أحاسيس الناس، بل ولتحويل مواقفهم السلبية إلى طاقات إيجابية: بانية أو مخربة" ..

وإذا كان لوسائل الإعلام والاتصال عموماً من آثار سلبية في نقل ألفاظ اللغة، وتراكيبها وعباراتها بصورة خاطئة، فلا شك أن هذه الآثار يمكن أن

تكون أشد خطورة بالنسبة للراديو، لذلك كان من الضروري الاهتمام بنوع ما يقدم للجمهور على هذا الجهاز، والتشديد في انتقاء الطاقم البشري الذي يديره، ويعد وينفذ برامجه، ويقدم مواده، والتأكيد على توصيل ما يقدم من خلاله بلغة فصيحة نقية ثرية، وسلسلة عذبة ملائمة للجمهور بجميع مستوياته وطبقاته وأصنافه، ولقد دلت كثير من البحوث الميدانية التي أجريت في عدد من الدول العربية، على أن التلفاز أصبح المصدر الأول للإعلام والثقافة العامة، بإضافة إلى كونه أداة للإمتاع والترفيه، متفوقاً بذلك على وسائل الاتصال الأخرى.

إن اللغة المستخدمة خلال هذه الأجهزة تكون في الغالب مبسطة، وربما كانت عامية فقيرة ضعيفة المستوى.

ورغم وجود سلبيات، فإن من الممكن أن يكون التلفاز والراديو معاً أكثر فاعلية في تنمية المهارات اللغوية لدى الناشئ، إذا أمكن استغلال كل منها بوعي وحرص كأداتين لنشر اللغة القومية، وتنمية حصيلة الناشئة والمتلقين عامة من مفرداتها وصيغها وتراكيبها السليمة المنتقاة، ومما يساعد على تحقيق ذلك - وعلى مستوى العالم العربي بصورة أخص - ملاحظة البرامج التعليمية، والأجنبية، والمسلسلات.

إن للمذيعين، ومعدّي ومقدمي البرامج في المذيعات والتليفزيون دوراً كبيراً في نقل مفردات اللغة، وانتقاء الألفاظ وتقديمها عبر البرامج، وقد يكون لهم دور سلبي إذا لم يتمتع هؤلاء بالكفاءات اللغوية والصوتية والإلقائية اللازمة.

الباب الرابع
وسائل التنمية اللغوية

الفصل الأول

الألعاب اللغوية

تتمية الحصيلة اللغوية في غاية الأهمية إذا أردنا أن ننهض بلغتنا العربية- نطقاً وكتابة- وقد بينت في هذا المؤلف الوسائل التي تكفل للفرد التزود من الحصيلة اللغوية، ونعرض هنا في هذا الفصل بعض الوسائل الأخرى، التي تعمل على إنعاش هذه الحصيلة، وتنشيطها وزيادة حيويتها في التعبير، بالإضافة إلى إغنائها، وخاصة لدى الذين تتوافر لديهم فرص التعليم، ويتهياً لهم الإشراف الواعي المؤهل من لدن الأسرة، فهم الذين سيحملون لواء هذه اللغة في حياتهم الاجتماعية ويستخدمونها في حياتهم اليومية، وفي جميع الميادين والمجالات، وحيث يلتقي إنسان بإنسان، ومن أهم هذه الوسائل ما يأتي:

العلاقات اللفظية: وهي أن تأتي بمجموعة كلمات، ونوضح مرادفاتهما من بين عدد من المفردات، ونختار الصح منها، ويتضح ذلك من خلال المثال الآتي:

معنى "هادئ" .. (أزرق- ساكن- توتر- مائي).. نضع خطأً تحت اللفظ الصحيح/ الناقعات تساوى في المعنى: (الغبير الساطع- الشديدة القاتلة- مكان الماء)..

معنى "ينفصم" .. (ينكشف- يتخلص- ينقطع).. وهكذا ندرّب أنفسنا عن الكلمة ومعناها، وكذلك عن الكلمة وجمعها، مثل:

جمع "دواء" .. (ألوية- دوى- دواءات) نضع خطأً تحت اللفظ الصحيح.

جمع "أريكة" .. (أرائك- أرك- أريكات). نضع خطأً تحت اللفظ الصحيح.

وأيضاً التدريب على الكلمة ومفردها، مثل مفرد أذنان، نيل، ومفرد
الخلل خلة، وهكذا نمرن على المرادفات، والجمع والمفرد.. ومثل ذلك
يكون في التضاد مثل صغير: كبير، قصير: طويل، فهي متنوعة كالتشابه
والتضاد، أو وضع الكلمة في جملة، وعلاقة السببية، وعلاقة الجزء بالكل
مثل: العين: الوجه- الإصبع: اليد.

وهذه الوسيلة من أهم القدرات الخاصة التي تميز بعض الأفراد
الاستعداد في النواحي اللفظية، وهي أساس التعبير اللغوي نطقاً أو كتابة،
ويوجد منطقة خاصة للنطق في المخ مما يؤكد أهمية الاستعداد اللفظي،
بحيث إذا أصيبت هذه المنطقة من المخ، تتأثر القدرة على التعبير اللغوي،
سواء كان ذلك النطق أو التحدث.

وتعتبر جميع الوسائل التي تعتمد على لغة الكلام، أو الكتابة اللفظية
مقياساً للقدرات اللفظية واللغوية.

-طلاقة الكلمات (الطلاقة اللغوية)- ويتضح فيه العامل اللفظي (أي
العلاقات اللفظية في أنه يستدعي القدرة على التفكير في الكلمات بسرعة، كما
في الجنس اللفظي والسجع فإذا كنا قد اخترنا المرادف الصحيح من بين
الأقواس، فإننا نحس أنه مشبع بالعامل اللفظي، وليس عامل الطلاقة، فإذا
طلبنا ثلاثة مرادفات بسرعة لكلمة سهلة، فهذا دليل على الطلاقة اللغوية،
وليس القدرة اللفظية، مثال: اذكر أكبر عدد ممكن من كلمات ذات أربعة
حروف، كل منها تبدأ بالحرف ه.. وهذا يدل على سرعة استحضار
الكلمات أو العبارات بشروط معينة، وفي زمن محدد، كما يعتبر التعبير الحر
مقياساً للقدرة على الطلاقة التعبيرية.

وهناك وسيلة أخرى لتنمية الحصيلة اللغوية، كأن تعطي مجموعة من
الكلمات المبعثرة بغير ترتيب، ونقوم بترتيبها ليتكون منها جملة مفيدة.. مثل:

الهدى- فالكائنات- ولد- ضياء.. فتقول ولد الهدى فالكائنات ضياء.. وكان
نقول الفرج- مفتاح - الصبر.. (الصبر مفتاح الفرج).. وهكذا.

ووسيلة أخرى تعطي فيها مجموعات من للكلمات المتشابهة في
المعنى، أو في صفة، أو في علاقة معينة، ومعها كلمة واحدة مختلفة لباقي
الكلمات، ويطلب تعيينها مثل: أرض- سماء- شمس- قمر.. فالكلمة "أرض"
مخالفة لباقي الكلمات.

وتعتبر قدرات الذاكرة من أهم القدرات اللازمة للشخصية، وقد تبين أن
قدرات الذاكرة تتوقف على الاستعدادات الخاصة بالتذكر، ومعنى ذلك أن
الذاكرة لا تعتمد على الذكاء، فقد نجد شخصاً ذكياً جداً، وضعيف
الذاكرة، والعكس صحيح- كما ثبت أيضاً أن الذاكرة من أكثر القدرات العقلية
تعقيداً.. ويتبين ذلك من الخطوات الرئيسية التي تتوقف عملية التذكر عليها،
وأهمها:

عملية المعرفة الإدراك- عملية الحفظ والوعي- عملية التذكر
والاسترجاع، وكل عملية من هذه العمليات تتوقف على العمليات السابقة لها،
فلا بد للتذكر الجيد من أن يكون الإدراك والمعرفة على درجة كافية من الدقة
وتركيز الانتباه، بحيث يمكن إدراك التفاصيل والجزئيات، ويسهل فهمها
وتذكرها فيما بعد. ويتوقف الحفظ والوعي على قوة الإرادة والرغبة في
الاحتفاظ بالقدرات المدة اللازمة لتذكرها وفي خلال هذه المدة لابد أن نتجنب
تراحم الخبرات اللازمة بحيث لا يحدث للنسيان بسبب إحلال بعض الخبرات
مكان الخبرات السابقة. ويعبر عن ذلك بعملية التعتيل للرجعي "النسيان" أي
أن أحد الخبرات تعطل الاحتفاظ به بخبرة أخرى، ومما يساعد على الحفظ
الجيد إعادة المذاكرة، وتثبيت عملية الإدراك والمعرفة، أي أن عملية التسميع
وتصحيح الأخطاء تساعد على حل مشكلة النسيان، والمعروف أن لشغل

العقل بأمور مهمة أخرى من شأنه أن يؤدي إلى نسيان المواد المراد تذكرها مما يستوجب ضرورة تصفية الذهن من المشاغل الأخرى غير المرتبطة بالمعلومات المراد تذكرها.

وعملية التذكر نفسها تعتبر النتيجة النهائية للخطوات كلها، وبعض الأشخاص ينجحون في الخطوة الأولى والثانية، ولكن يصعب التذكر واسترجاع المعلومات المناسبة في الوقت المناسب، وهذا يتوقف على الحالة العقلية والمزاجية للشخص وقت عملية التذكر ذاتها، ولهذا تتأثر عملية الاسترجاع والتذكر في حالات التعب والانفعالات الشديدة كالخوف والقلق، ويشتد الانتباه وغير ذلك مما يلاحظ في بعض حالات التلاميذ أيام الامتحان بسبب ما يتعرضون له من إرهاق وقلق في أيام الامتحان ذاتها- وهذا ما جعل وزارة التربية والتعليم بصدد إلغاء الامتحانات وجعل التقويم مستمراً طوال العام- حتى يزيل عن الطالب التوتر والقلق الذي كان يشعر به، ويؤثر عليه. وهناك نوعان من الذاكرة بحسب الزمن الذي يمضي بين عملية الإدراك والمعرفة، وعملية التذكر، ولذلك تقسم الذاكرة إلى نوعين:

- الذاكرة المباشرة وهي تذكر للخبرات بعد إدراكها مثل: أن يمر عليها وقت طويل.

- الذاكرة المؤجلة أو غير المباشرة.. وهي تذكر الخبرات بعد مدة كافية من الزمن.

وقد تبين أن الأطفال عندهم ذاكرة قوية في الناحية المباشرة، وأن كبار السن عندهم ذاكرة مؤجلة أقوى من الذاكرة المباشرة.

وتتنوع الذاكرة أيضاً بحسب الحواس التي تعتمد عليها- فهناك الذاكرة البصرية، والذاكرة السمعية والذاكرة الحركية.. وهكذا. كما تختلف الذاكرة بحسب موضوعات التذكر حيث نجد ذاكرة لكل من اللغة ولغيرها.

والمعروف أن الذاكرة ليست قدرة معرفية عقلية فقط، بل إنها أيضاً تتوقف على عوامل أخرى كثيرة أهمها للحالات المزاجية، والظروف الاجتماعية، والشخصية، ويمكن أن نعطي قوائم بعدد من الكلمات تقرأ مرة أو مرتين ثم تعيد تذكرها بعد مدة. أو نقرأ قصة أو عبارة، ونعيد ذكرها كتابة.. وهناك الكثير مما يركز على وسيلة اللغة كتابة، ومعظمها يعتمد على ورقة وقلم، ومن يعمل في وظائف كتابية لا بد أن تكون لديه القدرة على التنظيم والتلخيص، والقدرة على الكمبيوتر ومعرفته والكتابة عليه، والمهارة في استخدامه، والدقة في النقل وإعادة الكتابة، وكذلك الصبر على العمل لمدة طويلة.

وهناك وسيلة أخرى يعتمد فيها الفرد على كتابة أكبر عدد ممكن من المعاني لكل كلمة موجودة في قائمة من الكلمات للشائعة مثل: فصل، رقيق، نفي، رفيع، فمثلاً قد يحمل اللفظ "فصل" معنى للكلمات الآتية: جزء من كتاب، جزء من مسرحية، مجموعة من تلاميذ فرقة دراسية، طرد من عمل.. الخ.

وتعتمد الدرجة على عدد الكلمات المختلفة التي كتبت، وعلى عدد المعاني التي تذكرنا تلك الكلمات، وهكذا، نستطيع أن نحكم على "الطلاقة الفكرية"، وهي سرعة استدعاء الأفكار، بغض النظر عن نوعها..

وأيضاً يسأل للفرد أن يذكر أكبر عدد ممكن من الاستعمالات لعدة أشياء لها عادة وظائف شائعة معروفة مثل:

قلب طوب: يستخدم في البناء (الاستعمال المعروف) تثبيت الباب - ثقالة - صنجة ميزان - للتدفئة.. الخ.

وتعتمد الدرجة على عدد الاستعمالات المختلفة، فإن تنوعها يعبر عن "المرونة التلقائية". أما إذا ذكرت استعمالات نادرة غير معروفة لدى بقية الأفراد، فإن ذلك يعبر عن "الأصالة" ..

ويمكن أن نطلب كتابة أحسن قصة شائقة، وأكثرها إثارة حول موضوعات الساعة، والأحداث المعاصرة، وهذا المستوى متن مستويات التفكير الإبداعي الذي يقوم على نظام مفصل، وتعليمات محددة، تراعي فيها "الأصالة" و"الحساسية" و"البصيرة السيكولوجية"، وغيرها من العوامل. ويعتبر "التخيل الإبداعي" سهولة تنظيم المادة في تصورات وتكوينات جمالية، أي أنه هو العملية العقلية للتعرف على أوجه التجانس بين المواد للدخلة في خبرة الفرد، ثم وضعها في إطار ما يكون تعبيراً مناسباً بطرق واضحة، ويمكن أيضاً سرد بعض الحكم والأمثال العربية، ومحاولة ذكر مثيلاتها أو أن نذكر بعض المواقف والمشاهد، ونسترجع الحكم، أو الأمثال التي تنطبق على هذه المواقف والمشاهد وأمثالهما.. ويمكن كذلك استغلال الكلمات المتقاطعة في تنمية الحصول اللغوي لدى الأفراد، كأن ينظر الفرد إلى المربعات في الشكل المرسوم أمامه، ثم يقوم بتجميع الحروف في الفراغات التي أمامه بحيث يكون كل عدد من المربعات كلمة أو معنى أو تضاد أو تشابه وهكذا.. فهي طريقة معروفة لدى الجميع.

نقف على مجموعة من الكلمات متفرقة أو موضوعة في جمل مفيدة، ونحاول الإتيان بما يماثلها أو يشابهها في المعنى، أو يفسرها من الكلمات أو العبارات عن طريق الاسترجاع أو البحث أو ترى مجموعة من الكلمات متفرقة، أو موضوعة، في جمل تامة، ثم تبحث عن ألفاظ مشابهة لها مثل فول، غول، نور، طور، ثور - جوز، لوز - فرقع، برقع - صلصال، خلخال - مزمار، محفار - بارع، فارع..

وكما أشرنا إلى المسابقات في الإتيان بكلمات مختلفة في أصواتها أو حروفها الأولى، ثم تأتي بكلمات مماثلة لها من حيث بداياتها، فإذا جئت بكلمة مثل "فول" فإنه يستوجب الإتيان بما يماثلها فتقول: فول، فروسية، فلك،

فرح، فراسة، فجوة، فلاة، فذ، فيصل، فسيلة.. وهكذا، ويقابل هذه الوسيلة، وسيلة فيها الكلمات المنتهية بحرف واحد مثل: موز، لوز، جوز- ثور، طور، حور، ويمكن استخدام هذه الوسيلة نطقاً وكتابة، وقد أجريت المسابقات نطقاً على غرار هذه الكلمات المنتهية بحرف واحد وهي ما نسميه بـ "القافية" فيذكر الأول بيتاً من الشعر ينتهي بحرف معين كالعين أو الراء أو السهاء.. وينافسه الآخر في بيت من الشعر على نفس القافية، وهكذا..

وهناك وسائل يرجع فيها الفرد إلى المعاجم مثل كتاب الصحاح للجوهري، ومختار الصحاح للرازي، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، وتاج العروس للزبيدي.. وتلك تتطلب أن يكون الفرد قادراً على استخدام مثل هذه المعاجم.

وقد نلجأ إلى كلمات يتحد فيها حرف يميزها مثل: درع، صدغ، مداعبة، فرقد، زمردة، فالحرف المحدد المشترك هنا هو "الدال".

إن لفائدة من هذه الوسائل هو الربط بين أشكال الكلمات، فهو يساعد على تثبيت الكلمات في الذهن، لأن الذهن كما يتبين من قول العالم اللغوي، فندريس "يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعاً لشكلها الخارجي" فإذا اقترنت هذه الكلمات بمعانيها تضاعفت الفائدة، إلى جانب أن عملية الربط والمقارنة من شأنها أن توسع من آفاق الفرد الذهنية، وقدراته الخيالية، وتعوده على الربط بين الأشياء، وعلى المقارنة بينها.

شيء آخر يمكن استخدامه من مثل ذكر أسماء بعض الحيوانات والطيور وذكر بعض الأصوات المميزة لما نصادفه ونمر به ونسمعه أحياناً مثل زئير الأسد، ونباح صوت الكلب- وشقشقة العصافير، ونهيق للحمار- وتغريد للبلابل- وهدير الماء، وكذلك خريز- ووصوة الكتاكيت- وصوت

البقر خولر- واللغيم ثغاء، والإبل رغاء، والقط مواء، والأقلام صرير،
والسيوف صليل، وحفيف الشجر- وفحيح للأفعى- وصهيل للفرس- وهديل
للحمام- وصوت الطائفة أزيز- وصوت الرعد هزيم- وصوت الغراب
نعيب- وللطي وسوسة، وللقوافل حواء.. وهكذا.

ويمكن التدریب على ألفاظ تدل على السرور أو الغضب أو الفرح أو
الحزن، أو ألفاظ تدل على الخضروات والفواكه أو تتعلق بالماكولات،
والأطعمة العامة، وقد نحتاج للمساعدة، فنستعين بالمعجم الموضوعية مثل:
كتاب "فقه اللغة" للثعالبي، "متخير الألفاظ" لأحمد بن فارس، "جواهر الألفاظ"
لقدامة بن جعفر، كتاب "الألفاظ الكتابية" لعبد الرحمن بن عيسى السهمذاني،
"الإفصاح في فقه اللغة" لحسن يوسف موسى، وعبد الفتاح الصعيدي،
و"الرافد" لأمين ناصر الدين.

ويمكن للتدریب على المعاني والمفردات والتضاد والمفرد والجمع وكل
ما أشرنا إليه حول للكلمات والمفردات بأن نكتب الكلمات في عمودين
مقابلين، ونصل بين ما نريد منه للربط بينه بخط يرسمه، ويمكن استخدام
هذا للتدریب في حالة الربط للموحد، وفي حالة الربط للمزدوج، أو للربط
للمتعدد، فإذا كان الغرض هو الربط بين الكلمات المترادفة مثلاً،
فتوضع للكلمة في مربع، ويرسم مربع آخر مماثل فارغ إلى جانب هذا
المربع وتطلب اختيار الكلمة المرادفة لها من القائمة المعطاة ووضعها فيه،
وهكذا يمكن استخدام هذا للتدریب في الكلمات المترادفة والمتضادة
والمتشابهة.

أما ملء الفراغات، بحيث تعطي مجموعة من الجمل، تتخللها فراغات
تحتاج إلى أن تملأ بكلمات معينة ليستقيم المعنى، على ألا نبدأ بفراغ، وألا
نكثر من الفراغات ويمكن أن تأتي بكلمات يختار منها ما يملأ به الفراغات،

لما عملية الإكمال فتكون في نهاية العبارة المسجلة وتكتب العبارة، على أن يترك جزء منها في آخرها يقوم بكتابتها الفرد.

ولا نغفل أهمية إجراء المسابقات الأدبية، والثقافية التي تعنى باللغة العربية، ويتركبها، وبالأدب شعراً ونثراً وبقضاياه المختلفة، فهذا الاتجاه من خير الوسائل وأقومها في النهضة باللغة كتابة، ومن ثم نطقاً.. حيث تقوم المؤسسات الأدبية، والمراكز الثقافية بحفز المشتركين في هذه المسابقات وتخصيص جوائز مالية وأدبية لتشجيعهم على ارتياد هذا المجال، وليحققوا للغة مكانتها وأصالتها.

هذه الوسائل التي أشرت إلى بعض منها، قادرة على أن تحيي اللغة وتعمل على تطويرها، إذا استخدمت الاستخدام الأمثل، فهي محاولة لإثراء اللغة لدى الفرد ومن ثم لنهضة اللغة نطقاً وكتابة.

ونظراً لأهمية الحاسب الآلي ، وسهولة استخدامه فإنه يمكن الاستعانة به لتنفيذ هذه الوسائل، والنشاطات التي أشرنا إليها، وإن لم يكن كلها، فتعد هذه النشاطات على شكل برامج متعددة المستويات، ومتنوعة الأشكال، ويمكن أن تسجل على أشرطة تسجيل أو الأقراص المدمجة (سي. دي) وهي تستخدم أيضاً في برامج مختبرات اللغة، أو التليفزيون التعليمي، فهي تساعد على النطق للسليم للكلمات، وزيادة فهم معانيها وهي إلى جانب أنها مصدر تعليمي وتكريمي، فإنها تبعث المتعة وتشجع على طلب المزيد وتدفع إلى البحث، وإثبات أو إبراز مهاراته، ومن مميزات هذه النشاطات أنها قد تؤدي فرادى أو جماعات، كما أنها لا تغني عن ممارسة بعض الوسائل أو الإجراءات الأخرى التي تساعد على تثبيت المفردات اللغوية في الذاكرة، وتضاعف من حضور هذه المفردات مع ما ترتبط به من مفاهيم في ذهن الفرد، تساعد على تذكره إياها عند الحاجة إليها، وهذه الاعتمادات تنصب

على إعطاء بعض النصوص الأدبية الجيدة التي تعين على النطق السليم،
ومنها تكتسب المفردات والألفاظ والكلمات الجديدة ويتعرف على معانيها،
ويستطيع الفرد أن يعود نفسه على تلخيص ما يقرأ من نصوص شعرية أو
نثرية، وأن يقيم حوارات ومناقشات ومناظرات بين أفراد مجموعته أو أتباعه
أو أسرته المتقاربين في مستوياتهم العقلية، كما يشجع على التعليق والحديث
شفهياً على ما يقرأ، أو يسمع ممن هم أوسع منه خبرة، ومن خلال ذلك
تنهض لغتنا نطقاً وكتابةً.

الكلمة واللفظ

فرق بعض الباحثين بين "الكلمة" و"اللفظ"، ويمكن الأخذ بالرأي القائل بأن "اللفظ" هو الصيغة الخارجية للكلمة"، فهو يقرب بين مختلف التصورات، وهناك عدد من المشكلات في التفكير وفي المخاطبة، لها صلة وارتباط بمعاني الكلمات، ولعلنا ننظر أولاً فيما نريد من الكلمات أن تؤديه لنا، فنحن نستعمل الكلمات في التفكير وفي المخاطبة على السواء، من أجل الإعراب عن أغراض مختلفة، كأن نصف مثلاً الحقيقة الماثلة خارج أنظارنا وإحساساتنا، وكذلك من أجل توجيه أعمالنا أو أعمال غيرنا توجيهات معينة، ولكي نتمكن من إيلاغ أفكارنا ورغباتنا إلى أناس آخرين، فمن الضروري بوضح الأمر أن يفهم هؤلاء الناس معاني الكلمات التي نستعملها في مخاطبتهم، والقواعد التي يجري بموجبها نظم هذه الكلمات بعضها ببعض، وفهمهم لمعاني الكلمات التي نستعملها يكون أحياناً مضموناً بصورة كافية باستعمالنا كلمات ذات معانٍ مفهومة لدى العموم، وقد نضطر في بعض الأحيان إلى استعمال وسيلة معينة من التفسير، لكي نضمن أن يكون كلامنا مفهوماً، حتى يفهم الناس ما نقول، ويفي بالغرض المقصود منها، ويكون هناك تطابق بين الكلمات، والأمور الواقعية التي نحاول وصفها.

وينجم الخطر من استعمال الكلمات بمعانٍ مبهمّة غير محددة، أو بمعانٍ متقلبة وعادة استعمال الكلمات التي لها معنيان أو أكثر، وليس من السهل التمييز بينها، قد يؤدي إلى كثير من الخطأ، أو استعمال كلمة ليس لها معنى واضح، وإنما لها، في دلالتها، ميل عام في اتجاه معين، ويمكن للتخلص من هذا الغموض أن نرجع إلى تعريف الكلمات في القاموس، والرجوع إلى القاموس كعادة متأصلة عند الوقوع على كلمة جديدة علينا لمعرفة معناها بالضبط، قبل أن ندرجها في عداد مفرداتنا اللغوية عادة مفيدة لأنها تساعفنا

ضد تنامي الكلمات عندنا دون أن يكون لها معان محددة في مفرداتنا اللغوية. ومع أن استعمال تعريف القاموس للكلمات هو وقاء من استعمال كلمات لها معان متحولة ومتباينة، إلا أن ذلك لا يؤدي بالضرورة لأن تكون هذه الكلمات جزءاً نافعاً من عدتنا العقلية التي نستعين بها في التفكير السليم.

وإعطاء للشواهد وسيلة نافعة لإبقاء تفكير الإنسان على اتصال وثيق بالواقع: وثمة خطة سليمة تتبع أثناء القراءة أو الحديث أو التفكير، وهي أن نطالب أنفسنا على سبيل التحدي بأن نأتي بأمثلة معينة تكون شواهد العبارات العامة تزيدها إيضاحاً وتبيانياً، وإلا فالمصطلحات المجردة التي نستعملها قد لا يكون لها معنى عندنا إلى حد أن نتقطع الصلة بسبب ذلك بين تفكيرنا والواقع. فإذا أردنا أن يكون تفكيرنا واضحاً، ونطقنا واضحاً فيما نبلغه للناس، وجب أن تكون لدينا طريقة تحدد بها معاني الكلمات التي نستعملها، فإذا استعملنا كلمة، وكان معناها غير مؤكد، جاز لسائل أن يسألنا تحديد تعريفها، والتعريف عملية يقصد بها توضيح ما نفكر فيه، وإفهام كلامنا للآخرين، ولكن استعمال التعريف واسطة للدلالة على الآراء الخاصة أو التقديرات الفردية لقيم الأشياء يؤدي إلى عكس المقصود، وإلى إفساد الغاية الصحيحة منه.

تعني اللغة العربية من خلال فروعها المختلفة، في جميع مراحل التعليم، بتزويد الطالب بالألفاظ الجديدة، وتنمية حصيلته اللغوية وثروته من المفردات، وبعض الفروع كالخط والإملاء والنحو والنصوص والبلاغة والأدب والنقد، يقوم بهذه المهمة عرضاً من خلال أساليبه المتميزة المنتقاة، ومن التوقف عند كيفية استخراج معاني الكلمات ومدلولاتها من المعجم، وكيف يستخدمه في جميع المواقف، وأصبح هذا المعجم لدى المدرسين غاية في ذاته، وهدفاً يسهرن عليه، يتناولونه بالشرح ويسألون عنه، ويدخلونه في

الاختبار، فسمع دائماً ما معنى كذا؟ وما معنى كذا؟ وكيف تكشف في معجمك عن كذا؟ ويطغى ذلك على الدرس دون معرفة باستعمال القواميس، والاهتمام بها، ولذلك قام الطلاب بحفظ معاني المفردات واستظهارها كما يحفظون مفردات اللغة الأجنبية، ولكن من غير أن تدخل قاموسهم اللغوي، ومن دون التفاعل معها، والتمثل لها، والاهتمام بها والسيطرة عليها، وتظل بعيدة من تفكيرهم وألسنتهم، يدل على ذلك أننا لا نجد أثراً لهذه المفردات في لغة الطلاب وكتاباتهم، لأنها دخلت جافة، فتظل معزولة غريبة، وموضوعات التعبير، خير شاهد على هذه الحقيقة، فالطالب يتناول موضوعاته بصورة تقليدية رتيبة، يكاد يكون أول موضوع يبتدئ به، كأخر موضوع ينتهي إليه، وأن مادة الطالب لا تزيد على بضع مئات من الألفاظ والعبارات العادية، تتكرر في كل مناسبة، وتبدو في كل موضوع من غير تجديد، ولهذا يجب أن تُعتمد الطرائق الصحيحة التي تُدخل هذه الألفاظ في لغة الطلاب، وتفتح أمامهم المجال لاستعمالها.

إن للفظ والمعنى في العربية صنوان، يرتبط أحدهما بالآخر، وأن العربي لم يفصل أحدهما عن صاحبه، بل اهتم بهما معاً، كما يرى ذلك أبو هلال العسكري، والعربية تصل بين اللفظ والمعنى بوشائج القربى، وتهتم بها، بل ربما كان المعنى هو الأشرف فيها، واللفظ موضوع على سمته، وشاهد بصحته، وخادم له، كما يرى ابن جنى ذلك، ويؤكد أن المعنى السامي يحتاج إلى لفظ جيد للتعبير عنه. "فقد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه ككرة لفظ وسوء العبارة عنه"، وهو بذلك يؤكد أن العربي الذي اعتاد الفصاحة والبلاغة رسم للغة طريق قوة أدبها من الناحيتين اللفظية والمعنوية فهذب لفظها لتهديب معناها.

ويعتقد عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" فصلاً يؤكد فيه بالشواهد بطلان كون الفصاحة في اللفظ وينسبها إلى المعنى. ويقول الجاحظ: "كل ضرب من الحديث ضد من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح للإفصاح، والكناية في موضع للكناية، والاسترسال في موضوع الاسترسال وقد قال: لكل مقام مقال"، وبهذا تحتفل للصور بما يتوارد على الخيال، ويرى بعض اللغويين أن العرب عنيت باللفظ أكثر من المعنى، أو عنيت بموسيقى الكلام أكثر من عنيتها بمضمونه، ويعلل لتلك العناية اللفظية بقوله: "إنا في نداننا بهذا الرأي نعزوه إلى الظروف الاجتماعية التي نشأت فيها تلك الآداب من شيوع الأمية بين العرب، واعتمادهم على السمع، والمشافهة، في تلقي النصوص وتدولوها". ودعوى أن اللغة العربية تهتم باللفظ ولا تنظر إلى المعنى إلا قليلاً دعوى زائفة قام للدليل على نقضها، وقد أتى الأستاذ عباس محمود العقاد باللائمة على المستشرقين الذين قالوا إن اللغة العربية تؤمن باللفظ أكثر من المعنى، أمثال جارسيا جوميز وعد حكمهم هذا خطأ نريعاً، وفند مزاعمهم، فاللغة العربية لغة معنى، والصور المحسوسة فيها ترتفع إلى حدود المعاني المجردة، فيستمع العربي إلى التشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة إلا ريثما ينتقل منها إلى المقصود من معناه، فالقمر - عنده بهاء، والزهرة نضارة، والغصن اعتدال ورشاقة، واللطود وقار وسكينة.

وقد كتب الدكتور عثمان أمين، فصلاً كاملاً من كتابه "فلسفة اللغة العربية" يؤكد فيه أن العربية تؤمن بالمعنى، وتختار له اللفظ المناسب، وعلى حد تعبيره: تؤثر الجوانبية على البرانية، والتفكير الواعي يتصوره العرب صادراً عن هذه الجوانبية، أسنان نراهم يعبرون عنه بألفاظ القلب، واللب والحجا، والنهي، أكثر مما يعبرون عنه بألفاظ المخ و الدماغ،

والرأس. ويفرقون بين القرابة والقربى، وإحداهما لحمة الدم والأخرى رابطة الروح.

ومن المترادفات ألفاظ تبدو فيها خاصة لغوية رائعة هي إظهار ألوان المعاني وظلالها وهذه ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية، وتعد من خصائصها التي تتجلى في ألفاظ مترادفة أحيانا، ويسميتها الدكتور عثمان أمين "خاصية التلوين الداخلي" الذي كأنما يرسم للماهية الواحدة بالأطراف والظلال صوراً ذهنية متعددة تغنينا باللفظ الواحد عن عبارات مطولة نحدد بها المعنى المقصود. وتظهر تلك الميزة في كثير من الألفاظ الدالة على الشيء منظورا إليه في مختلف درجاته، وأحواله، ومتفاوت صورته وألوانه، فالظما والصدى والأوام، والهيام، كلمات تدل على العطش، إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته فأنت تعطش إذا أحسست بحاجة إلى الماء، ثم يشد بك العطش فتظماً، ويشد بك الظماً فتصدى، ويشد بك الصدى فتؤوم، ويشد بك الأوام فتهيم، وإذا قلت إن فلانا عطشان فقد أردت إنه بحاجة إلى جرعات من الماء، لا يضيره أن تبطئ عليه، أما إذا قلت إنه هائم فقد علم السمع أن الظماً يرح به حتى كاد يقتل صاحبه، هذا إلى جانب أن في كلمات العربية إجازا يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة، وتلك خصيصة للعربية تفضل بها للغات الأخرى، يقول المستشرق الفرنسي "لويس ماسنيون":

"إنه في حين أن اللغات الهندو أوروبية جعلت للتعبير عن نظام العالم الخارجي، نجد اللغة العربية وكأنها هي لغة التأمل الداخلي، ففيها - بفضل تركيبها الداخلي وطرز الخلوة الذي توحى به - قدرة خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول، ومن هنا كان للعرب الفضل في اكتشاف رموز الجبر، وصيغ الكيمياء، والممسلمات الحسابية".

ومما ذكره المستشرق الفرنسي "كارادوفو" تفرقة العربية بين الكبير الداخلي والكبير الخارجي فالداخلي هو استعداد في النفس، والخارجي ناتج من

أفعال الجوارح، ولاحظ كارادوفو أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها ألفاظ اللغة العربية، ليس من الميسور نقلها في لفظ واحد إلى اللغات الأخرى. وخلص من هذه الملاحظة إلى التنبؤيه بما تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق "مادام أن إحداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة أن تميز بين الحالة النفسية والعادة البدنية التي تطابقها" ..

واللغة العربية في مقدمة اللغات جميعاً تعبيراً ودلالة وتصويراً للمجتمع الذي لهج- ويهـلج- بها، ففي ألفاظها- التي قطعت الأزمان التاريخية المتطاولة- ما يدل على أصل أصحابها وتاريخهم وعقليتهم، فالكتابة والشكل والرسم والبلاغة والفصاحة والدلالة نفسها كلمات مستعارة من حياة العرب الأولى، فالكتابة والشكل بمعنى القيد والرسم: أثر خطو الإبل على الرمل في رسيمها أو سيرها على العموم، والبلاغة: من الوصول إلى غاية المسير، والفصاحة: من اللبـن الفصيح الذي زال رغوـه، والدلالة للقافلة، كالدلالة في الكلام.

ويمكن معرفة أصالة الكلمات من التنوع والتغير الدلالي فإذا التبس علينا أمر كلمة من الكلمات فلم نعلم في ظاهر الأمر أي من ألفاظ العرب الأصيلة، أم من الدخيل عليها، فلدينا هذا المقياس الحاضر نقيس به دلالة الكلمة ونردها إلى حياة العرب، وإلى المعهود من تعبيرها عن معالم تلك الحياة، فلا يطول بنا العناء في الرجوع إلى أصل معقول نظمئن إليه.. ولغة العرب بها أصول وفروع تولدت من طرق عديدة تبعاً للحاجات الاجتماعية النامية كالاشتقاق والقياس والقلب والإبدال وغيرها، وهذا على طبيعة العرب في السخاء اللغوي كما هي عادتهم في سخائهم الطبيعي والمادي، ولذلك ترى ما تعجب له، فقد وضعوا لبعض المعاني أسماء تفوق التصور، فللسيف ألف

اسم، وللأسد خمسمائة، إلى غير ذلك مما يدل على قدرة العرب الفائقة وطواعية لغتهم لهم، علماً بأن تلك الأسماء هي أوصاف لذات المسمى.. فكل اسم فيه صفة لا نجدتها في المسمى الآخر، وهذا دليل على دقة أوصافهم في أداء المعنى.

وتؤدي الصيغ في هذه اللغة دوراً مهماً في المعاني، فأنت تقول: قطع وكسر- بفتح الطاء والسين- فيكون لهما معنى، ثم تضعف العين- الطاء والسين- للدلالة على قوة الفعل فتقول: قطع وكسر، وفرق كبير بين قدر واقتدر، وكسب واكتسب.

وقد حاولت طائفة من العلماء العرب والغربيين الكشف عن دلالة الألفاظ والقوانين التي تحكمها، ونشأ عن ذلك علم الدلالة، وعني بالبحث فيه من الغرب كثير، منهم بريال الفرنسي، ووتني الإنجليزي، وكروس الإيطالي، وفونت الألماني.. وقد بذل هؤلاء وغيرهم من علماء الغرب مجهوداً كبيراً وصلوا بعده إلى دراسات مجدية في هذا العلم على أساس من دراسة الأصوات واللهجات وعلم النفس اللغوي، بيد أن علماء العرب قد أدركوا- قبل الغربيين- مفهوم هذا العلم لما تمتعت به لغتهم من ثراء واسع، وتصرف معنوي لم تحظ به أية لغة في العالم، فهي تقف على رأس اللغات التي تمتاز بالدلالة وأثرها فيها، فليس من المبالغة أن يقال: "إن هذا البحث يجمع بين أغراض التاريخ وأغراض للبيان، وأغراض للدراسة النفسية والاجتماعية"، والدلالة هي قوام اللغة، ووظيفتها ومقياس كفايتها وارتقائها عند المقارنة بين اللغات. ويثبت تاريخ الدراسة اللغوية أن علماء العرب تناولوا موضوع الدلالة التي "بلغوا من بحث مشكلاتها وقضاياها ما لم يبلغه علماء اللغات الأخرى في العصور الحديثة".. وروادهم الأوائل- الذين جمعوا اللغة في رسائل خاصة استمرت في التدرج حتى وصلت إلى صورتها المثلى في

المعجمات- هم الذين أرسوا دعائم هذا الفن في اللغة العربية، فالمعجمات تبحث الكلمات وتذكر معانيها، غير أنه يؤخذ على جامعيتها أنهم لم يبينوا تاريخ التغيرات اللغوية المعنوية وسابقتها ولاحقها اللهم إلا كتاب "مقاييس اللغة" لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) فهو "مثل رائع للمعجمات التي تعني بمعاني الألفاظ، ومحاولة الربط بينها، وإعادتها إلى أصول قليلة تفرعت عنها، وقد وفق في ذلك إلى حد بعيد" ..

ومع هذا فالتسلسل التاريخي لا نحتاج إليه كثيراً في وضع معجماتنا الحديثة، لأن هذا التسلسل ضروري في اللغات التي يكثر فيها إهمال استعمال الكلمة في معنى وسيورتها في معنى آخر، ولكنه لا يبلغ هذا المبلغ من الضرورة حين توجد الكلمة مستعملة في جميع معانيها على السواء، أو على درجات متفاوتة.

وقد ألف أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي كتابه المسمى "الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية" وهو مؤلف بارع في هذه الناحية، فقد عالج فيه مؤلفه عدداً من الألفاظ الإسلامية، ودرسها دراسة تطورية تاريخية، وتتبع معانيها من العصر الجاهلي حتى العصر الإسلامي. وعقد أحمد بن فارس- في كتابه "الصاحبي" فصلاً بعنوان: "باب القول في حاجة أهل العلم إلى معرفة اللغة العربية" أوجب فيه العلم بالعربية على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا، حتى لا يخطئ في الأحكام، فلقد غلط أبو بكر بن داود أبا عبد الله محمد بن أدريس الشافعي في كلمات ذكر أنه أخطأ فيها طريق اللغة، وعقد أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) في كتابه "الخصائص" فصلاً بعنوان: "باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية" طلب فيه من علماء الشريعة أن يفهموا الألفاظ العربية واستعمالاتها، وأن يعرفوا مجازاتها، لأن الجهل بها يؤدي إلى ضلال بعيد، وضرب أمثلة للجهل باللغة

الذي أوقع بعض المفسرين في الخطأ من تأويل بعض الآيات والأحاديث الشريفة.

وإن روعة اللغة العربية، ودقة الدراسة التي حظيت بها عند علمائنا كانت الأسس التي اعتمد عليها دارسو اللغات الإنسانية قديماً وحديثاً، بما يؤكد أن ما يحاوله المستشرقون - وغيرهم - من نسبة النظريات اللغوية إليهم، أمر يحتاج إلى مراجعة وتريث، فإن معظم هذه النظريات مستمدة من أصول عربية سبقت ما قالوه بقرون عديدة - هذا وغيره كثير - يدل على قوة اللغة العربية، وصلاحيتها للتعبير عن المعاني والمصطلحات العلمية الجديدة في العلوم والفنون ويكشف أسرار نموها وسعتها.

جماليات اللغة:

ما أيسر على الإنسان أن يقف أمام الشيء فيقول: "الله ما أجمله"، يقول ذلك عن السماء لمعت أنجمها في الليلة الظلماء، ويقوله عن البحر اصطخب فيه الماء أو سكن، وعن الشمس مشرفة وغاربه، وعن الجبل والزهر. ثم يقول عن فائنات النساء وعن روائع الأدب، وبراعة الفن، وعن ألوف الألوف من مخلوقات الله، وعن مصنوعات الإنسان. نعم ما أيسر على الإنسان أن يقول عن هذه الأشياء كلها إنها "جميلة" تروعه بفتنتها، حتى إذا عن له- كما يعن للفلاسفة أحياناً- أن يسأل نفسه ماذا يكون في الشيء عندما يكون الشيء جميلاً؟ فعندئذ تراه في حيرة، ولا يدري من حقيقة الأمر شيئاً، إلا أن يطيل الوقوف، ويطيل التحليل، فما هو باليسير عليه ولا على الفلاسفة أنفسهم، أن يقع أو يقعوا على الصفة التي لا بد من توافرها في هذه الألوف من مختلف الأشياء التي يقال إنها جميلة، إذن ما دمنا نطلق هذه الكلمة الواحدة لتصف هذه الأشياء كلها بالجمال، فلا بد أن يقابل تلك الكلمة الواحدة جانب واحد مشترك يدخل في طبيعة كل ما هو جميل، السماء البحر، والشمس والجبل والزهر، والغادة الفاتنة، ولوحة المصور، وقصيدة الشاعر وكان أول ما لفت أنظار المتحاورين في هذه الحالة، هو ضرورة أن تكون هنالك حقيقة واحدة هي التي نراها متمثلة في هذه الأمثلة الكثيرة من الأشياء الجميلة، فمهما تعددت هذه الأشياء، فهي جميعها تشارك في فكرة واحدة، أو في صفة واحدة، كأفراد الأسرة ينتمون جميعاً- على اختلاف أفرادهم- إلى أم واحدة فالفرس الجميلة، والقيثارة الجميلة، والإنسان الجميل، كلها- على بعد ما بينها من اختلاف- تنتمي إلى أسرة واحدة، هي أسرة "الجمال"، فهل يكون ذلك إلا أن تكون هذه الأشياء كلها مجسدة لفكرة واحدة، وإن اختلفت المادة المجسدة في كل حالة.

ولكن هل يكون معنى ذلك أن هذه الأشياء الجميلة كلها على درجة سواء من الجمال، ما دامت كلها تجسد فكرة بعينها؟ كلا، فنظرة سريعة تكفي للدلالة على أن الجمال فيها درجات تتفاوت بتفاوتها في قسطها من الحقيقة التي تجسدها، فما من شك في أن الفتاة الجميلة، والفرس الجميلة، لا تقاس إليها للقنثارة والإناء في جمالهما، وعلى ذلك فأجمل الفردة قبيح إذا قورن بالإنسان، وكذلك أجمل الأواني قبيح إذا قورن بفتاة جميلة..

ترى ما هو ذلك الشيء الذي تسهم فيه الأشياء الجميلة بأنصبة متفاوتة ليكون مرد الأمر إلى نفاسه للمادة التي هي قوام الشيء الجميل، وعندئذ يكون ما صنع من ذهب "أجمل" مما صنع من نحاس أو من خشب أو من حجر.. كلا، فنظرة سريعة أخرى يتبين أن حجر التمثال قد يكون أجمل من أي شيء آخر صنع من الذهب. إن نفاسه المادة لا شأن لها بجمال الشيء للمصنوع منها، إذن ليكون مرجع الجمال إلى ملائمة المادة لما أريد منها أن تؤديه؟ وبهذا تكون كل مادة جميلة إذا ما وضعت في موضعها الصحيح، فالذهب صحيح في موضعه الملائم فهو "جميل"، كما أن الحجر "جميل" في موضعه الملائم.. وهكذا، ولو كان الأمر كذلك وكفى لكان جمال الشيء ليس نابعا من طبيعته، بل كان جماله مرهونا بما ليس منه، كما تكسو الرجل بثياب جميلة. ثم تقول هاهو ذا قد أصبح رجلا جميلا ما دام محوطا بمحيط جميل، إن حقيقة الجمال لا تكمل إلا إذا كان للجميل جميلا مخبرا ومظهرا في آن معا.

نقول تلك لنندل على كيفية استعمال للغة، عند النطق بها أو كتابتها، فاستخدام للكلمة يجب أن تكون في موضعها، وأن تكون ملائمة لوضعها، وأن تكون منتقاة خالية من العيوب التي تسقطها، سليمة صحيحة، وهنا يشعر بها ناطقها أو كاتبها، ويحس بالثقة في ذاته، وبشخصيته، وأثره في

الآخرين.. ويأخذنا هذا إلى أن نسأل أنفسنا: أيكون جمال الشيء كأننا في نفعه، وعندئذ يكون الجميل هو النافع، والنافع هو الجميل.. قائلين الجميلة لا تكون عمياء، أي أنه إذا ما عجزت العين عن أداء ما جاءت لتؤديه، استحال عليها في الوقت نفسه أن توصف بالجمال، وكذلك قل: إن الجسم الجميل، هو الجسم الخفيف الحركة، القوي القادر.. وكذلك الكلمة يجب أن تكون نافعة، رشيقة، خفيفة، تؤدي غرضها، وتحقق ما تريد تحقيقه نطقاً وكتابة والكلمة في مجملها هي كل ما أشرنا إليه، حتى نشعرنا بالأداء الصحيح، والغرض المطلوب فماذا يكون في الكلمة الجميلة، إلا أن تكون هي التي توافرت فيها الصفات المطلوبة من صحة ودلالة، وقوة ومعنى، وحسن أدائها لوظيفتها، وتأديتها إلى الغاية منها. فجمال الكلمة في نفعها، وملاءمتها لوظيفتها، وقدرتها على شحن المعنى. ولكي تكون الكلمة جميلة، لابد من شرط مهم أيضاً، وهو أن تكون الكلمة في استخدامها قادرة على توصيل المعلومة المراد توصيلها ونقلها إلى المتلقي، عندئذ تستحق أن توصف بالجمال.

ويجب ألا نتجاهل عنصراً مهماً في استخدام الكلمة الجميلة، وهو المتعة الحسية التي يستمتع بها المتلقي، وكذلك صاحب الكلمة، فهو يشعر بحالة من الزهو في الموقف الذي يتحدث فيه، أو يكتبه، وإلا فهل يجوز أن أتجاهل استمتاع الأذن "بالصوت" وفي الموسيقى، والعين باللون في التصوير؟ هل يجوز أن أغض النظر عن متعة "الحواس" بالشعر المنظوم، وبالقصص يروي فيفتن؟

ولننظر إلى أبي العلاء المعري، في قصيدته:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح - باك ولا ترنم شاد

كيف أتذوقها؟ .. نبدأ بالمركب الصوتي الذي نتلقاه الأذن من تلاوة القصيدة بصوت مسموع، فأنصت إلى كل نبرة صوتية، تأتينا من كل حرف

منطوق- وهنا أهمية النبر- حتى نملأ السمع بالنبا الصوتي كله، كيف تتشابك نبراته على تأليف مركب موسيقي واحد، حتى إذا فرغنا من هذه المرحلة الحسية، كنا بمثابة من جاوز عتبة الدار لا ليقف عندها، بل ليوغل صاعداً في طبقاتها العليا، وهنا نصعد من مستوى "المعقول" أعني أن نحاول إدراك الفكرة التي جاءت هذه القصيدة لتجسدها، فكأنما هذه القصيدة أداة من أدوات كثيرة غيرها، مهمتها أن توصلنا إلى إدراك فكرة بعينها.

وأحسب أن الفكرة التي نصل إليها وراء السطح الصوتي في هذه القصيدة، هي حيادية الحقيقة الكونية الكبرى حيال عواطف الإنسان على اختلافها، فبكاء الباكي، وترنيم الشادي، كلاهما عند الحقيقة الكونية- وإن شئت فقل عند العلم الطبيعي- موجات من الصوت، تقاس أطوالها، وترسم مساراتها، وتحسب سرعاتها، وإما أن يكون بعضها متبطناً بحزن، وبعضها الآخر متبطناً بسرور، فذلك شيء يرد في حياة الإنسان الخاصة، ولا يرد في الحقيقة الكونية الموضوعية الخارجية التي في خضمها تتطمس معالم الأفراد، وإن القصة لتؤكد هذه الفكرة في صور متلاحقة، فصوت النعي، وصوت البشير، في قوله: "وشبيه صوت النعي بصوت البشير.. " فكلاهما "صوت" لا أكثر ولا أقل، وهديل الحمامة على غصنها "صوت" .. أبكت تلك الحمامة أم غنت .. وربما سمعت أنت هذا الصوت فخلعت عليه من عندك بطانة عاطفية، فتقول: إنه بكاء، أو إنه غناء.. وأما عند الحقيقة الكونية، فلا هو هذا، ولا ذلك، ولكنه "صوت" وكفى، والصوت من ظواهر الطبيعة التي يضبط العلم قوانينها.

وصلنا إذاً إلي مستوى "فكري" بعد المستوى "الحسي" في نظرنا لقصيدة أبي العلاء.. ثم نمضي في الطريق نفسها، فلا نترك الفكرة التي بلغناها متوحدة. معزولة كأنما هي صخرة في فلاة، بل ننظر في صلاتها

بغيرها من الأفكار، صاعدين من تخصيص إلى تعميم، حتى نبلغ آخر الشوط وهو دائماً حالة الكمال التي يسعى إليها الكون بكل ما فيه من متناقضات ظاهرة، ومن جزئيات ماضية عابرة.

إننا بهذا الصعود من المستوى الحسي أولاً، إلى المستوى العقلي ثانياً، ثم إلى المستوى الخلفي ثالثاً، نكون قد اعتصرنا كل ما نستطيع أن نعتصره من جمال في الشيء الجليل الذي ننظر إليه نظرة متفوقة عميقة، نهتدي فيها بالفكرة عن حقيقة الجمال.

وإني لأعلم أنني بمحاولة التطبيق، ربما أكون قد بعدت قليلاً أو كثيراً عن الواقع، لكن شفيعي في ذلك هو أن أزيد القدرة على تنوق الجمال في الكلمة عند المتلقي، إلى جانب الزيادة من الحصيلة اللغوية، بمفرداتها، وتراكيبها، وصيغها..

إن النص الأدبي يمثل لوناً من ألوان التعبير اللغوي الذي يهدف إلى تحقيق اتصال لغوي ناجح لا يقتصر على ذلك اللون الذي تنتقل فيه الأفكار إلى الآخرين، ولكن يتعدى ذلك إلى تحقيق اتصال فيه المتعة لكل من المرسل والمستقبل، وفيه الشعور باللذة، والإحساس بالجمال عند المتلقي. وهو لون من ألوان الأدب ينعكس على المتلقي في صياغة من التعبير الجميل، تتوفر فيها كل أسباب الصنعة والجمال الفني، ذلك أن الأدب من شعر يعرضه الأديب في صورة نابضة بحيوية الكلمة، متدفقة بالمشاعر والإحساس والوجدان، إنه ذلك الفن اللغوي الذي يعرض صورة الحياة، واقعها وفنّها، جمالها وبهجتها، عواطف أفرادها ومشاعرهم في تعبير فني، يرقى فكراً، أو يعلو أسلوباً ويسمو معنى.. واللغة ليست في جانبها للوظيفي مقصورة على الجانب العقلي في التعبير، فهناك الجانب الآخر من وظيفة اللغة الذي يرتبط بتقديم الخبرة الإنسانية في صورة نقيّة مهذبة.

إن فهمنا لقصييدة- كالقصييدة التي مرت بنا- لا يعتمد على مجرد فهمنا للمعاني العادية للمفردات فحسب، بل على فهمنا حياة المجتمع بأسره كما تعكسها أو توحي بها تلك المفردات أيضاً، وحتى أشكال الإدراك البسيطة نسبياً تظل تحت رحمة الأنماط الاجتماعية أكثر كثيراً مما نعتقد.. فنحن لا نرى أو نسمع أو نمر بالتجارب المختلفة بالطريقة التي تفعلها إلا أن العادات اللغوية لمجتمعنا تفرض علينا مسبقاً خيارات معينة لتأويل معنى ما نرى وما نسمع وما نمر به. وهذا يعني، بشكل مبسط، أننا نرى الكون من خلال لغتنا، ولا نستطيع إلا أن نفعل ذلك، وقد أعطي "سابير" وغيره أمثلة عديدة على ذلك، ولكن هل يعني أن فكر فرد من أفراد مجتمع ما ينحصر فيما هو متوفر في لغته فقط، وأنه يظل أسيراً لها لا يستطيع من أسرها فكاًكاً؟ ف "ورف" طور ما أعطاه "سابير" في نظريته بحيث تشمل لا مفردات اللغة فحسب، بل وأبنيتها الصرفية والنحوية أيضاً، فقواعد اللغة تحمل الفكر أيضاً، يقول "ليست أنظمة اللغة، أي قواعدها، مجرد أداة للتعبير عن الأفكار، بل هي في الواقع تكون وتشكل تلك الأفكار، وهي البرنامج والدليل لنشاط الفرد الفكري، وتحليله للانطباعات التي يحصل عليها، ولتجميع أفكاره، فليست عملية صياغة الأفكار عملية مستقلة.. بل جزء من قواعد لغوية معينة، وهذه تختلف قليلاً أو كثيراً بحسب اختلاف القواعد اللغوية.

إننا نقسم الطبيعة على هدى الخطوط التي ترسمها لنا لغاتنا.. إن مشاهدتنا الوقائع المحسوسة نفسها لا تقودنا إلى تكوين نفس الصورة عن الكون إلا إذا كانت خلفياتنا اللغوية واحدة"، فالفكر هو الذي يشكل اللغة، وأن كل لغة قادرة على التعبير عن الفكر بمختلف أشكاله، وأن اختلفت طريقة التعبير من لغة إلى أخرى، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمكن ترجمة الفكر، أو نقله من مجتمع إلى آخر، ومن عصر إلى آخر، ويمكن القول بأن الفكر واللغة هما أهم عنصرين من عناصر الحضارة الإنسانية، وأن كلاً منهما

مرتبب بالأخر ارتباطاً وثيقاً بحيث يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به تأثراً كبيراً.

ولما كانت اللغة هي أهم عنصر من عناصر الحضارة، وهي الوسيلة الرئيسية التي يتعامل بها أفراد كل مجتمع، فإنها تتأثر بجوانب عديدة من تلك الحضارة، وتصبح سجلاً لها، وتفرض على الفرد أن يراعي عند استخدامها جميع تلك الأمور الحضارية التي تكون قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تفكير كل عضو من أعضاء مجتمع معين، بل جزءاً من شخصيته العلمية التي يتشابه بها مع غيره من الأعضاء، على الرغم من احتفاظه بشخصيته.

الفصل الثاني

أسرار اللغة

إن قضية اللغة لا تكمن في المادة التدريسية فحسب، ولا في المدرس فحسب، ولا في طريقة التدريس فحسب، ولا في الطالب فحسب، ولا في ظروف التعليم فحسب، ولا في اللغة نفسها فحسب، ولا في المحيط الاجتماعي الذي تجرى فيه العملية التعليمية فحسب، ولكنها نتيجة لوضع تترايط فيه هذه العوامل جميعها، وتتشابك تشابكاً شديداً لا يمكن فكه بالنظر في الأمور الحسية للظاهرة فقط، بل إن ذلك يستدعي سبر الأغوار، سواء أكانت أغوار اللغة نفسها، أم أغوار العقل البشري، أم النفس الإنسانية، أم العمليات العقلية والنفسية المختلفة، أم أغوار المجتمع الإنساني الذي تجرى فيه عمليتا التعلم والتعليم..

فلا بد إذن أن ننظر في اللغة ذاتها، وأن نعرف شيئاً عنها، لا على أنها مادة علمية تعليمية فحسب، كما لا يجوز النظر إليها كما لو كانت واحدة من العدد الكبير من العادات التي يكتسبها الطفل والحدث في سنوات أعمارهم المختلفة.

لا بد من النظر إليها على أنها شيء مختلف تماماً عن المواد العلمية التعليمية الأخرى وعلى أنها أكثر تعقيداً بمراحل من هذه المواد، فاللغة من ناحية هي الوسيلة الأساسية الأولى للتواصل والتفاهم بين البشر، وهي وعاء الفكر، والصفة الأساسية التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى، ووجه الاختلاف بين لغة البشر ووسائل التفاهم عند الحيوان ليس اختلافاً عددياً، بمعنى أن يكون عدد الأصوات التي تتكون منها، أو عدد المفردات فيها يزيد عما لدى الحيوان، بل إن الاختلاف نوعي وجذري يتعلق بكنه اللغة

ذاتها، كما يتعلق بالأنظمة التي تتألف منها، وبالطريقة التي يتفاعل كل نظام منها مع سائر الأنظمة الأخرى، وبالحصيلة النهائية التي تنتج عن ذلك التفاعل.

إن اللغات التي يكتسبها جميع الأطفال في العالم دون عناء كبير، هي ذاتها التي أمضى لغويو العالم القرون الطويلة في دراستها وتحليلها، وفي محاولة التوصل إلى آلية عملها دون نجاح كبير، وهامهم يواصلون محاولاتهم، ويخرجون علينا، كل بضع سنوات بنظرية أو نظريات جديدة، يبغون من ورائها أن يسبروا أغوار ذلك النظام المعقد الذي تتطوي عليه كل لغة من لغات الأرض، ويعتقدون أنهم قد وجدوا الجواب للشافى على تساؤلاتهم، وعلى انبهارهم بهذه الظاهرة للمعجزة. ثم ما يلبث غيرهم أن يكتشفوا نقاط ضعف رئيسية في تلك النظريات، فيقومون بتعديلها، أو يقوضون أركانها تقويضاً كاملاً، ويتأتون بمنهج مختلف يعتقدون أنه أفضل من غيره للتعامل مع تلك الظاهرة ويمضون السنوات الطوال في تطوير ذلك المنهج الجديد إلى أن يخرجوا بنظرية جديدة تعيش ربحاً من الزمان، يطول أو يقصر، ثم ما يلبث غيرهم أن يفعلوا ما فعلوه.

لقد التفت معظم لغويي العالم، منذ بدلية للغة البشرية كما نعرفها، إلى الشكل الظاهري للغة، وبنلوا جهوداً جبارة في وصف أنظمتها للمختلفة في محاولة للتوصل إلى معرفة طبيعتها. ذلك أن للمرء لا يستطيع للتعامل مع مادة لا يعرف العناصر التي تتألف منها، صحيح أننا نأخذ لغتنا القومية كشيء مسلم به، ونستخدمها أفضل استخدام، إلا أن استخدمنا للغتنا القومية شيء، ومحاولة تعليمها لمن لا يعرفها شيء آخر، فإذا أردنا أن نفعل هذا فعلينا أولاً وقبل كل شيء أن نفهم مقومات هذه المادة. فهل اللغة مادة؟ هي كذلك في أحد مظاهرها، إذا تسامحنا واعتبرنا الصوت الصادر عن الجهاز

الصوتي الإنساني مادة- فاللغة في الأساس، وعند كافة شعوب الأرض، مجموعة من الأصوات، وهذه الأصوات، وإن كانت المظهر الأخير والظاهر من مظاهر اللغة، إلا أنها اللبنة الأولى التي تتكون منها الوحدات الكبرى، كالكلمات والجمل، ولقد قدم لنا اللغويون في كثير من البلدان المختلفة، بمن فيهم اللغويون العرب، خدمات جليلة جداً في حصر الأصوات التي تتألف منها اللغات المختلفة، بل إن بعضهم قدم لنا وصفاً شاملاً لكافة الأصوات التي تستخدمها جميع لغات العالم، وقاموا بدراسة تلك الأصوات دراسة تفصيلية، وخصوصاً ما يتعلق بطريقة نطقها، وبالمميزات التي تفرق بين كل منها وسائر الأصوات الأخرى. وبالقواعد التي تحكم اتصال تلك الأصوات المنفردة بعضها ببعض، وبما يمكن أن يحدث لكل منها، عندما تتم عملية الاتصال هذه، إلى آخر تلك الدراسات التي أثرت معرفتنا بطبيعة هذا النظام الصوتي أثراً كبيراً.

وبما أن الأصوات المنفردة بذاتها، خلافاً لطريقة التواصل بين الحيوان، لا تعني شيئاً في لغات البشر، فقد كان لزاماً على الباحثين أن ينظروا في كيفية اتصال هذه الأصوات بعضها ببعض، بحيث تكون جذور الكلمات، ثم ما يطرأ على تلك الجذور من تغيرات ذلك أن الكلمة في لغات البشر هي أصغر وحدة أسبغ عليها المجتمع دلالة أو معنى. ولذلك فلقد كان من الطبيعي أن ينشغل علماء اللغة بمن فيهم من اقتص بصناعة المعاجم، بدراسة هذه الوحدة من جوانبها المتعددة كالأصوات التي تتألف منها الجذور، والطرائق المختلفة التي يتم بها تأليف الكلمات في لغة معينة، لكي تصبح قادرة، لا على حمل الدلالات والمعاني المختلفة فحسب، بل على التصرف والتبديل أيضاً إزاء ما يواكبها من الكلمات الأخرى في الجملة، كما أننا لا بد أن نعرف تلك الطرائق معرفة تامة لكي نتمكن من الاستمرار في خلق الكلمات الجديدة التي

لابد من أن نحتاج إليها مع التطورات المختلفة التي طرأت وستظل تطرأ على حياتنا في مجتمعنا الصغير، وتأثراً بما يحصل في العالم الكبير أيضاً. إن البحث في الكلمة من جوانبها المختلفة، تأخذنا إلى نهضة اللغة نطقاً وكتابة.

وبطبيعة الحال فإننا لا نتكلم بمفردات للغة منفصلة، كما يفعل الطفل، في أول عهده باللغة، بل إن المفردات ينتظم بعضها مع بعض بموجب قواعد معينة- بعضها عام ومشترك بين لغات الأرض كافة، وبعض آخر خاص بكل لغة على انفراد- لكي تكون وحدة مهمة أخرى، هي الجملة- التي يعتبرها الكثيرون وحدة التواصل الرئيسية- وهذه للقواعد هي ما نطلق عليها اسم النظام النحوي، وهي قواعد في غاية التعقيد، أفنى اللغويون أعمارهم، ومازلوا، في محاولة للتوصل إلى معرفة جوانبها المختلفة.

ولابد من النظر في دلالات المفردات، ومعاني الجمل واستخداماتها المختلفة، وهذا يتطلب جهداً كبيراً، وعلى أية حال فاللغة أداة للتعامل والتواصل الفعلي بين البشر على اختلاف أنواعهم وأعمارهم وشخصياتهم وأوضاعهم الاجتماعية، لذلك فإن من الطبيعي أن تختلف وظائف اللغة بين موقف وآخر، وبين موضوع وآخر، وبين مكان وآخر، وزمان وآخر، وإنسان وآخر، كما لابد من أن تكون هناك قواعد وأصول تضبط الاستخدامات المختلفة بين أفراد المجتمع، وإلا انقلب التواصل إلى فوضى أو إلى سوء تفاهم متواصل. كما لابد أن تحكم تلك القواعد أو الضوابط ما يمكن أن يقال، وما لا يجوز أن يقال، وأن تحكم أصول التخاطب بين الأفراد المختلفين سناً، ومركزاً اجتماعياً، وعلاقة اجتماعية، وعلاقة عاطفية، إلى غير ذلك من العوامل المتوفرة في كل مجتمع، ومن الطبيعي أن تكون بعض

تلك الضوابط مشتركة بين مجتمعات مختلفة، إلا أن كثيراً منها، بل ومعظمها في حالات كثيرة، يختص بمجتمع معين، ويختلف اختلافاً كبيراً أو قليلاً من مجتمع لآخر.

اللغة في زمانها الجميل:

ولا بد من العودة للغة في زمانها الجميل، حيث كانت للكلمة رصانتها، ولللفظ معناه، وصارت العبارة سيلاً هادراً على الألسنة، تعيها العقول، وتفتن لها القلوب، وتتداول بين الناس في سهولة ويسر، حتى أصبح للكلمة معارض يؤمها جميع المحبين، وأصبحت في الأسواق تردد على الألسنة ويتبارى بها، فسوق عكاظ والمربد والمجن قد شهدوا المباريات اللغوية بين عمالقة اللغة بالسليقة والفطرة، ونحن نشعر بالوجل عندما نعود لهذا القديم، الجديد من كل عصر، نشعر وكأننا أمام مارد لا نستطيع قهره، ذلك لأنه لم تكن لدينا الجرأة في اقتحامه، ولأننا توهمنا أنه صعب عسير فاستصعبناه، ولو كانت لدينا مفاتيح اللغة لاقتحمناه في يسر وسهولة، ولو وجدنا فيه بغيتنا، ولأصبحنا نتداوله كما كان القدماء يتداولونه، بل لأمكننا أن نضيف إليه ما قد نحتاجه - كما قال الدكتور طه حسين - عن اللغة بأنها يسر لا عسر، ونحن نملكها كما كان القدماء يملكونها، ولنا أن نضيف إليها ما لم يكن مستعملاً في العصر القديم.

من أجل ذلك آثرت أن أضم لهذا الكتاب نماذج من الشعر القديم، في صور كلية ولوحات متكاملة، لأبين للقارئ أن هذه اللغة بجمالياتها وفنونها، كانت مستعملة في العصر القديم، استعملنا للعامية اليوم، فكيف لا نربي أبنائنا على تنوق اللغة الأصيلة، والكشف عما فيها من صور وعمق، وإثراء لغوي، لنا أن نستفيد منه لو أردنا ذلك، ولو هيأنا أنفسنا على تقبله، واستخدامه في حياتنا اليومية.

إن اللغة كلها كامنة في هذا التراث، وليس له مغاليق سوى أننا بعدنا عنه ونفرنا منه، وقدما عليه لغات أجنبية أخرى، فساعت أحوالنا تجاه اللغة الأم، وأصبحت تشعر بأنها غريبة وسط أهلها، لذلك أضع بين يدي القارئ

هذه النماذج التي وقع اختياري عليها من دواوين شعر الشعراء السابقين،
ليدرك إلى أي مدى نحن انحرفنا عن الطريق، وأضعنا شبابنا، وألقينا به في
مهاوى الردى، حتى شعر بأنه عبي، لا يكاد يبين، ففقد شخصيته، وتحطمت
ذاتيته، فلنحاول أن نأخذ به إلى هذه الواحة، ونطلعه على ما فيها من كنوز،
وما فيها من أمن وأمان، وجمال وبهاء تضيء على المرء سعادة غامرة،
وكلي ثقة في أنه سيستجيب.

الفصل الثالث

اللغة في زمانها الجميل

(١)

نوحة الصحراء

عرفت الصحراء برياحها ورمالها، وأمطارها وسيولها، وعلى الرغم مما يحيط بشبه الجزيرة من محيطات وبحار، فإن الرياح الموسمية التي تدخل إلى أرض الجزيرة في مواعيد محددة، لا تسمح إلا بالقليل من الأمطار، وعلى الرغم من الجفاف والحرارة، فإن المطر قد يسقط في شكل سيول، ولقد أشار المؤرخون لهذه السيول، ومنهم " البلاذري " في كتابه " فتوح البلدان " الذي خصص فيه فصلا عن سيول مكة، وكانت هذه السيول كثيرا ما تسمح بانتشار المراعى، والكلا في بعض الأماكن من شبه الجزيرة.

وتتأثر النباتات بهذا الجو للمناخى للصحراوي، فوجدنا الأشجار بأنواعها التي نكرها للشعراء في قصائدهم، إلى جانب ما تتبته هذه الصحراء من نباتات كالتمر والشعير .. وقد استعان للعربي بالرحلة وراء الماء والظل، تماما كما استعان بها وراء الحبيبية، وهنا وجدنا أهمية الحيوان في هذا المكان، وكان الجمل والحصان لهما علاقة بالعربي، فالناقة صديقه، والفرس فخره وزهوه . ومسنناول العوامل التي أثرت على للشاعر في هذه البيئة، وما أحاط به في هذه للطبيعة الصحراوية، حتى جعلت منه فنانا نحوم حوله، ونسجل انطباعاته التي تكون هي انطباعاتنا دون أن ندرى.

والصحراء تمثل البيئة للمعيشة للجاهليين في العصر القديم، ليس فيها هاد ولا دليل ولا سند . كل ما فيها ينزع الأمان من النفس، ويذعر ويروع، فتحقق نذر الخطر بالشاعر، وينقلب صفو العيش كدرا . فلا يجد سوى

ناقته يجد في وصفها ليسرى بذلك عن نفسه، ولكنها تظل في أعماقه لا تغيب عنه، ومن ثم لا تفارقه وديانها ومياه أمطارها، وسواد ظلامها، ووعورة طرقاتها ورمالها . ونرى الأعشى يكثر من وصفها على عادة الجاهليين، فيصور الأودية وما يجري فيها من ظلام أو سموم أو مياه أمطار، كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشتها وعزيف الجن ليلا بها، يقول في معلقته :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زجل
لا ينتمى لها بالقبض يركبها إلا الذين لهم فيما أتوا مهل
جاوزتها بطليح جسرة سرح في مرفقيها إذا استعرضتها فتل
ويقول أيضا :

وفلاة كأنها ظهر ترس ليس إلا الرجيع فيها علاق
قد تجاوزتها وتحتى مروح عنتريس نعابة معناق
عرمس ترجم الإكام بأخفا ف صلاب منها الحصى أفلاق
وكان القنود والعجلة الوف راء لما تواهق السواق
فوق مستبقل أضرب به الصيد ف وزر الفحول والتنهاق
أو فريد طاو تضيف أرطا ة عليه من الغصون رواق
أخرجته شهباء مسبلة الود ق رجوس قدامها فراق
وتعادى عنه النهار توارى ه عراض الرمال والدرداق
وتلته غضف طوارد كانح ل مغاريث همهن اللحاق

وهو يصور فيها فلاة مقفرة، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة شديدة، كانت ترجم المرتفعات بأخفافها الصلبة، فتشق ما فيها من حصى شقا، وسرعان ما يشبهها في سرعتها بحمار وحشى، يقاسى من لظى البصيف وعض أمثاله وتناهقها

عليه، فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلا مع هذا الحمار، بل يتركه إلى ثور وحشى يشبهه به ناقته، ويصوره طاويا فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة، والمطر يسقط من حوله والفرع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه، فخرج يتوارى فى عراض الرمال وكتبانها، ولم تلبث كلاب الصيد أن رآته فأسرعت تحاول اللحاق به، وأسرع يحاول فوتها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شىء يطلبها .

اللوحة الأولى : فلاة مقفرة، لا نبات فيها ولا زرع، وهاد ونجاد ورمال وصخور لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار، فهى هزيلة تنتظر ما يقيم أودها.

اللوحة الثانية : ناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة، وهى السفينة وسط هذه الصحراء، تطأ المرتفعات باخفافها الصلبة، فتشق ما فيها من حصى شقا، وهى شبيهة بحمار وحشى، يقاسى من لظى الصيف وعض أمثاله وتتهاقها عليه، فهو يسرع لا يلوى.

اللوحة الثالثة: يشبه ناقته بثور وحشى، ويصوره طاويا فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة، ومن حوله المطر يسقط والفرع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه، فخرج يتوارى فى عراض الرمال وكتبانها، ولم تلبث كلاب الصيد أن رآته فأسرعت تحاول اللحاق به، وأسرع يحاول الانفلات منها . وتتكرر مثل هذه اللوحات لا عند الأعشى وحده، بل عند جميع الشعراء فى هذا العصر، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة وخاصة حين يناضل كلاب الصيد.

والمرقش الأكبر يصور رحلته فى الصحراء الموحشة، وقد قطعها على ناقته التى أضناها السرى، وتتعدد المشاهد بدلالاتها المخيفة على رهبة

الليل، فيظهر مشهد الإبل فى الظلمة، وموقد النار الذى خلفه حيث نزل للراحة، وأصوات البوم التى كثر ترددها فكانت أشبه ما تكون بصوت النواقيس، ويصور الشاعر مشاهد الجبال وقد غطاها السراب، فرأها كأنها غارقة فى بحر ممتد فوق رمالها، وتكاد الصحراء تذكره بناقته، فيعود إلى وصفها، ويمضى فيه حتى يتداخل مشهد الصحراء مع صورة الناقة. وفى حديث الشاعر عن ناقته دلالات فنية ونفسية على حياته، وعلاقته بالناقة، فيقول:

ودوية غرباء قد طال عهدا	تهالك فيها الورد والمرء ناعس
قطعت إلى معروفها منكراتها	بعيهامة تنسل والليل دامس
تركت بها ليلا طويلا ومنزلا	وموقد نار لم ترمه القوابس
وتسمع تزقاء من البوم حولنا	كما ضربت بعد الهدوء النواقس
فيصبح ملقى رحلها حيث عرست	من الأرض قد دببت عليه الروامس
وتصبح كالدودة ناط زمامها	إلى شعب فيها الجوارى العوانس
وقد ترى سمط الرجال عيالها	له .. لها قيم سهل الخليفة أنس
ضحوك إذا ما الصحب لم يجتوا	ولا هو مضباب على الزاد عابس
ولما أضأنا النار عند شوائنا	عرأنا عليها أطلس اللون يائس
نبذت إليه حزة من شوائنا	حياء وما فحشى على من أجالس
فآب بها جذلان ينفض رأسه	كما آب بالذهب الكمي المحالس
وأعرض أعلام كأن رعوسها	رعوس جبال فى حليج تغامس
إذا علم خلفته يهدى به	بدا علم فى الآل أغبر طامس

صحراء تهوى الريح فيها، طال عهدا بمن يقطعها، وكاد طلاب الماء يهلكون فيها ظمأ، وقد أصاب حواسهم فتور من العطش ونصب السفر ووعناء الطريق، وشدة القيظ.

صورة لليل الصحراء الطويل، فيه مسافر على ناقه قوية سريعة،
يجهده السير، فينزل للراحة، ويوقد النار عليها تؤنسه من صوت البوم الذي
يسمعه خلال هذا الهدوء والسكون، كأنه قرع النواقيس.

وفى الصباح لا يوجد للرحل أثرا، فالرياح الطوامس قد طمسته وغفت
عليه، وأصبحت الناقة كأنها أرجوحة نصب حبالها الجوارى، العوانس
وربطنها فى شعب، وذلك أحكم لها لفرغهن وعدم انشغال بالهن إذ ينسن من
الزواج، ولذلك نرى الناقة كثيرة الاهتزاز غير متماسكة لشدة ما عانت فى
ليلها.

وحين أضيئت النار، جذبت رائحة الشواء نثبًا أغبر اللون يائسا فسعى
يبغى طعاما، فأكرمه بقطعة من شواء، فرجع جزلان فرحا ينفض رأسه
ويهزها نشوة، كما يعود الفارس بالغنيمة.

وفى هذا المكان جبال لها رعوس تظهر وتختفى كرعوس رجال
يستحمون فى خليج يغمسونها فى الماء ويظهرونها، وأخذت هذه الجبال
تترأى جيلا بعد جيل خلال المسيرة.

لوحة كاملة للصحراء بجبالها ورمالها وما فيها من طير ووحش وليل
ومطر وبرق ورعد، يرسمها لنا المرقش الأكبر فى صور متلاحقة
متعددة، ليضم كل صورة إلى مثلتها، مكونا بذلك الورة الكلية لهذا المشهد
الذى يلقاه العربى صباح مساء.

أما زهير بن أبى سلمى، فقد كانت طريقتة فى التصوير تمثل تطورا
فى الشعر الجاهلى حيث حققت الصورة الشعرية على يديه من تعقد فنى
تتشابك فيه خيوط للصورة بعناصرها الموروثة والجديدة تشابكا يخلق منها
صورا نوات علاقات جديدة . وقد تلقى زهير هذا الموروث من الشعر
الجاهلى، وأجاد فهمه، وأفاد من ظواهره الفنية، واستطاع أن يشخص فى

قصائده المختلفة هذه الصورة أو تلك من التطور في أقصى ما انتهت إليه في عصره.

وزهير يحقق في شعره غاية فنية عالية عن طريق صور كلية كانت تتحل في أشعاره إلى صور جزئية عديدة تأخذ بالمعنى من جميع جوانبه وفي أبعاده المختلفة. وعن طريق الصور الجزئية لهذه الجوانب المختلفة من المعنى. وهى صور تتجمع وتتواصل لتكون في آخر الأمر هذه الصورة الكلية الجامعة.

وقد أدخل في بناء الصورة وقع للزمان و المكان وإشاعة الحياة والحركة وتلوين الصورة لتبدو طبيعية، إلى جانب أن له نزعة أخلاقية تتمثل في تأملاته في الحياة والموت ودعوته إلى السلام، وبعده عن الحروب.

وقد استطاع زهير أن يعرض علينا في بيت واحد لوحة متكاملة عن البقر والظباء في بعض مواضع البادية، يقول من معلقته:

بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت إليها بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
أثافي سفعا في معرس رجل ونؤيا كجثم للحوض لم يتهدم
فلما عرفت الدار قلت لرابعا ألا أنعم صباحا ليها للربع واسلم

فبهذه الدار بقر وحشي وأسعات للعيون، وظباء بيض يمشين بها خالقات بعضها بعضا، وتنهض أولادها من مراتبها لترضعها أمهاتها.

والصورة تعتمد على التفاصيل وإعطاء كل جزء حقه ومن هنا يعتبر هذا الشاعر باحثا محققا من الشعراء المصورين الذين يعرضون المناظر بكل أجزائها وتفصيلها، وقد ذكر الأثافي والنؤى حتى تتم الصورة بجميع دقائقها.

إن الصورة تظهر في استخدام الألفاظ والعبارات التي تجعل المنظر بارزا ناطقا من مثل " الوحش اتخذت دارصاحبته مقاما تمشى أمامك خلفه أى فى جهات متضادة، وقد نهضت أطلاؤها الصغار وانتثرت هنا وهناك، فاستعان على الحركة فى المنظر باستخدام كلمة " خلفه" ومن مثل استخدام الأفعال المضارعة للدلالة على الأحوال المنظورة فى رؤية الحوادث الماضية كأنها أمامنا كما قام بتحديد الزمان حتى يؤثر فى أنفسنا".

وهكذا نرى أن الشاعر الجاهلى أصبح يتمثل ماضيه فى الوقوف على الأطلال، وتصوير ديار الحبيبة، وما صارت إليه بعد أن رحلوا عنها، ذاكرا الأمكنة التى يتمثل فيها هذا الماضى، ويستعرض معالمها بأسمائها المعينة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قاله زهير فى أبياته من معلقته التى أشرت إليها.

إن المتأمل فى هذه الصورة يفترض أن حزن الشاعر على الفراق قد غشى على بصره، فلم يعد يرى إلا القليل، أو يفترض أن حزن هذه المرأة وفى هذا الموقف على الفراق لا يشجعها على أن تظهر أمام الشاعر، وإن حدث فلم تدع الشاعر يكشف إلا جزءا ضئيلا من صورتها.

وهاهو يصور ناقته بظلم فى بيتين فى وصف دقيق، يعرض فيه هيئته وسرعته وحركته وذعره الدائم، وانطلاقه المستمر فى الصحراء :

كان الرجل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء
أصك مصلم الأذنين أجنى له بالسى تنوم وآء

صورة كاملة للظلم، صغير الرأس، متقارب العرقوبين، ليس لأذنيه

حجم.

صورة للسرعة والحركة فى قوله: "جؤجؤه هواء" فصدره فارغ يسرع فى العدو، فالصورة دقيقة فى وصف الجسم والنفس.

ثم ينتقل بصور ناقته في سرعتها بحمار وحش، يقول:
كأن سحيله في كل فجر على أحساء يمئود دعاء

يرسم صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها.

أما تأبط شرا، فيصور حياته تستمد خطوطها من الواقع الذي يعيشه
صعلوك مغامر متشرد في أعماق الصحراء حتى ألفته وحوشها، يقول:
قليل غرار النوم أكبر همه دم الثأر أو يلقي كميا مقنعا
قليل ادخار الزاد إلا تعلقة فقد نشز الشرسوف والتصق المعى
يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ويصبح لا يحمى لها للدهر مرتعا
راين فتى لا صيد وحش بهمه فلو صافحت إنسا لصافحته معا
ولكن أرباب المخاض يشقهم إذا أفقتوه أو رأوه مشـربعا
وإنى-ولا علم- لأعلم أننى سألقى سنان الموت يرشق لضاعا
على غرة أو جهرة من مكائر أطل نزال الموت حتى تسعسا
وكننت أظن الموت فى الحى أو أرى الد وأكرى لو أموت مقنعا
ولست أبيت الدهر إلا على فتى أسلبه أو أذعر السرب أجمعا
ومن يضرب الأبطال لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

يصف نفسه بأنه قليل النوم لأنه مشغول بمعركة الثأر من مجتمعه التى
وهب حياته لها، كما وهبها له رفاقه الصعاليك، ويقول إنه ضامر نحيل لقلة
ما يبقية لنفسه من طعام لأنه يؤثر غيره من الفقراء للجباة، بمقامه حيث تقيم
الوحش فى أعماق الصحراء، ولا يمنعها من الرعى فهى لا تخاف منه لأنها
ألفته واطمأنت إليه، وأدركت أنه لم ينزل معها فى مراعيها لصيدها، فأنست
إليه حتى أنها لو صافحت أحدا من البشر لصافحته.

إن أصحاب النوق العشار يؤرقهم ويسبب لهم العناء والمشقة فى المحافظة على إبلهم، وهم يخشونه فى غيابه وحضوره، وأنه فزع دائم لهم يتتبعون أثره فرادى أو جماعات، أو يتتبعون أثره وحيدا أو مع رفاقه، وهو لا يعلم الغيب ولا يدري متى يحين أجله، فسنان الموت مصقول مجلو لامع، من أجل ذلك هو مهئ دائما للعمل، وفى هذه الصورة تأكيد على أن الموت سيلقاه على حين غرة منه وغفلة عنه، أو سيلقاه مواجهة صريحة، ولا يرى فى ذلك غرابة لأنه وهب حياته للموت، وعاش عمره فى صراع معه، حتى انتهت حياته، وأدركه الغناء. ويرى صاحبنا أن الموت الحقيقى فى البقاء فى الحى ذليلا، لا فى الخروج للغارة والعدو المتصل حتى الموت فى ساحة الكفاح بطلا مسلحا فى سبيل المبادئ والأهداف. إنه لا يريد أن ينتظر أجله وهو قانع بحياة الذل والهوان على هامش القبيلة، وإنما يريد أن يخرج إليه ليلقاه فى ساحة الكفاح المسلح من أجل الحرية والكرامة، وما مات من مات فى سبيل مبادئه وأهدافه، من أجل ذلك فهو لا يهدأ ولا يستقر حتى يحقق أهدافه فى الغزو والغارة على الأفراد والجماعات للسلب والنهب وقطع الطريق، فمن يجعل حياته صراعا مستمرا لا بد أن يلقي فى ساحة الصراع مصرعا من مصارع الموت المتعددة.

لوحة تستمد خطوطها من أعماق الصحراء، حيث الوحوش المنتشرة فى كل مكان، وحيث لا ماء ولا زرع ولا طعام، بل رمال وأطلال، ووهاد ونجاد، لا تسمع فيها صوت أنيس، ولا نداء رفيق إلا صفير الرياح، وأصوات الحيوانات، فهى قفر موحشة، والموت لهم بالمرصاد. لكنه لا يثنيهم عن أهدافهم لتستمر حياتهم.

وقد ذكر الشعراء الجاهليون، أنواع الحيوانات والطيور فى أشعارهم، ورمزوا بذلك إلى القوة والسرعة والاندفاع التى أرادوا أن يصوروا بها خيولهم أو نوقهم ليدلوا بذلك على صفاتها من الواقع المعاش فى بيناتهم،

ومثل الشاعر في تصوره لذلك كمثل الذي يحلم بموقف أو مشهد ما، فإنه لا يتجاوز الوسط الذي يحيا فيه، لأن العقل لا يختزن إلا ما يراه أو ما مر به، وللخيال في هذا حدود لا يتجاوزها إلا بقدر، فإن رأى شيئا غريباً، فسره أيضاً بما يكون قد وقع عليه بصره، ومن هنا تكون واقعية الصورة، وواقعية الرمز.

فهذا عبيد بن الأبرص، يصف العقاب فوق رابية عالية، قد بلغ اليأس منها لشدة الشيوخوخة، ووفرة الآلام والأحزان، ويعرض للمطاردة بين عقاب وبين ثعلب في لوحة جميلة، تصور الثعلب في خوفه، والعقاب في انقضاضها عليه في شيخوختها، يقول:

كأنها لقوة طلـوب	تيس في وكرها القلوب
باتت على إرم عنوباً	كأنها شيخة رقوب
فأصبحت في غداة قر	يسقط عن ريشها للضرب
فأبصرت ثعلباً سريعاً	ودونه سبب جديب
ففضت ريشها وولت	وهي من نهضة قريب
فاشتال وارتاع من حسيس	وفعله يفعل المذوب
فنهضت نحوه حثيثاً	وخرنت حرده تسبيب
فدب من خافها دبيباً	والعين حملاها مقلوب
فأدركته فطرحته	والصيد من تحتها مكروب
فجدلته فطرحته	فكحت وجهه الجبوب
فعاودته فرفعتـه	فأرسلته وهو مكروب
يضغو ومخابها في دفه	لابد حيزومه منقوب
أقفر من أهله ملحوب	فالقطيبيات فالذنوب
فراكس فتعيلبيات	فذاث فرقين فالقلوب

فمردة فققفا حبر
وبدلت منهم وجوشا
أرض توارثها الخدوب
إما قتيلا وإما هلكا
عيناك دمعهما سرروب
واهية أو معين معسن
أو فلج واد ببطسن أرض
أو جدول فى ظلال نخل
تصبو وأنى لك التصابى
فإن يكن حال اجمعها
أو يك أفقر منها جوما
فكل ذى نعمة مخلص
وكل ذى إيبل موروث
وكل ذى غيبة يؤوب
أعاقر مثل ذات رحم
من يسأل الناس يحرموه
بالله يدرك كل خير
والله ليس له شريك
أفلج بما شئت قد يبلغ بالضعف
لايعظ الناس من لا يعظ الدهر
إلا سجيات ما القلوب
ساعد بأرض إن كنت فيها
قد يوصل النازح النائي وقد

ليس بها منهم عريب
وغيرت حالها الخطوب
فكل من حلها محروب
والشيب شين لمن يشيب
كان شأنهما شاعوبا
من هضبة دونها لهوب
للماء من تحتة قسيب
للماء من تحتها سكوب
أنى وقد راعك المشيب
فلا يدى ولا عجيب
وعادها المحل والجدوب
وكل ذى أمل مكذوب
وكل ذى سلب مسلوب
وغائب الموت لا يؤوب
أو غانم مثل من يخيب
وسائل الله لا يخيب
والقول فى بعضه تغريب
علام ما أخفت القلوب
وقد يخدع الأريب
ولا ينفع التائب
وكم يصيرن شائنا حبيب
ولا تقل إننى غريب
يقطع نو السهمة القريب

طول الحياة له تعذيب	والمرء ما عاش فى تكذيب
سبيله خائف جديب	يارب ماء وردت آجن
للقلب من خوفه وجيب	ريش الحمام على أرجائه
وصاحبى بادن خبوب	قطعتة غدوة مشيحا
كان حاركها كئيب	عيرانة موجد فقارها
لا خفة ولا نسيوب	أخلف بازلا سديس
جون بصفتة نلوب	كانها من حمير غاب
تلطه شمال هبوب	أو شبيب يرتعى الرخامى
تحملنى نهدة سرحوب	فذاك عصر وقد أرانى
ينشق عن وجهها السيب	مضير خلقها تضبيرا
ولين أسرها رطيب	زيتية نائم عروقها

لقد صارت هذه العقاب عجوزا شمطاء مرزأة، وقد اكتسبت هذه العجوز بعض ملامح هذه العقاب أو صفاتها، ولعل أبرز هذه الصفات حدة البصر والقدرة على التأمل البعيد. وقد ضربت للعرب المثل بالعقاب فى صحة البصر، فقالت: " أبصر من عقاب "، ولهذا السبب شبه للشاعر فرسه بها. ولئن كانت هذه العقاب فاجعة اليوم إنها ستكون كهذه العجوز مفجوعة غدا أو غداة غد، وسيحل بها ما حل بأهل الديار ووحوشها من قبل.

كانها لـقوب طلـوب	تخر فى وكرها للـقوب
باتت على أرم عذوبا	كانها شـيخة رـقوب

كما وصف الجاهليون كل ما وقع عليه بصرهم من حيوانات الصحراء، فالذئب مثلا وصفوه طريدا شريدا جائعا يائسا بائسا، يرى فيها الشنفرى حيوانا تتقاذفه الفلوات، وتتهاداه المغاوز ... والمرقس الأكبر يقص

علينا أنه أوقد النار لشوائه فنزل به ضيف، فرمى إليه بقطعة من الشواء، مما
يصور نفس العربى فى الكرم والسخاء. يقول المرقش الأكبر، من الأبيات
التي سقناها فى تصوير مشاهد الصحراء :

ولما أضأنا النار عند شوائنا عرانا عليها أطلس اللون بانس
نبذت إليه حزة من شوائنا حياء وما فحشى على من أجالس
فأض بها جذلان ينقض رأسه كما أب بالتهب الكمي المحالس
وأعرض أعلام كان رعوسها رعوس جبال فى حليج تغامس

أما الشنقرى فيقول فى حديثه عن "المراقب" وهى المرتفعات العالية
التي كانوا يصعدون إليها، ليربصوا فوقها بضحاياهم، مصورا واديا بعيدا
فى أعماق الصحراء، تلتقى عنده مجموعة من الأودية الضيقة، وتتخذة الجن
والأسود مكانا تألفه وتأوى إليه :

وواد بعيد العمق ضنك جماعة بواطنه للجن والأسد مألّف

وقد عمد الشعراء أيضا إلى وصف الحبة أو الثعبان والأسد، ورسوموا
للخوف منها، والذعر لمنظرها.

ولعلنا نلاحظ الألفاظ الجزلة، والكلمات القوية الضخمة فى وصفهم
للحيوان، فلما تغزلوا أو وصفوا أحاسيسهم وعواطفهم رقت تعابيرهم، وخفت
حدة الألفاظ.

وإذا كنت قد أشرت إلى صور الحيوانات والطيور فى شعر الشعراء
لجاهليين وبيئت أهميتها عندهم فى هذه البيئة، ونظرتهم إليها، فقد فسرت
أيضا ظاهرة للرياح والبرق والأمطار والسيول للتي يتعرض لها ابن
الصحراء، وما لها من أثر فى حياته، وفى نظرتة إلى ما حوله، وفلسفته فى
حياته.

(٢)

لوحة السيل

لم يدع العربي شيئاً في الصحراء بيئته التي عاش فيها إلا وصفه بنظرة فاحصة نافذة وبإحساس مرهف بكل ما يحيط به وصف الحيوان والإبل، وأفتن في ذلك افتتاناً عجيباً لأنها عونهم في حياتهم، ووصفوا كذلك الخيل والأسد والضبع والذئب والأوعال والحمير والبقر، ومن الطير الحمام والعقبان والنسور، ومن الهوام الحيات والأفاعي والصلال، ووصف النبات والسحاب المتراكم والأمطار الغزيرة، والرياح والبرق والرعد والسراب، والسيل المتدفق، والسماء والنجوم، والشمس والقمر وصور الكواكب.

صور لذلك كله في إتقان وإبداع وصدق وهم في صورهم يلجأون إلى الطبيعة يستمدون منها ما يلح على حواسهم صباح مساء، حتى تشبعت بها مخيلتهم، ومن أجل ذلك لا بد أن نفسر ظاهرة الرياح والبرق والأمطار والسيول، التي يتعرض لها ابن الصحراء، وما لها من أثر في حياته، وفي نظرته إلى ما حوله، وفلسفته في حياته.

فالنابغة الذبياني تصور من بيئته حركة الرياح، وحياة الحيوان، ونزول الأمطار، يقول في تصوير الثور يساق ويدفع عليه مطر فيه برد جامد، وخص الشمال لشدة بردها، فيصف أن الثور بات مبيت سوء:

أسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد

سحب متراكمة من نوء الجوزاء ويصف ريحاً أخرى شمالية، وهي أشد الرياح برداً وأقلها خيراً، يقول:

وهبت الريح من تلقاء ذي أزل تزجي مع الليل من صرادها صرماً

صورة للرياح مرة تأتي من الشمال، ومرة من نوء الجوزاء، أو من بين الجبال وأعاليتها، فترسم لوحة للصحراء بما فيها من رمال وجبال وسحب وأمطار، وترسم صورة لحياة الحيوانات فى هذه البيئة.

ويعرف قراء الشعر الجاهلى أن هذا المعنى الذى يذكره الشاعر يتكرر فى قصة الثور الوحشى، فما يعرف بالبرد الذى تحصب الريح الشامية الثور به، مكرور فى تصوير مثل هذا الموقف عند الشعراء.

وهذه صورة أخرى للسحاب الذى تعلوه بيوتهم، وكأنه رمز للعلو والارتفاع نحسه عندما يأتى بصورة لجبل عال يصنعه النابغة الذبياني فى إيجاز معجز، ومقدرة فائقة، حيث يقول :

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع يخال به راعى الحمولة طائرا
تزل الوعول العصم عن قذفاته ويضحى نراه بالسحاب كوافرا

صورة لعلو الجبل الذى تحط عليه بيوته، يخال به راعى الإبل كأنه طائر لصغر حجمه، وشموخ هذا الجبل.

وصورة للوعول العصم تزل عن قذفات الجبل لعلوه ووعورته، لأنه يفوق السحب، وينفذ منها فترى قننه مغطاة بها.

وهذه صورة تقوم على المماثلة بين حركة الريح التى تمر من ناحية إلى أخرى، وحركة الذين يصنعون من الجريد حصيرا، ويعملون على تنميته حتى يبدو للعين فى صورة كاملة من الإتقان، يقول:

كان مجر الرامسات نيولها عليه قضيم نمقته الصوانع

وأما قوله:

تعاورها الأرواح ينسفن تربها وكل ملت ذى أهاضيب راعد
صورة للرياح المتلاحقة، وصورة للرعء المخبف، ثم صورة للمطر
الدائم مما يزيد إحساسنا بتكامل الصورة لما ففها من عنصر الحركة
والصوت التى نشاهدها فى الببئة الصحرابوة .

وأبضا بقول النابغة:

أربت بها الأرواح حتى كأنما تهادفن أبلى تربها المناخل
وكل ملت مكفهر سحابه كمفش التوالى مرثعن الأسافل
إذا رجفت ففه رها مرججنة تبجع ثجابا غزفر الحوافل
صورة للرباح "كأنما تهادفن" كان للرباح أهدى إلى بعض ترابا
منخولا دقفقا، حرقات تقوم بها تلك الصور، وتقم هذه الحركة فى الصورة
الأخيرة التى تبرز لنا المنازل وقد تغير رسمها وذهبف معالمها وفى ذلك لون
من ألوان التخبفل ففمفل فى تلك الصور المتحركة .

أما البرق ففصوره لنا النابغة بقوله:

أصاح ترى برقا أربك ومبضه فضى سناه عن ركمام منضد
أجش سماكبا كان ربابه أراعل شتى من قلائص أبء
تكركره ربج فبور بصوتها وتعلله أخرى شمال ففبهتدى
صورة للبرق الذى فخطف الأبصار خلال الغفوم المتراكمة، والرعد
الأجش الصوت عبر سحاب كقطعان النفاق .

هذه هى الصحراب برابها الهوجاء وأمطارها الغزفرة وسفولها
ورعدها المخبف وحبالها العالفة .

إن الشاعر الجاهلي مولع بهذه الظواهر الكونية، فهي شغله الشاغل، ومبعثه للتأمل والتدبر والتبصر، فلا شيء يشغله عنها، ينظر إليها فيسجل خواطره، ويفتن في وصفها حتى ليخيل إليك أنك أمام عالم من علماء الكون والطبيعة، والأرصاد الجوية وهو أيضا لا يخطئ في القوانين العلمية التي تحكم هذه الظواهر، فيعلم أيهما يسبق الآخر، الضوء أم الصوت، وأيهما أسرع من الآخر، ومتى ستسقط الأمطار، ومدى شدتها، وكذلك متى تثار الأتربة، إلى غير ذلك مما ينسج حياتهم، وكل ذلك بفطرته وسليقته .

ولننظر إلى الحادرة وهو يقيم صلة تشبيهية بين ريق صاحبتة في صفاته وطيبه، وذنوبة الماء الذي تدره السحابة للطرية ليلا في مستنقع دقيق الحصى يطيب فيه الماء ويصفو، يقول:

وإذا تنازك الحديث رأيتها حسنا تبسما لذيد المـكـرـع
 بغريض سارية أدركته الصبا من ماء أسجر طيب المستنقع
 ظلم للبطاح له انهلال حريصة فصفا للنطاف له بعيد المقلع
 لعب السيول به فأصبح ماؤه غللا تقطع في أصول الخروع

ويقدم لنا امرؤ القيس لوحة نرى فيها صورة دقيقة للمطر، وما فعله على الجبال والسفوح والأودية من تحطيم ودمار، واجتاحت سيله الأشجار للضخمة، والسباع والوحوش، يقول :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلعم الديدن في حبي مكال
 يضئ سناه أو مصابيح راهب أمال السليط في الذبال المفتل
 قعدت له وصحبتى بين حامر وبين إكام بعد ما متأمل
 علا قطنا بالشميم أيمن ضوبه وأيسره على الستار فيذبـل
 فأضحى يسح الماء من كل تلعنة يكب على الأنقان دوح الكنهـل

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة
 كأن طمية المجيمر غدوة
 كأن ثبيراً في عرانيين وبله
 وألقى بصحراء الغبيط بعاعه
 كأن سباعاً فيه غرقى عشية
 ألقى ببسيان مع الليل بركه
 ولا أجماً إلا مشيداً بجندل
 من السيل والأغثاء فلكة مغزل
 كبير أناس في بجاد مزمل
 نزول اليماني ذى العباب المحمل
 بأرجائه القصى أنابيش عنصل
 فأنزل منه العصم من كل منزل

لوحة كاملة لوميض البرق وتألقه في سحب متراكم ولمعانه كحركة
 الديدن إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوءها بما يمدّها من
 زيت كثير، ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام،
 والسحاب يسح سحا حتى لتقتلع سيوله كل ما في طريقها من أشجار عظيمة
 وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً إلا ما شيد بالصخر، فقد اجتثت كل ما
 مرت به وأنت عليه من قواعده وأصوله وهذا طمية جبل المجيمر التفتت به
 السيول وما تحمل من غثاء، حتى لكأنه فلكة مغزل وذاك أبان بما غطاه من
 هذا السيل والغثاء يشبه شيخاً ملتفاً في كساء مخطط وقد ألقى بصحراء الغبيط
 ثقله فنشر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الشياح الزاهية الألوان
 التي ينشرها التاجر اليماني حين يعرضها للشراء وما زالت السيول تفيض
 حتى علت أجسام السباع فغرقت في لججها وتراعت رؤوسها للعين كأنها
 جذور البصل البرى وقد تراكم السحاب وملاً أقطار السماء حتى ليظن
 مبصره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد، وأيسره على الستار ويذبل - مما
 يلي بلاد البحرين، وعم المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التي كانت
 مستقرة به.

هذا هو الغموض البواح المنتثر بالحزن والجزع، رؤية قائمة
 سوداء، وإحساس مروّع بالفناء، ومصير فاجع مأساوى يحاول الشاعر اتقاءه

والاحتماء منه بالصم الصلاب، دعوة إلى التأمل والتفكير، إلى الرؤية المستيقنة.

"أصاح ترى برقاً أريك وميضه" ولن يلبث هذا الصاحب أن يغدو أصحاباً "قعدت له وصحبتى" وارتباط البروق فى الشعر العربى القديم بالأحاسيس المختلطة والمشاعر والأشواق الغامضة أمر شائع مألوف.

إن امرأ القيس يستضىئ بوميض البرق وقد اقترن بنار مصابيح الرهبان، وينتضى امرؤ القيس وأصحابه فيما يشبه العزلة و"العزلة" شرط جوهرى من شروط الإبداع والتأمل والتفكير - يتأملون هذا البرق، ويسرفون فى التأويل إسرافاً يبعث الدهشة والعجب فى النفس، فقد امتد تأملهم إلى الآفاق البعيدة القصية، فانكشف لهم حقيقة الوجود، وما كانت لتتكشف لولا هذا البرق والعزلة والتأمل، وقد عدل الشاعر عدولاً صريحاً عن "الرؤية" إلى "التأمل"، وإذا كانت الرؤية البصرية هى البارزة والمقصودة بفعل "الرؤية" فى النص، وكانت الرؤية القلبية أو العقلية التى تجتافه - من حيث هو فعل للرؤية - مضمرة، فإن كلمة "التأمل" تكاد تخلص خلوصاً كاملاً للرؤية العقلية، وقد تأمل امرؤ القيس وأصحابه، فأحسنوا التأمل إحساناً يثير العجب ويستحق التقدير.

ما حقيقة هذا البرق الذى يصرف هؤلاء الأصحاب عن شواغلهم كلها، فيعتزلون الناس، ويقعدون له يتأملونه:

قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأمل

هو التأمل والتبصر والتبصر والتفكير، الذى ذكره الشاعر "بعد ما متأمل". قال صاحب الخزانة: "ومعناه: يا بعد ما تأملت، على التعجب".

وقال: "على أن (بعد) فيه للمدح والتعجب".

لقد انتهى بهم التأمل إلى رؤية "الوجود الإنساني" رؤية أشمل وأعمق وأنفذ وهي رؤية قائمة حالكة السواد لأن الفناء يحاصرها من كل جانب، ويكشف لها عن تقاهة "الوجود الإنساني" وعقمه وضآلة شأنه وحقارته، وليس ثمة ما يستعصم به المرء للنجاة من "المصير الإنساني" الفاجع، ولم يكن هذا الشاعر الجاهلي يقوى على أن يسمو بروحه ليخلق في آفاق عالم آخر مفارق، فقد كانت صبوة الروح جامحة، ولكن آفاقها كانت ضيقة متقاربة الأطراف

يقول د شكري عياد: "فكل وصف شعري هو نوع من التصوير فالشاعر إذا وصف رعدا أو برقاً ليشعرك بالرهبة فهو يصور معنى الرهبة، وإذا وصف روضة زاهية معطرا فهو يصور معنى البهجة "

وما أكثر ما يكون وميض البرق هاديا ودليلا للشاعر في الظلمة النفسية الحالكة، فيستتير به للخروج مما هو فيه، أو لرؤيته رؤية أعمق وأنفذ. والشعراء يهتدون بالضوء سواء أكان ضوء النجوم والكواكب أم سنا النار أو وميض البروق

ولامرئ القيس مقطوعة في الغيث والسيل أخرى، يقول فيها :

ديمة هطلاء فيها وطف	طبق الأرض تحرى وتدر
تخرج الود إذا ما أشحذت	وتواريه إذا ما تشتكر
وترى الضب خفيفا ماها	ثانيا برثته ما ينعفر
وترى الشجراء في ريقه كـ	رعوس قطعت فيها الخمر
ساعة ثم انتحاهما وابل	ساقط الأكناف واه منهمر
راح تمر به الصبا ثم انتحى	فيه شؤبوب جنوبا منفجر
ثج حتى ضاق عن أنيه	عرض خيم فخفاف فيسر
قد غدا يحملنى فى أنفه	لاحق الأيطلين محبوك ممر

فالمطر منهمر حتى غم الأرض من حوله، وهو يدر لها ويدنو منها بأهدابه، وحينما يقلع فتبدد الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار، وتترع القيعان فيخرج الضب من جحره يعدو عدوا سريعا لما يرى من كثرة المطر، وما زالت السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار، بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها، فتتراءى كأنها رموس معممة قطعت في ساحة حرب عنيفة، وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء، فقد ألقت السحب بوبلها وأثقالها تستدرها ريح الصبا الشمالية، ولم تلبث ريح الجنوب أن هبت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خيم وخفاف ويسر.

إننا لا يمكن أن ندرك أبعاد المطر الحقيقية كسياق دلالي إلا إذا تصورنا عالم الجفاف في تلك الصحراء المهلكة، فهو الحياة في تجدها واستقرارها، ويتصل المطر بالأطلال لتكون معه ثنائية تكاملية، فإذا كان الطلل رمزا للعفاء والتحلل، فإن المطر يؤكد ذلك، بل يساعد عليه عندما ينهمر مدمرا محطما الديار، وما تبقى منها

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال

وأصبح المطر عند امرئ القيس مرتبطا بسكب الدموع على رجيل المحبوبة، كما كان له ارتباط بمظاهر العفاء والتحلل الطللي، يقول بصدد ذلك:

أمن ذكر نبهانية حل أهلها بجزع الملا عيناك تبتدران
فدمعها سح وسكب وديمة ورش وتوكاف وتنهملان

غير أن المطر يكسب الطبيعة جمالا حين يكف عن السقوط، ويصفو
الجو، ويرق النسيم، وتغرد العصافير مغنية بالطبيعة، صادحةً بجمالها،
سكرى من حلاوة ما تحس في هذا الجو الندى الرطيب، اسمع لقول امرئ
القيس:

كان مكاى الجواء غدية صبجن سلافا من رحيق مففل
تشبيهات متراكمة، ولم تستوف الصورة عناصرها المتشعبة في مثل
هذا اللفظ القصير بمثل ما استوفته هنا .

وليس من شك في أن المطر مصدر خير وبركة، فهو يجدد الحياة
ويغسل ما أصاب النفوس من كرب وهم، وهو مبعث النماء والعطاء، فى
الكون فيه تربو الأرض وتحيا، وفيه تزهو كل الأشياء، من أجل ذلك أصبح
الحديث عن المطر علامة يقف عندها الشعراء فى هذا العصر، فى صور
تتدرج فى الإبداع والخلق من واحد لآخر.

وإذا كان السحاب والمطر يرى فيهما امرؤ القيس - فيما يرى- حياة
للأرض فقد استحدثت فى ذلك أشياء لم تكن مألوفة من قبل، وتفسرها لنا
صوره فى هذا المجال، فهو عليم بنقائق الحركة والاتجاهات، ومن ثم متى
ينهمر المطر ويكون السيل.

أما الأعشى فيصور البرق يلتمع ثم يخبو كشعلة تومض وتتطفئ، وهو
حين يصف المطر، يقول:

بل هل ترى عارضا قد بت لرمقه كأنما البرق فى حافاته شعل
له رداف وجوز مفام عمل منطق بسجال الماء متصل
لم يلهنى اللهو عنه حين أرقبه ولا اللذازة فى كأس ولا شغل

فقلت للشرب فى درنا وقد ثملوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل
قالوا نمار فبطن الخال جادهما فالعسجدية فالأبلاء فالرجل
فالسفح يجرى فخنزير فبرفته حتى تدافع منه الربو فالحبيل
حتى تحمل منه الماء تكلفة روض القطا فكثيب الغينة السهل
يسقى ديارا لها قد أصبحت غرضا زورا تجانف عنها القود والرسل

إنها دعوة للتأمل، لحظة الدهشة حين أخذ يرمق هذا المطر، وهذا البرق الذى يكاد يخطف الأبصار، والذى يحيطه من كل جانب فى هذا الفضاء العريض لحظة تأمل فى هذا الكون ونواميسه وما قد يتراءى للفرد من أفكار حول الطبيعة والحياة، فالسماء ذات السحب المحملة بالماء، تبدو عن لون ينبئ بثورة فى الطبيعة، تدعو إلى النظر والتبصر والتدبر، حتى أن المنغمس فى مجلس شراب لم تلهه لذته ولهوه عن هذه الرؤية، بل يدعو ندماه وجلساءه الذين شاركوه شرابه حتى ثملوا إلى التطلع لهذا السيل المنهمر من السحب الثقيل، وحولهم هذا الضوء الذى يتخذونه رمزا للهداية، ثم لا يلبث أن يزول، وكيف لثمل أن يتمثل هذه الظواهر التى تحيط به، وما فلسفتها وغايتها عنده، فهل يهرب من هذه التساؤلات فيعيش فى حاضر اللذات، بعيدا عما يشغله من قضايا الزمان والمكان، فلا حاجة للنظر فى هذا الماء المتدفق والمنتشر فى كل بقعة وعلى كل أرض وما يحمله من معنى سواء للدمار أو للتجديد والطهر والنماء للأرض والزرع والحيوان لابد أن تعود الحياة لطبيعتها من جديد، وما هذه الظواهر التى يراها المرء إلا دعوة للتأمل فى المصير الإنسانى.

ويصف الأعشى حركة المرأة الهائئة بمرور السحاب فى هدوء،

يقول:

كان مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

ويقف أوس بن حجر أمام البرق الذي نفى النوم عن عينيه يرصده ويراقبه، ويصف السحاب الذي أخذ يتدفق بالمطر، ويطيل الوقوف أمام المطر الذي تحولت معه الصحراء إلى رياض مخضرة وأودية مرعة، يقول:

إني أرقّت ولم تارق معي صاح	لمستكف بعيد النوم لواح
قد نمت عنى وبات البرق يسهرنى	كما استضاء يهودى بمصباح
يامن لبرق أبيت الليل أرقبه	فى عارض كمضى الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه	يكاد يدفعه من قام بالراح
كان ريقه لما علا شطبا	أقرب أبلق ينفى الخيل رماح
هبت جنوب بأعلاه ومال به	أعجاز مزن يسح الماء دلاح
فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله	وضاق نرعا بحمل الماء منصاح
كانما بين أعلاه وأسفله	ربط منشرة أو ضوء مصباح
ينزع جلد الحصى أجش مبترك	كأنه فاحص أو لاعب داحى
فمن بنجوته كمن بمحفله	والمستكن كمن يمشى بقرواح

ينكر أوس بن حجر على صاحبه أن ينام دونه ويتركه لأرقه مع البرق والمطر، وكأنه يعجب من صاحبه أن تقلت منه هذه المتعة الرائعة وهذا المنظر الخلاب، إنه يشبه لمعان البرق بمصباح اليهودى يوقده فى الليل، يقصد أحبار اليهود وهم يتعبدون بالليل فى معابدهم، وهى صورة مألوفة فى الشعر الجاهلى، وإن تكن فى أكثر مواضعه تتحدث عن رهبان النصارى، على نحو ما رأينا فى معلقة امرئ القيس "أو مصابيح راهب".

ويقف عند صورة البرق فيشبهه وهو يومض فى السحاب بنور الصباح يغمر الأفق بالضياء، وصورة البرق مكرورة أيضا فى الشعر

الجاهلى لما لها من دلالة نفسية عند الشاعر، فهو يهتدى بها فى الظلمات،
وتعيّنه على تأملاته الكونية، وتسوقه إلى تجديد الحياة التى يكون مصير
الإنسان فيها الفناء. إن البرق يلمع فيبدو ما أضاء من السحاب أبيض، ويظل
الباقى أسود، فيتراءى كأنه جواد أبلق يشتد فى عدوه، فيبدو بياض أقربائه،
وباقى جسمه أسود، أما صوت الرعد وهو الملازم للبرق فبدأ صوته يرتفع
فى أعلى السحاب، وأخذت أذانيه تهتز بالماء الذى انشقت عنه، فأخذ ينهمر
بغزارة، وقد انتشر السحاب فى السماء كأنه ملاءات منشورة، والبرق يلمع
من خلاله كأنه ضوء مصباح يتوهج، وأخذ المطر يجرف كل شىء يعترض
طريقه على وجه الأرض، فقد غطاها كلها، فمن كان فى مرتفع من الأرض
أدركه الماء كمن كان فى منخفض منها، ومن كان فى بيته كمن كان فى
العراء.

فإذا نظرنا إلى هذه اللوحة، وجدناها مليئة بالتشبيهات بأشياء مادية
كلها تحس بالسمع، أو البصر، فحين يقول :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه فى عارض كمضى الصبح لماح

تشبيه البرق بالصبح المضى، استعمال لفظ لماح الذى يمثل خطف
البرق تمثيلا حسنا كأنه استعمال هذا اللفظ ليصلح من هذا التشبيه وليحتاط فيه
بعض الاحتياطات فليس ضوء الصبح لمحا، وليس ضوء البرق مستمرا
إنما يريد أوس أن يصور لك قوة ضوء البرق حين يومض حتى وكأنه الصبح
ولكنه يريد فى الوقت نفسه أن يقول إن هذا الضوء لماح لا يقيم ثم
يقول أوس هذا البيت الذى رأى فيه النقاد القدماء أنه أحسن ما وصف به
السحاب.

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

أضاف الهيدب إلى السحاب وقارب بينه وبين الأرض ويقول " يكاد يدفعه من قام بالراح " صورة تبين قوة حظ الشاعر من المادية التي تمثل السحاب قريبا من الأرض حتى لتستطيع أن تمسه بيدك وتدفعه إذا قمت - وهذه صورة - للبرق الذي رآه يضيئ كالصبح في لمعانه، وصورة السحاب وهو يندنو من الأرض حتى ليحس الإنسان أنه يمس خطوطه بيديه أو يدفعه بكفيه ثم يقول أوس بعد ذلك :

كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح

فالسحاب قد انتشر في السماء كأنه ملاءات منشورة، والبرق يلمع من خلاله كأنه ضوء مصباح يتوهج، وهما تشبيهان ماديان محسوسان بالبصر، ثم يقول :

ينزع جلد الحصى أجش مبترك كأنه فاحص أو لاعب داحي

فالمطر يجرف كل شيء يعترض طريقه على وجه الأرض، وفي

ذلك صورة

ثم يقول إن البرق يلمع فيبدو ما أضاءه من السحاب أبيض، ويظل الباقي أسود فيتراعى كأنه جواد أبلق يشتد في عده :

كان ريقه لما علا شطبنا	أقرب أبلق ينفى الخيل رماح
كان فيه عشارا جلة شرفا	شعنا لهاميم قد همت بإرشاح
بحا حناجرها هدلا مشافرها	ترجى مرابيعها في صحصح ضاحي
هبت جنوب بأعلاه ومال به	أعجاز مزن يسح الماء دلاح
فأصبح الروض والقيعان ممرعة	من بين مرتفق منها ومنطاح

تشبيهه بالنخيل مرة، وبالإبل مرة، وصور شعرية تحس حيناً بالبصر،
وحيناً بالسمع، وما كان أهل البادية يتمثلون به في تصوير السحاب، ووصف
العارض على ما نجده في كتب الأغاني، وطبقات الشعراء، والكامل.

فأوس يصف الرعد، وما يحدثه من أصوات عالية، شبهها بأصوات
نوق ضخمة، تحن إلى أولادها.

ويصف النوق التي شبه الرعد بأصواتها بأنها تسوق صغارها نحو
المرعى.

ويقول: إن الأرض اخضرت بعد المطر، وأصبحت رياضها وأوديتها
ممرعة خصبة، بعضها استقر فيه الماء وركد، وبعضها تدفق فيه وانساب،
فالريح تهب من الجنوب، وتأتي بمطر غزير.

ولنجمع خيوط هذه اللوحة من تلك الصور التي احتشدت فيها لنقف
على دقائقها من أول قوله :

إني أرقّت ولم تارق معي صاح لمستكف بعيد النوم لواح
قد نمت عنى وبات البرق يسهمنى كما استضاء يهودى بمصباح

إنه ينكر على صاحبه أن ينام دونه ويتركه لأرقه مع البرق والمطر،
وكانه يعجب من صاحبه أن تغفل منه هذه المتعة الرائعة وهذا المنظر
الخلاب، فهو يشبه لمعان البرق بمصباح اليهودى يوقده فى الليل، يقصد
أحبار اليهود وهم يتعبدون فى الليل فى معابدهم. إن البرق يسبق السحاب
بلمعان شديد، ويشبهه بنور الصباح يغمر الأفق بالضياء، وحين يلمع البرق
يبدو ما أضاءه من السحاب أبيض، ويظل الباقي أسود، فيتراءى كأنه جواد
أبلىق يشتد فى عدوه، فيبدو بياض أقرابه، وباقي جسمه أسود، ويرتفع صوت
الرعد فى أعالي السحاب، وتأخذ أذانيه تهتز بالماء الذى انشقت عنه

فينهمر في غزارة، وينتشر السحاب في السماء كأنه ملاءات منشورة والبرق من خلاله يلمع كأنه ضوء مصباح يتوهج، ويسقط المطر ويجرف كل شيء يعترض طريقه على وجه الأرض، حتى وكأنه يغطيها كلها، فمن كان في مرتفع من الأرض أدركه الماء كمن كان في منخفض منها، ومن كان في بيته كمن كان في العراء.

فيض من الصور يحشدها عبيد بن الأبرص، في وصف المطر، ولعله يرمز من خلال ذلك إلى التقابل بين البقاء والفناء، بين الإحساس العميق بمأساة الإنسان الذي تنتهي حياته بالموت، وكأنه لم يأخذ من متاع الدنيا شيئاً، وبين الإحساس بالثقة والأمل في استمرار الحياة ودوامها وتجديدها كما يجدد السحاب وما يحمله من مطر خصب الحياة على الأرض، كما ينبغي أن نلقت إلى هذه العناصر المتقابلة التي يجمع بينها الشاعر في هذه الصور المركزة والمتراكمة: عناصر البقاء والفناء، وما يتصل بها من صور الصيد والضوء والمطر إلى غير ذلك.

حول القصيدة خلاف بين الرواة فبعضهم ينسبها إلى أوس، وبعضهم ينسبها إلى عبيد بن الأبرص، ولكن أسلوب القصيدة والعناية الواضحة بصياغتها، والحرص على تجويدها وإحكامها، والاهتمام بالجانب التصويري فيها، تجعلنا نرجح نسبتها إلى أوس رأس مدرسة الصنعة الجاهلية، وأحد روادها الأوائل، ويؤكد هذا الترجيح أن الأصمعي الثقة كان يرويها لأوس، ووافقته على ذلك طائفة من رواة الكوفة، وعلى رأسهم المفضل الضبي، ورواة الكوفة أعلم رواة الشعر العربي بالشعر القديم، وكذلك فعل الجاحظ في كتابه "لحيوان".

وقد عرضت للقصيدتين لكل من الشاعرين، وأبرزت لوحة كل منهما عن السيل والبرق من خلال شخصية الشاعر ونظراته لما حوله وتأثره بالبيئة فخرجت

اللوحتان - إلى حد ما - بنظرة واحدة ومفهوم مشترك نحو هذه الظاهرة، وأخذ التفسير شكلاً مغايراً من لوحة إلى أخرى، فقد عرضت للوحة أوس، وأتبعها بلوحة عبید بن الأبرص الذي يقول في غناء حزين، يرد فيه لوم زوجه إياه على إتلافه ماله في شرب الخمر، واصفاً مشاعره من خلال وصفه للسحاب، وما يحمله من مطر ينشر الحياة والخصب في هذه الأرض القاحلة من حوله، في صور متراكمة يستمد مادتها من الحياة الطبيعية من حوله، فيقول:

هبت تلوم وليست ساعة اللاحي	هلا انتظرت بهذا اللوم اصباحي
قاتلها الله تلحاني وقد علمت	أن لنفسي إفسادى وإصلاحى
كان الشباب يلهينا ويعجبنا	فما وهبنا ولا بعنا بأرباح
أن أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمنا	فلا محالة يوماً أننى ضاحى
ولا محالة من قبر بمحنية	وكفن كسرة الثور وضاح
يامن لبرق أبيت الليل أرقبه	من عارض كبياض الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه	يكاد يدفعه من قام بالراح
ينزع جلد الحصى أجش مبترك	كأنه فاحص أو لاعب داح
كأن ريقه لما علا شطبا	أقرب أبلق ينفى الخيل رماح
فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله	وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
كأنما بين أعلاه وأسفله	ريط منشرة أو ضوء مصباح
كان فيه عشاراً جلة شرفاً	شعثاً لهاميم قد همت بإرشاح

فإذا كان عبید بن الأبرص قد أثر شرب الخمر واللهو واللذاعة، ولا يرضى اللوم في ذلك من أحد، فقد لجأ إلى ذلك لعلمه بالفناء الذي يطارده، فماذا بعد الشباب ولذة العيش، سوى القبر الذي سيضمه بمحنية وكفن كسرة الثور وضاح، وهو في هذا الفعل يجارى أتراه من الشعراء أمثال طرفة بن

العبد وغير الذين سلخوا مسلك المتأملين فى نهاية المصير الإنسانى، وحقبة الحياة والفناء، فخرجت نظرتهم ذات فلسفة عميقة فى تعاملهم مع ما يحيط بهم، فلينفق المرء ما وسعه الإنفاق، وليقبل على مجالس الخمر، وليمض الأيعام فى اللهو واللذابة، غير عابئ بشيء سوى سعادة اللحظة التى يحيها، فكل شيء لا محالة منته إلى دمار وفناء ولن يبقى سوى أن تعاود الحياة حركتها من جديد، ليواصل الآخرون تأملاتهم فى الكون وفى ظواهره المتمثلة فى السيول والأمطار والبروق والرعود، وما يكون لها من تأثير فى مفاهيمهم وأفكارهم ودلالاتهم التى يفسرون من خلالها هذا الواقع الذى يصطدمون به فى حياتهم، من أجل ذلك اندفعوا إلى عالم "الخمر" يضيعون فيه، ويتوغلون فى مجاهله، لعله يخفف من وطأة الوعى وعناء التفكير، ويعمق إحساسهم بواقعهم المعيش.

ومن المدهش أن نجد نوعا من التراسل بين المطر والخمر عند الشعراء، فكلاهما يرفد الآخر بالانسياب والصفاء، ومن ثم يكون التآلف بينهما صالحا لأن يعمل به برد أنياب المحبوبة، يقول امرؤ القيس:

كان المدام وصبوب الغمام ورييح الخزامى ونوب العسل
يعل به برد أنيابها إذا النجم وسط السماء استقل

بل إن هذا التراسل قد يتحول فى بعض السياقات إلى طبيعة واحدة، بحيث يصبح ماء المطر عنصرا من الخمر، فتمتزج به لتطيب للشاربين:

كان التجار أصعدوا بسبيئة من الخمر ص حتى أنزلوها على يسر
فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه وشجت بماء غير طرق ولا كدر
بماء سحاب زل عن متن صخرة إلى بطن أخرى طيب ماؤها خصر

فالماء الذى مزجوا به الخمر من ماء السحاب، انحدر على صخرة
متسربا إلى بطن صخرة أخرى لم يمس التراب ولم يلوثه شيء، فهو رائق
صاف بارد، فهم يختارون الماء صافيا نقيا كصفاء الخمر ونقاؤها.

(٣)

لوحة الصيد

فى هذا العصر نجد عند شعرائه لوحات متكاملة فى وصف السيل والصحراء والمرأة، وهى لوحات تضج بالحركة والحياة والصراع.

ولعل من أبرز هذه اللوحات لوحة الصيد، وهى لوحة تكاد تكون دائمة فى القصائد الجاهلية الكاملة.

إن لوحة الصيد محكومة بتقاليد فنية وموضوعية لا تخرج عليها، وخصوصا حين يكون "الثور" هو الصيد المطلوب، فالصائد مجد فى تتبع الثور الذى يظهر دائما على مسرح الأحداث وحيدا، قلقا، ضامرا، جائعا، وهو لذلك يطلق عليه كلابه فى موعد بزوغ الشمس فى مطاردة عنيفة تلح فيها هذه الكلاب على إيذائه ومطاردته إلحاحا غريبا، ولكن هذه المطاردة العنيفة محكومة فى كل القصائد بنهاية محتومة هى قتل الكلاب، ونجاة الثور قبل مغيب الشمس. وهذا الثور المنتصر ينفرد دائما بنفسه تحت شجرة الأروطاة يفكر فى مصيره، ويتطهر بماء المطر بعد تلك المعركة الشرسة التى خاضها فى مواجهة قوى الشر وهو يجلس وكأنه يصلى، والمهم أنه لم يحدث ولو مرة واحدة أن قتل الصائد ثورا فى شعر الجاهليين القصص إلا فى شعر صدر الإسلام.

يقول الجاحظ: "من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هى التى تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحا وقال كأن ناقتى بقرة من صفاتها كذا وكذا أن تكون الكلاب هى للمقتولة. ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما حرصت

الكلاب، وربما قتلتها، وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة، والكلاب هى السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم.

فاتنظر إلى لوحة زهير، الذى بصور فيها معركة تشترك فيها بقرته الوحشية، يشبه بها ناقته فى سرعتها وعدوها، فوصفها ومضى يستكمل وصفها مستطردا إلى مطاردة الصائد لها، بينما تفترس السباع أحد أفلاذ كبدها، يقول :

كخنساء سفعاء الملائم حرة
غدت بسلاح مثله يتقى به
وسامعتين تعرف العتق فيهما
وناظرتين تطحران قذاهما
طباها ضحاء أو خلاء فخالفت
أضاعت فلم تغفر لها غفلاتها
وما عند شلو تحجل الطير حوله
وتنفض عنها غيب كل خميلة
فجالت على وحشيها وكأنها
ولم تدر وشك البين حتى رأتهم
وثاروا بها من جانبيها كليهما
تذبذبا الآلى يأتينها من ورائها
فأنقذها من غمرة الموت أنها
نجاه مجد ليس فيه وتيرة
وجدت فألقت بينهن وبينها
بملائمات كالخذاريف قوبلت
كان نماء المؤسسات بنحراها
إلى جذر مدلوك الكعوب محدد
كأنهما مكحولتان بإئتمد
إليه السباع فى كناس ومرقد
فلاقت بيانا عند آخر معهد
وبضع لحام فى إهاب مقدد
وتخشى رماة الغوث من كل مرصد
مسربلة فى رازقى معضد
وقد قعدوا أنفاقها كل مقعد
وجالت وإن يجشمنها الشد تجهد
وإن تتقدمها السوابق تصطد
رأت أنها إن تنتظر النبيل تقصد
وتذيبها عنها بأسح مذود
غبارا كما فارت دواخن غرقد
إلى جوشن خاظى الطريقة مسند
أطبة صرف فى قضيم مسرد
مسافرة مزود أم فرقد
ويؤمن جاش الخائف الـمتوحد

وصف جسدى ونفسى، فهي خنساء، فى خدودها حمرة مشربة بسواد، وهذه صورة مفصلة لجسدها ولون خديها وعينيها، يعتمد فى إخراجها على الحواس، ويتخذ من الأسلوب الشعري طريقا إلى وصف المعانى، فى أناة وحرص.

فحين صور ناقته وصفها بالسرعة كعادة الشعراء، وربما كانت صورة لنفسه يصور فيها مواجهة بين ظروف الحياة.

لقد كانت الصورة وسيلة زهير إلى الوصف، فلا نجد فيها هذا الحشد من التشبيهات التى نراها عند امرئ القيس، وغيره من شعراء هذه المرحلة المبكرة من حياة الشعر الجاهلى، فصوره تتضامن وتتكامل لتكون هذه الصورة الكبيرة، ويتم هذا البناء الشعري المتكون من الصور الجزئية المتزاحمة فى قصائده.

وهو يبتث الحركة والحياة فى صورته، ويميزها باللون والمكان والزمان، وهو هنا فى هذه اللوحة يعرض للصور الآتية:

اللوحة الأولى: البقرة فى هينتها الجسدية والنفسية لمواجهة الأحداث إن يقرة زهير خنساء فى خدودها حمرة مشربة بسواد، وهى طليقة فى الصحراء، وتنتقل من مكان إلى مكان مذعورة فقد خلفت ولد لها فى كناس وهى تخشى عليه من السبع والإنسان وإنما لشاكية السلاح، كأنها معدة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم، فقد برز لها قرنان وإنهما حريان بأن يقياها الخطر ويؤمنا وحدتها وخوفها، فهما محددان ألسان كأنهما السيوف القاطعة، ومن ورائهما أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ، وباصرتان سوداوان كأنهما مكحولتان تحد بهما النظر إلى ما حولها.

إن بقرة زهير خرجت تطلب الرى والرعى، وعاودها الحنين إلى
ولدها فعادت.

اللوحه الثانية : ذعر البقرة لما أصاب وليدها . لقد رأت بقرة
زهير بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء، والطير تحجل حوله، فحزنت حزنا
عميقا وفقدت أملها فى الحياة.

اللوحه الثالثة : وصف معركة الصيد عادت بقرة زهير تجرى فى
الصحراء مذعورة تتلفت يمينا وشمالا، وقد أخذها الذعر، فهى تخشى رماة
عشيرة الغوث الذين تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد،
ومرت على جانبها الأيمن، كأنها تظنه أكثر أمنا، وهى تتراءى فى لونها
الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل، ولم تكن تدرى أن
الموت لها بالمرصاد، حتى رأت الرماة وقد أرسلوا عليها كلاب الصيد،
فولت مسرعة، والكلاب تلاحقها، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة
الموت يسعفها قرنفا الأسود وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار، ويصور
زهير سرعة قوائمها وخفة حركتها بخذاريق الصبيان التى يديرونها دوراننا
سريعا بخيوط يشدونها إلى أيديهم، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة
فى وصف سرعة فرسه، إذ قال فيه:

دريز كخزروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل

لكن زهيرا جدد فى هذه الصورة فجعل القوائم ملتزمات متناسقات كما
جعلها متقابلات، فهى كخذاريق لا كخزروف واحد، يقابل بعضها بعضا.

وهكذا نرى صوراً يلى بعضها بعضا فى قالب قصصى يروى
فيه خير ما روى الجاهليون أمثال النابغة وليبيد والأعشى من وصف
الصيد.

ويقدم لنا زهير صورة في وصف النبات والمطر والغرس، والصيد،
تنبض بالحياة والحركة، كأنك تشاهدها، مبينا معنى التدرج الذي يلزم
صوره المتحركة، إلى جانب اهتمامه بإبراز اللون، يقول:

وغيث من الوسمى جو تلاعه
هبطت بممسود النواشر سابح
تميم فلوناه فأكمل صنعه
أمين شظاه لم يخرق صفاقه
إذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة
فبيننا نبغي الصيد جاء غلامنا
فقال: شياه راتعات بقفرة
ثلاث كأقواس السراء ومسحل
وقد خرم الطراد عنه جحاشه
فقال أميرى ما ترى رأى ما نرى
فبتنا عرأة عند رأس جوادنا
ونضربه حتى اطمأن قذاله
سجمنا ما إن ينال قذاله
فلأيا بلأى ما حملنا ولیدنا
فقلت له سدد وأبصر طريقه
وقلت تعلم أن للصيد غرة
فتبع آثار الشيه ولیدنا
نظرت إليه نظرة فرأيته
يثرن الحصافى وجهه وهو
فرد علينا العير من دون إلفه
أجابت روابيه النجا وهواطله
ممر أسيل الخد نهد مراكله
فتم وعزته يداه وكامله
بمنقبة ولم تقطع أباجله
متى نره فإننا لا نخاتله
يدب ويخفى شخصه ويضائله
بمستأسد القرين حو مسائله
قد أخضر من لس الغمير جحافله
فلم تبق إلا نفسه وحلائله
أنخثله عن نفسه أم نصاروله
يزاولنا عن نفسه ونزاوله
ولم يطمئن قلبه وخصائله
ولا قدماه الأرض إلا أنامله
على ظهر محبوبك ظماء مفاصله
وما هو فيه عن وصاتى شاغله
وإلا تضيعها فإنك قاتله
كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله
على كل حال مرة هو حامله
لاحق سراع توأليه صياب أوائله
على رغه يدمى نساء وفائله

اللوحه الأولى : مطر يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد، وقد انتشر فيها النبات بلونه الضارب إلى السواد، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق أشد ما يكون قوة.

اللوحه الثانية : صورة للغلام الذى ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية فى الصحراء، وقد جاء يدب ويخفى شخصه وبيضائه، وقد رسم الشاعر حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفى شخصه حتى لا تفزع الوحوش، ثم يخبرهم أنه رأى ثلاث أتن وحشية ضامرة كأقواس السراء، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره.

اللوحه الثالثة : أقبل الصباح فألجم الغلام الجواد وهو لا يكاد يطوله لضخامته وهم حريصون على طلب الصيد حتى أحس الجواد ما هم فيه وهم يجاهدونه ويضربونه، حتى اطمأن وأمكنهم منه، غير أنه لا يزال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد، والغلام يطارد الصيد وهو فى شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره فى تلك المعركة، وتأتى مطاردة الغلام للأتن وحمارها وكيف انصب عليها كأنه شؤبوب أو صاعقة من السماء، وهى تثير الحصى فى وجه فرسه، والفرس لا ينتهى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحيبه، وصاده الغلام، وجئ به جريحا تنزف دماؤه.

وصف لسقوط المطر على المرتفعات والوهاد وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد ويصف فرسه المحكم الخلق للقوى وزهير من خلال ذلك يصور أحاسيسه وهواجسه فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية.

ثم يصف للصيد فيرسم الغلام رسما دقيقا فى حركته وسيره محاولا إخفاء نفسه حتى لا تفزع الحيوانات.

ثلاث أتن وحشية ضامرة كأقواس السراء ومعها حمارها اخضرت
مشافره من النبات وفي هذا دقة فى التصوير حيث يعطى من ألوان الأشياء
مع التفاصيل باتوا يروضون الجواد حتى الصباح فألجمه برغم ضخامته.

يبدع زهير فى الوصف فهم مفزعون من حرصهم على طلب الصيد
وقد أحس الجواد ما هم فيه وما ينتظره من الصباح الباكر فأخذه للخوف.

إن زهيراً مصوراً بارعاً حيث صور الهياكل الجسدية والأحوال
النفسية فيما يصفه من تصور مطاردة الغلام للأتن وحمارها عن طريق
التشبيهات ومن حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية.

يقول الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى الصورة عند زهير:

"لا يكتفى بالتفصيل ولا باستعمال العبارات التى تجعل الأشياء كأنها
منظورة بل هو يضيف "التدبيح" أى لون موصوفاته إلى تصويره حتى يأخذ
الشكل، ويستتم الوصف".

ولزهير بن أبى سلمى، براعة ودقة فن فى التصوير وهو يصف
الوحش والصيد، وقد طور زهير صورته ونماها بحيث يعد فى الطليعة من
شعراء الجاهلية فى وصف الوحش والصيد، فجسم للصور، ومثل الحيوان
بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة.

وقد وصف زهير رسوم دار صاحبه، وقد ألم بها بعد عشرين عاماً
فلم يجد بها إلا بقر الوحش والظباء، يقول:

بها العين والأرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

إنها لوحة يعرض فيها منظر البقر والظباء فى بعض مواضع البادية عرضا كاملا إذ نتمثلها وهى تمشى فى جهات متضادة، وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك، ناهضة من كل موضع.

ولوحة أخرى يصور فيها ناقته بظلم وبصفا دقيقا حين يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره الدائم وانطلاقه المستمر فى الصحراء لا يلوى على شىء، يقول:

كان الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء
أصك مصلم الأذنين أجنى له بالسى تنوم وآء

اللوحة الأولى : ظلم صغير الرأس، متقارب العرقوبين، ليس لأذنيه حجم، يرمى فى السى بعض أشجار البادية، سريع فى حركة دائبة، صدره فارغ كأنما لا قلب له ولا عقل، فهو يعتسف الصحراء اعتساف من يسرع فى العدو هربا من شىء مخيف فلا يكاد يقف.

اللوحة الثانية : ناقة سريعة شبيهة بحمار وحشى يسوق أته سوقا عنيفا ليرد بها ماء، وهو لا يغفل عنها، خاضعة لمشيئته، يدعوها فى كل فجر فتجيب، وصور هذا الدعاء تصويرا بديعا، فقال :

كان سحيله فى كل فجر على أحساء يمشود دعاء

فهو ينادى أته كل صباح كى يرد بها للحياض والمناهل، وهى تلبيه.

كذا نرى أن الصورة تطورت عند زهير بن أبى سلمى بحيث يعد فى الطليعة من شعراء الجاهليين فى وصف الوحش والصيد، فبخياله الدقيق جسم الصور، ومثل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة، فى لوحات متكاملة.

وهذا امرؤ القيس، يرى قطيعا من بقر الوحش أبيض اللون، فينادى بعضهم على بعض من أجل الصيد، ويستعد الفرس للمطاردة، وكان تتاديهم مرتبطبا بعقد عذار الفرس، كناية عن السرعة، وعنف الجواد ونشاطه وامتناعه عن الركوب وكان المطر شديدا، ورغم ذلك كان الحصان يجرى فى سرعة كأنه ملتهب بنار، وحين يزجر يجرى كالمجنون المنعب أى الذى يستعين بعنفه فى الجرى، وقد أدرك صيده دون تعب ولم يثن شأوه أى أنه أدركها فى شوط واحد ولقد ألهب الحصان ظهر الأرض بجريه حتى تظن الفئران أن المطر قد نزل فيخرجن من قاع الأرض إلى ظهرها .

بعد معركة الصيد صرع بعض الثيران، ودافع بعضها الآخر عن نفسه بقرون حادة كحد المخراز، وبعد أن فرغوا من صيدهم أقاموا بيوتاً من أسلحتهم، وبعد إنتهاء الرحلة وضعوا ما تبقى من اللحم فى حقائب بين معتلة وغير معتلة، يقول :

فبيننا نعاج يرتعين خميلة	كمشى العذارى فى الملاء المهذب
فكان تتاديننا وعقد عذاره	وقال صحابى قد شأونك فاطلب
فلأيا بلأى ما حملنا وليننا	على ظهر محبوبك السراة محتسب
وولى كشؤبوب العشى بوابل	ويخرجن من جعد ثراه منصب
فللساق ألهوب وللسوط درة	وللزجر منه وقع أهوج منعيب
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه	يمر كخزروف الوليد المتقرب
ترى الفأر فى مستنقع القاع لاحبل	على جدد الصحراء من شد ملهيب
خفاهن من أنفاقهن كأنما	خفاهن وبق من عشى مجاب
فعادى عداء بين ثور ونعجة	وبين شبوب كالقضية قرهيب
وظل لثيران الصريم غماغم	يداعسها بالسهمرى المعلب
فكاب على حر الجبين ومتق	بمدرية كأنها ذلق مشعب

وقلنا لفتيان كرام ألا انزلوا
 وأوتاده مازية وعماده
 وأطنابه أشطان خوص نجائب
 كأن عيون الوحش حول خيانتنا
 نمش بأعراف الجياد أكفنا
 ورحنا كأننا من جوائى عشية
 وراح كتيس الربل ينغض رأسه
 كأن دماء الهاديات بنحره
 وأنت إذا استكبرته سد فرجه
 فعالوا علينا فضل ثوب مطنب
 ردينية فيها أسنة قعضب
 وصهوته من أتحمى مشرعب
 وأرحلنا الجزع الذى لم يتقب
 إذا نحن قمنا عن شواء مضهب
 نعالى للنعاج بين عدل ومحقب
 أذاة به من سائك متحلب
 عصارة حناء بشيب مخضب
 بضاف فوق الأرض ليس بأصهب

وفى لوحة الصيد عند امرئ القيس نراه يعتز بفرسه المستعد للمعركة،
 وهو حين أراد أن يقرب لنا للصورة جعلها شبيهة بعقاب فى الانقضاض
 والسرعة والقوة والجرأة، يقول:

قد أشهد الغارة للشعواء تحملنى
 كأن صاحبها إذ قام يلجمها
 إذا تبصرها الرلزون مقبلة
 وقفها ضرر وجريها جنم
 واليد سابحة والرجل ضارحة
 والماء منهمر والشد منحدر
 كأنها حين فاض الماء واحتقلت
 فأبصرت شخصه من فوق مرعبة
 فأقبلت نحوه فى الجو كاسرة
 صبت عليه وما تنصب من أمم
 جرداء معروفة للحيين سرحوب
 مفد على بكرة زوراء منسوب
 لاحت لهم غرة منها وتجييب
 ولحمها زيم والبطن مقبوب
 والعين قلاحنة والمتن سلحوب
 والقصب مضطمر واللون غريب
 صقعاء لاح لها بالقزة الذيب
 ودون موقعها منه شناخيب
 يحثها من هوى الريح تصويب
 إن الشقاء على الأشقين مصبوب

كالدلو ثبت عراها وهى متقلبة
 لا كالتى فى هواء الجو طالبة
 كالبز والريح فى مرأهما عجب
 فأدر كته فنالته مخالباها فأنسل
 يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت
 ثم استغاثت بمستن الأرض تعفوه
 فأخطأته المنايا قيس أنملة
 يظل منحجرا منها يراقبها
 والخير ما طلعت شمس وما غربت
 إذ خانها ودم منها وتكريب
 ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب
 مافى اجتهاد على الإصرار تعيب
 من تحتها والدف معقوب
 منها ومنه على الصخر الشأبيب
 وباللسان وبالشدين تثريب
 ولا تحرز إلا وهو مكتوب
 ويرقب الليل إن الليل محجوب
 مطلب بنواصى الخيل معصوب

وامرؤ القيس كسويد اليشكرى نجد عنده صورة للناقة والرحل فوقها
 كالحمار الوحشى، راسما هربه من كلاب الصيد تشد وراءه وهو يخلف فى
 حربه سحابا من الغبار يكسو الكلاب ثياب النذل والخيبة .

وصورة للحمار وهو جائع ظامئ طاول الحشا، خائف متوجس حذر
 متربص، فهو كالضبع إذ يهيل التراب ليهيئ فراشا لنومه ساعة الظهيرة، ثم
 يغفو كالأسير المقيد، وصورة للثور الوحشى الذى قصد الصائدان بكلابهما
 إلى صيده بذى الرمث، وقد استمات الثور فى دفعهن عنه يوم أنفس، يوم
 ذهاب نفوس، فإما نفسه وإما نفوس الكلاب فقد أخذت الكلاب تعضه لما
 أدركته وتجنبه من ساقه كما تجذب الأولاد ثوب الراهب الذى يأتى بيت
 المقدس حاجا، يتمسحون بها ويجذبونها تبركا بها، ويا حسن حظ من تخرج
 فى يده قطعة من ثوبه، كذلك فعل الكلاب بالثور.

والطريف فى هذه الصورة، أن الحمار الوحشى يتصور خاتمته، وقد أدركته الكلاب، وأمسكت به فمزقته تمزيقا، كما يمزق الغلمان ثياب الرهبان، وهم يتبركون بهم ويلتمسون منهم المغفرة يقول:

وأيقن إن لاقيته أن يومه بذى الرمث أن ما وتته يوم أنفس
فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس
وغورن فى ظل الغضى وتركنه تحفل الهجان الغادر المتشمس

وصور سويد الشكرى ثوره الوحشى مع كلابه، ومطاردة الصيادين للثور يجرى أمامهم، وهم يلحقون به فى مشاهد تفصيلية تشعرك بواقعية الأحداث، يقول:

فكأنى إذ جرى الآل ضحى فوق نبال بـخديه سفع
كف خداه على دبياجة وطفى للمتئين لون قد سطع
يبسط المشى إذا هيجته مثل ما يبسط فى الخطو الذرع
راعه بين طيئ نو أسهم وضراء كن يبلين الشرع
فرآهن ولما يستبن وكلاب الصيد فيهن جشع
ثم ولى وجنابان له من غبار أكرى واتدع
فتراهن على مهلته يختلين الأرض والشاة يلع
دانيات ما تلبسن به ولقعات بدماء إن رجع

شبه ناقته بالثور للوحشى طويل للذنب فى لونه الأسود للضارب إلى الحمرة، جمع وجهه يلف على دبياجة لسواده، ومته أبيض قد سطع، ووجه الثور وقوائمه مخالف لسائر جسده لأن جسده أبيض وقوائمه ضاربة إلى الحمرة فى سواد ومته أبيض قد نصع وقد رأى للثور الكلاب ولم يستبنهن مع دنوهن منه، لم يخالطنه خوفا، عالمت أنه إذا رجع عليهن جرهن بقرنه ودماهن.

لقد وصف سويد الثور الوحشى أيضا مكملا صورته بأنه ضافى
الذيل أسيل الخد أسود الفخذين فى حمرة تكسوهما جمالا وتكسيهما رونقا،
ورسم صورة له حين يعرض له الصياد وكلابه فى حركة ونشاط .

أما ناقة عمرو بن قمينة فيشبهها بحمار وحشى ثم ينتقل إلى وصف
منظر الصيد الذى يدور بين صياد فقير وقطيع من الأتن الوحشية يسوقها هذا
الحمار، وينتهى بنجاة القطيع وعودة الصياد مخفقا إلى زوجته وأولاده الجياع
المنتظرين عودته بطعامهم، يقول:

وكنت إذا الهموم تضيفتنى	قريت الهم أموج دوسريا
بويزيل عامه مردى قذاف	على التأويب لا يشكو الونيا
يشيح على الفلاة فيعتليها	وأزرع ما صدعت به المطيا
كأنى حين أزجره بصوتى	زجرت به مدلا أخدريا
تمهل عانة قد نب عنها	يكون مصامه منها قصبيا
أطال الشد والتقريب حتى	نكرت به ممرا أندريا
بها فى روضة شهري ربيع	فساف لها أديما ألدصيا
مشيحا هل يرى شبحا قريبا	ويوفى دونها العلم العليا
إذا لاقى بظاهرة حيقا	أمر عليهما يوما قسيا
فلما قلصت عنه البقايا	وأعوز من مراتعه اللويا
أرن فصكها صخب دؤول	يعب على مناكبها الصيبيا
فأوردها على طمل يمان	يهل إذا رأى لحمًا طريا
له شريانة شغلت يديه	وكان على تقادها قويا
وزرق قد تتخلها لقضب	يشد على مناصبها النضيا
تردى براءة لما بناها	تبوأ مقعدا منها خفيا

فلما لم يرين كثير ذعر	وردن صوابيا وردا كمييا
فأرسل والمقاتل معورات	لما لاقت ذاعفا يثربيا
فخر للنصل منقعا رثيما	وطار القدح أشناتا شظييا
وعض على أنامله لهيفا	ولاقي يومه أسفا وغييا
وراح بحرة لهفا مصابيا	ينبئ عرسه أمرا جلييا
ولو لطمت هناك بذات خمس	لكانا عندها حنئين سييا
وكانوا واثقين إذا أتاهم	بلحم إن صباحا أو مسييا

إن الهموم إذا نزلت ضيوفا عليه قدم لها حقوق ضيافتها رحلة على هذا الجمل القوي الجرى ينطلق فيها إلى أعماق الصحراء، وهذا الجمل صبور على مشقات السفر وأهوال الرحلة التي يسبق فيها الإبل الأخرى التي ترفقه، وهذا الجمل كالحمار الوحشى فى قوته وصبره وتحمله ويصف قطيع الأتكن اللوحشية بأن نكرها يسوقها متمهلا ويدافع عنها، ويتخذ موقفه بعيدا عنها، ليراقبها ويراقب الفضاء من حولها، حتى لا يفاجئها خطر من أى ناحية، فحماره الوحشى ضامر محكم الخلق موثق البنيان، وهو أسرع بإنائه إلى روضة خصبة أخذ يتشمم أرضها التى أخذ نباتها ينمو، ليطمئن إلى جودة مرعاها وقد بدأ الصراع الشديد بين الذكرين للظفر بهذه الإناث فى بداية جفاف المرعى الذى نزل به هذا القطيع تمهيدا لرحلته عنه بحثا عن مرعى جديد إن هذا الحمار أخذ يسوق إنائه سوقا عنيفا، فمد صوته صائحا بها، وراح يضربها ضربا شديدا، ويغمزها فى مناكبها، وهو يصور الصياد المتربص بها، ويقول إنه صياد فقير من أهل اليمن ينتظر فى لهفة صيدا سمينا، وتمتلئ نفسه بالفرحة كلما رآه، ويستمر فى وصفه للصياد وما أعده من قوس وسهام خرج بها ليضمن ظفره بالصيد الذى سعى وراءه، وحين لطمأنت الأتكن ولم تجد ما يخيفها مضت إلى ماء بعيد خفى فى جوف الصحراء لتطفئ ظمأها وقد أرسل الصياد سهما نحو القطيع لكنه أخفق فى

إصابته، وملاً الغيظ نفسه حين رأى سهامه تطيش فعاد خائبا إلى زوجته، وكانت عودته بمثابة لكمة على وجهها، وهو يصور ضياع أمل أولاده فى عودة أبيهم بلحم الصيد الذى خرج من أجله، والذى كانوا على ثقة من عودته به فى أى وقت من الليل أو النهار .

ويصف ربيعة بن مقروم، ناقته السريعة مشبها إياها بغير يطرد إنائه، وقد تركهن عطاشا زمانا طويلا حتى إذا لحقن بالماء لم يقربنه حتى أرادهن الصائد فراحت من الذعر تغرى الأديما:

كأنى أوشح أنساعها أقب من الحقب جأبا شتيمًا
يحلئ مثل القنا نبلا ثلاثا عن الورد قد كن هيمًا

إلى قوله:

فأخطأها فمضت كلها تكاد من الذعر تغرى الأديما

فهو يشبه ناقته بالغير الوحشى، وساق الحديث عنه وعن ألقته وسلطانه عليها، ووصف الصائد يتربص بها عند الماء، وكيف فرت منه، ليجعل ذلك شبيها لسرعة ناقته

يقول الدكتور ابراهيم عبد الرحمن فى كتابه الشعر الجاهلى: " فالشاعر عند تشبيهه الناقة بالثور لابد أن يحافظ على حياة هذا الثور حتى تنقضى الرحلة، ويخرج من هذه الصحراء الموحشة، لأن رحلة للحياة الموحشة تحتاج إلى القوة دائما، والخروج من الصحراء ليس بالأمر اليسير وإن لابد من صراع ما يرمز إلى الأهوال التى يواجهها الشاعر أثناء رحلته، وتحديد لهذه الصعوبات والأفكار، والتغلب عليها، ومن ثم يصور الثور الوحشى فى صراعه لحظة التحدى التى تواجه كل من يروم غاية نبيلة أو مثلا أعلى وما أشبه حال الشاعر العربى فى صحرائه بذلك كله " .

وليبيد بن ربيعة يفصل فى وصف حال حمار الوحش تفصيلا يطلعك على نوع مما يجرى بقلبه من إنفعالات الغيرة والحرص على أنثاه، حرصا لا يقاربه فيه إلا الإنسان، وهو إذ يفعل ذلك يتتبع تلك الإنفعالات النفسية الطارئة على الذكر فى حالته هذه تتبعا دقيقا وافية، ويصف من أحواله وأحوال أنثاه مالا وراء فى أن عناصره مستمدة من إحساسات صاحب الشعر نفسه، وتجاربه .

وليبيد لا يكتفى بهذه الصورة فى تشبيه راحلته، ولكنه يشبهها أيضا بالبقرة الوحشية التى فقدت ولدها بعد أن تركته تابعة قطيعها، فافتقرسته الذئب للكواسر، فلما افتقدته عادت باحثة عنه، حيرى والهة، جازعة، تروح هنا وهناك، يتردد بغامها بين كثبان الرمال، تحاول أن تجد ابنها فلا تجده، ويمضى النهار، ويحط الليل، ويسيل المطر يروى الرياض ويتحدر على جانبي ظهرها، متواترا، لا ينقطع، فى الليل المظلم البهيم، الذى حجبت فيه النجوم الغيوم، فيشتد خوفها، وتأوى إلى جذع شجرة قالص، قد نبت فى أصل كثيب منعقد من كثبان الرمال بمبعدة عن مواطئ الأقدام والمخاوف، وتلبث هناك برهة، موزعة بين مطلب الحياة، ومطلب الأمومة، فى حيرة من أمرها، أتحمى نفسها، أم تبحث عن طفلها؟ ولكن الأمومة غل لا يتحطم، فهى فى حيرة من أمر ابنها، أين تذهب به، وقد أودع فى ضرعها لبنها، حيرة لا تلبث معها أن تستجيب لدعاء الأمومة، فتبأرح ملجأها، وتعود للتعرض لما تعرضت له من قبل، وتضئ البروق فى ظلمة الليل فتبدو البقرة تحت ضيائها بيضاء، تلتمع كأنها جمانة البحرى سل نظامها .

وتظل فى هذه الحيرة تتردد حول غر صعائد سبع ليال كاملة وأيامها، حتى إذا دب اليأس إلى نفسها، وضمض ضرعها، وجف لبنها لمالم ترضع طفلها طول هذه المدة، فاجتمع عليها اليأس من لقاء ابنها، وقطعت

الطبيعة بينها وبين ابنها القطع الذى يمثله جفاف لبنها، فى هذه اللحظة التى يبلغ فيها الضعف البشرى بالأم نروته، وتكاد تتحطم عنده أعصاب أقوى الكائنات، يبتليها القدر بالصيدا وهى لا تعرف مكنه، ولكنها تدرك إدراكا غريزيا أن هناك خطرا يتهددها، فهى ترهف للسمع مرتاعة، تتحسس صوت الإنسان والإنسان سقامه يقول :

أفتلك أم وحشية مسبوعة	خذلت وهادية الصوار قوامها
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم	عرض للشقائق طوفها وبغامها
لمعفر قهد تتنازع شلوه	غبس كواسب لا يمن طعامها
باتت وأسبل واكف من ديمة	إن للمنايا لا تطيش سهامها
صادفن منها غرة فأصببها	يروى للخمائل دلتما تسجلها
يعلو طريقة متها متوات	فى ليلة كفر النجوم غماما
تجتاف أصلا قالصا متبذا	بعجوب أنقاء يميل همامها
وتضى فى وجه الظلام منيرة	كجمانة للبحرى سل نظلمها
حتى إذا أنحسر الظلام وأسفرت	بكرت تزل عن الثرى أزلامها
علت تردد فى نهاء صعائد	سبعا تؤولا كـاملا أيلماها
حتى إذا ينست وأسحق خالق	لم يبيله لإرضاعها وفظامها
فتوجست رز الأنيس فرعها	عن ظهر غيب والأنيس سقلماها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه	مولى للمخافة خلفها وأمامها
حتى إذا ينس الرماة وأرسلوا	غضفا دواجن قافلا أعصامها
فلحقن وأعتكرت لها مديرة	كالسهمرية حدها وتمامها
لتنودهن وأيقنت إن لم تذد	أن قد أحم من الحثوف حمامها
فتقصدت منها كساب فخرجت	يدم وغودر فى المكر سخامها
فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي	واجتاب أودية السراب إكامها

أفضى اللبانة لا أفرط ربيبة أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبال جدامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيد لهوها وندامها

أناقتى تشبه تلك الأتان أو هذه البقرة التى خذلت ولدها
وذهبت ترعى مع صواحبها وجعلت هادية الصوار قوام أمرها
فافترست السباع ولدها فأسرعت فى السير طالبة لولدها، وصائحة
فيما بين الرمال إنها تجد فى الطلب لأجل فقدها ولدا قد ألقى على
أديم الأرض وافترسته كلاب أو ذئاب صوائد قد اعتادت الاصطياد،
وبقر الوحش بيض ماخلا أوجهها وأكارعها.

لقد باتت البقرة بعد فقدها ولدها وقد أسبل مطر واكف من
مطر دائم يروى الرمال المنبئة، والأرضين التى بها أشجار فى حال
دوام سكبها الماء، أى باتت فى مطر دائم الهطلان، وواكف يجوز أن
يكون صفة مطر ويجوز أن يكون صفة سحب.

إن البقرة الوحشية تستتر من البرد والمطر بأغصان الشجر ولا
تقيها البرد والمطر لتقلصها، وتنهال كئيبان الرمل عليها مع ذلك
وتضى هذه البقرة فى أول ظلام الليل كدرة الصدف البحرى أو
الرجل البحرى حين سئل النظام منها، شبه البقرة فى تلاكؤ لونها
بالدرة وإنما خص ما يسئل نظامها إشارة إلى أنها تعدو ولا تستقر كما
تتحرك وتتقل الدرة التى سئل نظامها، وإنما شبهها بها لأنها بيضاء
متلائة ماخلا أكارعها ووجهها حتى إذا انكشف وانجلى ظلام الليل
وأضاء بكرت البقرة من مأواها فتزل قوائمها عن التراب الندى لكثرة
المطر الذى أصابه ليلا، فأمعنت فى الجزع وترددت متحيرة فى وهاد

هذا الموضوع ومواضع غدرانه سبع ليال تؤلم للأيام وقد كملت أيام تلك الليالي، أى ترددت فى طلب ولدها سبع ليال بأيامها، وجعل أيامها كاملة إشارة إلى أنها كانت من أيام الصيف وشهور الحر، حتى إذا يأست البقرة من ولدها وصار ضرعها للممتلئ لبنا خلقا لانقطاع لبنها "ولم يبل ضرعها إرضاعها ولدها ولا فطمها إياه وإنما لبلاء فقدوا إياه" إنها سمعت صوتا ولم تر صاحبه فخافت ولا غرو أن تخاف عند سماعها صوت الناس لأن الناس يبيدوننا ويهلكونها، والتقدير فتسمعت رز الأئيس عن ظهر غيب فراعها والأئيس سقامها إنها لم تقف على أن صاحب الرز خلفها لم أمامها فغدت فرعة مذعورة لا تعرف منجأها من مهلكها لقبلت البقرة على الكلاب وطعننها بهذا القرن الذى هو كالرماح عطفت البقرة وكرت لترد وتطرد الكلاب عن نفسها وليقنت أنها إن لم تندها قرب موتها من جملة حتوف الحيوان، أى أيقنت أنها إن لم تطرد الكلاب قتلها للكلاب فقالت البقرة كساب من جملة تلك الكلاب فحمتها بالدم وتركت سخاما فى موضع كرها صريعة، أى قتلت هاتين الكلبتين فبتك الناقة التى أشبهت البقرة والأئان أفضى حوائجى فى الهولجر، ورقص لوامع السراب وليس الإكام لرديته كناية عن احتدام الهولجر إنه لا يقصر ولكن لا يمكنه الاحتراز عن لوم اللوم إياه إنى لا أترك الأماكن التى أجتويها وأقلبها إلا أن أموت بل أنت تجهلين كثرة الليالى التى طابت لى واستلنت لهوى وندماتى فيها أو منامتى للكرام فيها

أما الأعشى حين يتحدث عن الرحلة والناقة والصيد، يقول:

وعسير أسماء حادرة العيد — من خنوف عيرانة شمال
من سراة الهجان صلبها للعض ورعى الحمى وطول الحيل

لم تعطف على حوار ولم يقـ
قد تعلتها على نكظ الميط
فوق ديمومة تغول بالسفـ
وإذا ما الضلال خيف وكان الـ
واستحث المغيرون من القوم
مرحت حرة كقنطرة للرومى
تقطع الأمعز المكوكب وخدا
عنتريس تعدو إذا مسها السوط
لاحه للصيف والصيال وإشفاق
ملع لاعة الفواد إلى جحش
نو أذاة على الخليط خبيث
غادر للجحش فى الغبار وعدا
ذلك شبهت ناقتى عن يمين
وتراها تشكو إلى وقد
نقب للحف للسرى فترى الأنـ
أثرت فى جناجن كإران الـ
لا تشكى إلى من ألم النسـ

طع عبيد عروقها من خمال
وقد خـب لامعات الأل
ر قفار إلا من الأجمال
ورد خمسا يرجونه عن ليال
وكان النطاف ما فى العزالى
تقرى للهجير بالإرقال
بنواج سريعة الإيغال
كعدو المصلص الجوال
على صعدة كقوس الضال
فلاه عبها فبنس الفالى
النفس يرمى مراغه بالنسال
ها حثيثا لصوة الأبحال
الرعن بعد للكلال والإعمال
آلت طليحا تحذى صدور النعال
ساع من حل ساعة ولرتحال
سميت عولين فوق عوج رسال
بع ولا من حفى ولا من كلال

للوحة الأولى : ناقة من اكرم الإبل، قوى عودها شد منه علفها
ورعبها فى حمى القبيلة كيف نشاء، وعدم حملها، ويستمر فى رسم صورة
الناقة وتصوير قوتها ونشاطها، فهى تستخرج أقصى ما عندها من السير .

للوحة الثانية : وتأتى صورة أخرى فى وصف الصحراء المترامية
الأطراف والمليئة بقطعان البقر الوحشى، وهى متشابهة المعالم، يخشى فيها
الضلال، وأنها مقفرة قليلة الماء، لا تشرب منها الإبل إلا كل خمس ليال .

اللوحة الثالثة : يصف بعد الرحلة ويصور مشقتها وقلة الماء بين أيدي المسافرين، والناقة تسرع منطلقاً لا يقف في طريقها شيء، ويشبهها بقنطرة الرومي في العلو والضخامة فلا تخشى شدة الحر في الصحراء في وقت الظهيرة موضحاً شدة اندفاعها في السير والإبعاد فيه وهي شبيهة بحمار من حمر الوحش، ويصور الأتان ملتاعة القلب إلى صغيرها الذي أبعده عنها زوجها ليخلو له الجو معها، أو لأنه يغار عليها منه، وتلك صورة تتردد في الشعر الجاهلي، ويعود ليصف الحمار بأنه " خبيث النفس " لأنه عزل عن أثنائه صغيرها وتركها تعاني أسفاً عليه وحزناً ولوعتها، ووصفه بأنه " ذو أذاة على الخليط " لأنه لا يكف عن مصالوة غيره من الحمر، وعضه لها، ليطردها بعيداً عن أثنائه التي يريد أن يستأثر بها لنفسه.

ويستمر في تشبيهه ناقته في قوتها وصلابتها وتحملها مشاق الرحلة بهذا الحمار الوحشي فيقول إنها تشبهه لا في حالة نشاطها، ولكن في حالة تعبها وإرهاقها وإعيائها، وقد ألبسوها أخفافاً من الجلد تحمي أقدامها من وعورة الأرض وطول للرحلة، وكان للعرب يفعلون ذلك بإيلهم في أسفارهم الطويلة، ويستطرد قائلاً : إن هذه الأنواع لكثرة ما شددت وحلت مع النزول والارتحال أثرت في عظام صدر الناقة القوية لكنها لا تشكى.

كما أننا نرى في حكاية له عن الصيد مجالاً للتفصيل، هيأت له سعة صورته المتلاحقة في الوصف :

ففي اللوحة الأولى : يصف الأسد في خدره " مخدر " وقد امتلاً مهابة " كأن جبينه يطلسى بورس أو يطان بمجدد " ثم اجتمعت له أسباب الاستتارة، فقد " كسته بعوض القرينتين قطيفة " .

تتال من جلده، حتى امتلأ حماسة وتحفزا " متى ما تتال من جلده
يتزيد " وقد نجد عند خدره مظاهر قوته المخيفة مثل " ثياب القوم حول
عرينه"، يقول:

فما مخدر ورد كان جبينه يطلى بورس أو يطان بمجسد
كسته بعوض القرينتين قطيفة متى ما تتل من جلده يتزيد
كان ثياب القوم حول عرينه تبايين أنباط إلى جنب محصد

أما اللوحة الثانية: فنجد مشهد مهاجمة الأسد لفريسته من البشر،
جعلها بعد إيقاد القوم لدارهم، وذلك أن الأسد احتاج لأن " يهتدى بها إليهم"
يقول:

رأى ضوء نار بعدما طاف طوفة يضئ سناها بين أثل وفرقد
فيا فرحا بالنار إذ يهتدى بها إليهم وإضرم السعير الموقد

أما اللوحة الثالثة : فهي تصوير فعل الاقتراس نفسه، فقد بدأت
الحركة عند الأعشى بهرب القوم الجماعي، فلما رأوا الأسد" دون ركابهم" لم
يجدوا بدا من الهرب " فطاروا سراعا" رغم امتلاكهم " السلاح المعتد"
وتوقف الشاعر هنا ليربط نفوسهم بالنفس البشرية عامة، إذ أن حبها للحياة
هو الدافع الأكبر لطلب النجاة " أتيح لهم حب للحياة فأدبروا" ورجاؤها انفراج
الكربة، هو الدافع إلى أن تحتمى من الخطر إلى حين، حتى لو كان ذلك
فرارا منه، " ومرجاة نفس للمرء ما فى غدغد" أما للمفترس، فواحد من القوم
أخذة الأسد رهينة، ومزقه قبل أن يتمكن رفقه من نجده أو اقتدائه وعبارة
" بأصدق بأسا" التى قفل بها الأعشى تشبيهه، تبين أن صفة اللباس، هى الصفة
المشتركة بين الأسد، وهو المشبه به، وبين الممدوح وهو المشبه، وغالبا ما
كانت نهاية التشبيه تقتزن بزمن شرطى يعلى من قيمة الممدوح، ولهذا جعل
الأعشى بأس الممدوح يبرز " إذا خافت الأبطال فى كل مشهد"، يقول:

فلما رأوه دون دنيا ركابهم وطا روا ومرجاة نفس المرء ما فى غد
فلم يسبقوه أن يلقى رهينة قليل المساك عنده غير سمفتدى
فأسمع أولى الدعوتين صحابه وكان التى لا يسمعون لها قد
بأصدق بأسا منك يوما ونجدة إذا خافت الأبطال فى كل مشهد

وصورة النهر كصورة الأسد فى تشكيل الشعراء لها، لقد حولها إلى
حكاية تقع أحداثها داخل النهر الذى يشترك هو الآخر فى نسج هذه الأحداث.
وتطوراتها من ذلك قول النابغة:

فما الفرات إذا جاشت غواريه ترمى أوأنيه العبرين بلزبىد
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضض
يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين وللنجد
يوما بأجود منه سيب ناقلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

الفرات هو باعث الخصب والحياة، وهو أيضا هذا للنهر
الغاضب الذى يجتث الحياة ويدمرها، هو الذى يبسر الحياة على
الملاحين وهو الذى يعصف بهم ويلقى اللاعب فى قلوبهم حتى يوشك
أن يطويهم إنه صورة حية أو رمزية لهذا الممدوح الذى يتعانق فى
كفه النقيضان "الموت والحياة".

اللوحه الأولى:

وصف عام للنهر فى هيجانه " جاشت غواريه" حتى أصبحت " ترمى
أوأنيه العبرين بلزبىد" وكان يمد الفرات عنده " كل واد مترع لجب" حتى
تجمع فيه " ركام من الينبوت والخضد".

اللوحة الثانية:

وصف للملاح الخائف وسلوكه داخل هذا النهر الهائج، لقد ظل "معتصما بالخيزرانه"، "من خوفه" وذلك بعد مجاهدة عنيفة مرهقة فشلت في السيطرة على الموج .

للوحة الثالثة:

المشابهة بين النهر والممدوح في الكرم ولا يحول عطاء لليوم دون غد"

وهكذا فنحن أمام لوحة متكاملة، للنهر والملاح فى سفينة وسط الرياح والأمواج، فى مشهد يأخذ نياط القلوب .

إننا نقدم هذه الصورة فى كثير من المناسبات، حين نتعرض لتطور الصورة الفنية، وحين نصف كرم الممدوح، أو عندما نفخر بالقوة والسيادة والمنعة، من أجل ذلك تتكرر هذه الصورة عندنا .

ومن اللوحات المتكاملة، ما سجله النابغة للذياني فى منظر صيده حين صور صيد الثور للوحشى، وهو قوى سريع العدو، حاد القرنين، مستطردا فى وصف نقلته الجدة الصبورة، يقول:

ومهمه نازح تعوى الذئاب به	نقى للمياه عن الورد مقفار
جاوزته بعنداء منكرة وعر	الطريق على الأحزان مضمار
كأنما الرجل منها فوق ذى جدد	ذب الرياد إلى الأثباح نظار
مطرد أفربت عنه حلاله من	وحش وجرة أو من وحش ذى قار
سراته ما خلا لباته لهق وفى	القوائم مثل الوشم بالقار
وبات ضيفا لأرطاة وأجاء مع	الظلام إليها وابل سار
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته	وأسفر للصبح عنه أى إسفار

أهوى له قانص يسعى بأكلبه
محالف الصيد تباع له لحم
يسع بغضف براها وهى طلوية
حتى إذا الثور بعد النفر أمكنه
فكر محمية من أن يفر كماكر
فشك بالرمح منها صدر أولها
ثم انتفى بعد للثاني فأقصده
وأثبت الثالث الباقي بنافذة
وظل فى سبعة منها لحقن به
حتى إذا ما قضى منها لبانتته
انقض كما كوكب الدرى منصلتا
فذاك شبه قلوصى إذ أضر بها طول
عارى الأشاجع من قناص أنمار
ما إن عليه ثياب غير أطمار
طول ارتحال لها منه وتسيار
أشلى وأرسل غضفا كلها ضار
للمحامي حفاظا خشية العار
شك المشاغب أعشارا بأعشار
بذات فرغ بعيد القعر نعار
من باسل عالم بالطعن كررار
يكر بالروق فيها كرسوار
وعاث فيها بإقبال وإدبار
يهوى ويخلط تقريبا بإحضار
السرى والسرى من بعد إيكار

لوحة متكاملة لمنظر صيد، ضلالها وألوانها وخطوطها من البيئة،
ويظهر التطور فى الصورة عند اللابغة حيث نجول ببصرنا حول الآتى:

١- مفازة شاسعة يرتد فيها البصر وهو حسير، جرداء ممحلة
تشعرك بالوحشة والخوف، وتوحى لك بالوحدنة .

٢- ناقة غليظة قوية، صبور على قطع الطرق للوعرة، قلادة على
احتمال الشدائد، كأنها ثور وحشى فى صلابة عودها، وسرعة إرقالها، وهى
صديقتها التى يعتز بها ويفخر بمصاحبيتها .

٣- ثور أبيض ما عدا صدره وقوائمه فهى سوداء، فاجتماع اللونين
الأبيض والأسود يعطى انسجاما، وتناسقا .

٤- مطر مفاجئ حين أذنت الشمس بالمغيب وأطبق الظلام، وللمطر مع الظلام إحياء نفسى، يشعر به المتلقى.

٥- الأرطاة التى نزل بها الثور ضيفا يقضى ليلته الممطرة، وهى متكررة فى لوحات الصيد.

٦- قانص مع الصباح من أنمار ينحدر مع أكلبه إلى الثور، وقد سد أمامه السبل حتى تمكن منه، وهاجمه الكلاب الطويلة الأذان الضارية.

٧- ملحمة فى سبيل الحياة بين الثور والكلاب، فى كفاح ونضال، فشك بصدره قرن الأول وطعنه طعنات نافذة فى صدره، ثم هدد الثانى، بطعنة ذات ثغر بعيدة الغور ينبجس منها الدم ويتدفق، وألصق الثالث بالأرض على أثر طعنة أخرى نافذة صوبها إليه.

أما السبعة الباقية، فظل يكر عليها بروقه الحاد الصلب كر القائد الفارس، حتى أعجزها أن تلحق به من كثرة الطعنات، فانقض يعدو كأنه الكوكب الدرى يهوى من علياء السماء أو السيف اللقاع فى يد فارس قوى يهوى به على الأعداء.

وراح يجرى وينوع فى عدوه، فتارة يثب وثباً، وتارة يحضر إحضاراً، حتى نجا من خطر داهم وعدو ظالم، منهوك القوى قد بلغ منه الأين والكلال والجهد مبلغه.

حتى أن الناقة القوية تعود منهكة للقوى، من التعب وطول السرى، وسير الهاجرة، والحر اللاقع وتتليل الحزون، ولجتياز للفيافى، كأنها خاضت معركة صبرت فيها على الجهد والعطش والمسير الطويل، والأرض الجاسية وانتصرت عليها وإن خرجت مجهدة نصبة، كما خاض هذا الثور معركة الحياة مع هذه الكلاب الضاربة، وأحرز النصر.

صور لمشاهد مختلفة، للصحراء والناقة والثور، والصيد والكلاب

في لوحة متكاملة، مشاهدتها كلها رائعة

وتلك لوحة أخرى للنابغة، لا تختلف كثيرا عن سابقتها غير أن الثور هنا يضرب بقرنه كلبا من كلاب الصيد فينفذ قرنه في كتفه، وصار قرنه كأنه سفود شرب نسيه الندامى بعد أن لعبت بلبهم الراح أمام النار التي أوقدوها للشواء ويصور الكلب وقد اشتد به الألم وهو معلق بأعلى للقرن، فانقبض وتجمع وأخذ يعض للقرن الأسود الصلب الذي لا عوج فيه عض اليائس الجريح، يقول :

شك الفريضة بالمدرى فأنفذها	طعن المبيطر إذ يشفى من العضد
كأنه خارجا من جنب صفحته	سفود شرب نسوه عند مفتاد
فضل يعجم أعلى الروق منقبضا	في حالك اللون صدق غير ذى لود
لما رأى واشق إقعاص صاحبه	ولا سبيل إلى عقل ولا قود
قالت له النفس إنى لا أرى طمعا	وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

أتى النابغة في ألفاظ قليلة بهذه الصورة، وبصورة أخرى تزيدها وضوحا، وهى السفود عليها اللحم وقد نسيه الندامى عند النار بعد أن ثملوا، وفى ذلك تجديد للصورة لم نجده عند غيره من السابقين، ولنعد إلى قراءة ما قيل فى هذه الأبيات السابقة، وهى من اعتذارياته فيما وشى به فى أمر المتجرده، ولكنه أراد أن يطلعنا على فنيته وقدرته لنرى إلى أى حد يكون تكامل اللوحة عند النابغة، يقول:

كأن رحلى وقد زال النهار بنا	يوم الجليل على مستأنس وحد
من وحش وجرة موسى أكارعه	طاوى المصير كسيف الصيقل للفرد
أسرت عليه من الجوزاء سارية	ترجى الشمال عليه جامد البرد

فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف ومن صرد
فبثهن عليه واستمر به صمع الكعوب بريئات من الحرد
وكان ضمران منه حيث يوزعه طعن المعارك عند المحجر النجد

إنها نوحة متكاملة تتكون من :

١- صورة الثور

٢- صورة الصراع بين الثور وخصمه

٣- صورة النهاية بقتل ضمران

وهكذا يصف النابغة الذبياني ناقته، على عادة الشعراء من حوله، فصور قوة متنها، وسرعة سيرها ومضائها ثم شبهها بثور وحشى، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه، وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك.

وقدم لنا لوحة رسم فيها صورة هذا الثور، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط، وهو ضامر كالسيف المسلول، يجرى فى الصحراء خائفا متوجسا لما تسقط عليه السماء من برد لا ينقطع، ولم يلبث أن زعر ذعرا شديدا إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه، فأسرع فى جريه، ولمحه القانص فبعث عليه كلابه، فأسرع ولكن الكلاب لحقت به، وكان أول ما لقيه منها ضمران، ونشب بينهما صراع عنيف، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نافذة إلى ظاهر صدره، فترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه منقبضا متألما إلى أن لفظ أنفاسه ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثاره أحجم عن لقاء الثور إبقاء على نفسه، وقد أخذه اليأس من يصيد صاحبه كما كان ييغى، ودون بغيته الموت والهالك.

ولننظر لصورة لبيد بن ربيعة، التي تناولتها والتي قلدها النابغة
الذبياني، فقد رأينا كيف رسم ناقته فشبهها بالبقرة الوحشية في قوتها
وضراوتها، ويذكر قصتها مع السبع الذي قتل ولدها حين كانت غائبة ترعى
القطيع في صورة ممتعة، وهذه الصورة على إيجازها وبساطتها تشبه صورة
في الشعر الغربي الفرنسي رسمها " الفريد فيني " لذئب أقبل عليه الصيادون
في الليل، وأرسلوا كلابهم إليه، فأمسك بأجراً كلب فيها ولم يحول عنه فكبه
حتى فارق الكلب الحياة، فهذه الصورة التي فلسفها الغربي، سبقه إليه الشاعر
العربي، وترك للنقد فلسفة هذه الصورة التي تظهر من خلال هذه الأبيات :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها
لمعفر قهد تنازع شلوه غبس كواسب لا يمن طعامها
صادفن منها غرة فأصبنها إن المنايا لا تطيش سهامها
باتت وأسبل واكف من ديمة يروى الخمائل دائماً تسجامها
يعلو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها

فسنرى أن هذه اللوحات يقصد بها إلى :

- ١- توضيح حالة بحالة، فهي صورة بيانية أخذت شكل هذه البنية الفنية .
- ٢- إثارة تلك اللذة الرائعة الناشئة عن وصف حياة هذا الحيوان في الصحراء
من ناحية، وعن كونها إنعكاساً للإنفعالات البشرية، على مرآة من نفس
الحيوان من ناحية ثانية .
- إن الشاعر لا يستطيع أن يصف شيئاً من الأشياء إلا إذا خبره خبرة تامة
وعرفه معرفة تصل إلى حد التخصص الدقيق .

ويحدد قدامة الوصف بأنه: "ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات" ويرى أنه "لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم وصفا من أتى في شعره بأكثر المعاني التي ركب منها الموصوف، ثم بأظهرها فيه وأولاهها، حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته".

والعسكري يقول: " أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني

الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينك"

والأمدي يرى أن الشاعر هو من: " يصور لك الأشياء بصورها"

أما ابن رشيق فيروى أن: " أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا"

ويقول حازم القرطاجني، متمشيا مع ابن سينا، وابن رشد، إلى أن الأقاويل الشعرية تهدف إلى: "تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود، وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان، من حسن أو قبح حقيقة، أو على غير ما هي عليه تمويها وإيهاما" ويذهب إلى أن وصف الشاعر لا يكمل إلا إذا حصل جميع معاني الشيء الموصوف واستقصى عناصره، كما أنه ينبغي على الشاعر ترتيب عناصر المحاكاة تبعا لترتيبها في العالم الخارجي ذلك أن الشاعر يجري مجرى الرسام، والمحاكاة بالمسموعات تجرى من السمع مجرى المحاكاة بالمتلونات من البصر".

إن العرب قد ضمننت أشعارها من التشبيهات ما أدركه عيانها وحسها، " فشبّهت الشيء بمثله تشبيها صادقا، على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها".

والتشبيه أوضح الأنواع البلاغية لرتباطها بفن الوصف،
فهو يضع الشيء إزاء ما يقابله.

وذهب ابن سنان إلى أن الأصل في حسن التشبيه هو: "أن يمثل
الغائب الخفى الذى لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسن
هذا لأجل إيضاح المعنى، وبيان المراد" وهنا يكون تشبيه امرئ
القيس:

كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى
فيه من الإيضاح والبيان، وهذا من التشبيه المقصود به إيضاح
للشيء، لأن مشاهدة العناب والحشف البالى أكثر من مشاهدة قلوب
الطير رطبا ويابسا.

وكذلك كان النابغة أوضح فى تشبيهه عندما قال:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن للمنتأى عنك واسع
فقد أوضح المقصود، وأبان المعنى فعلم الناس بأن الليل لا يد
من إدراكه له أظهر من علمهم بأن النعمان لا يد من إدراكه له.

وهكذا نجد مهارة الشعراء الجاهليين فى نقلهم للصور الكلية
التي صوروا بها ما يحيط بهم، وما يشغل تفكيرهم فى حياتهم،
وكونوا منها لوحات متكاملة، ورأينا أن البعض منهم قد جاءت
صوره فى شيء من الغرابة والتجديد بعيدا عن محيط دائرته التي
يعيش فيها، فأكسب بذلك الصورة لونا من الحضارة والثقافة التي تأثر
بها، وإن كان فى الوقت نفسه لا يخالف المسار الذى سار عليه أثره
من الشعراء الآخرين.

(٤)

لوحة المرأة

إن قارئ الشعر الجاهلى فى قصائده المختلفة يلاحظ أن الحديث عن المرأة يشكل العنصر الأسمى الذى تأتلف حوله وتخرج منه بقية عناصر القصيدة الأخرى فهى التى توقف الشاعر على الأطلال، وهى التى تحمله على ملاحظة ما أصاب هذه الديار من موات وخراب لرحيلها عنها، ورحيل هذه المحبوبة هو الذى يحمل الشاعر على رصد ذكرياته الماضية معها، وهذه الذكريات هى التى تضطره إذا ما تأزمت نفسيته، وأطبقت عليه هموم الحياة إلى الرحيل فى إثرها، واصفا الطعائن وصفا إنسانيا مؤثرا على راحة البال عادة فى تشخيص قوتها وشدتها وقدرتها على المضى به بعيدا عن هذه الأطلال التى تثير فى نفسه عناصر شتى من الخوف والقلق والحسرة، أو فلنقل الصراعات التى يشخصها تشخيصا بديعا فى قصص الصيد المعروفة حينئذ، ووصف مظاهر الطبيعة من الأمطار والسيول والحيوانات فى صورتها العنيفة حينئذ، إلى جانب شعر الفروسية حين ينفك عن صورة المرأة انفكاكا كاملا، والشعر السياسى أو القبلى الذى يبتلع أطرافا واسعة من هذا الشعر، وفى قصائد الرثاء، وفى النموذج الذى يتحدث عنه بين المرأة وغرض المدح، أو بينها وبين غرض الاعتذار، أو بينها وبين وصف الحرب، وشعر الحكمة، ومعظم شعر الصعاليك.

وإذا كنا نجعل من المرأة محورا أو بؤرة تنبت منها أغراض القصيدة، فليس ذلك كابن قتيبة يقتصر على عدد من هذه الأغراض، أو يعزل البناء الموضوعى - أو الفرض على ما بين الغرض والموضوع من اختلاف فينبغى ألا ننسى للقصيدة الجاهلية تعليلا نفسيا قائما على ترابط الموضوعات أو تداعيا، ولكنه ترابط شكلى أو تداعى قريب الغور، فليس يصدر عن أعماق النفس القصيدة .

ويراد بالصورة الكلية توظيف الشعراء للغزل في قصائد عن طريق الاحتفال بصفات معينة يبرزون بها جمال المرأة التي يتغزلون فيها متخذين من الصور العامة التي يرسمونها لهذه المرأة أو تلك مدخلا إلى أغراض القصيدة الأخرى، مما يؤلف، آخر الأمر، من الأغراض والصور ما يصح أن نسميه "مقولة" هذه القصيدة أو تلك.

ففي عينية "الحادرة" التي فتنت الرواة القدماء، ورواها المفضل رواية كاملة، إحساس بانشغاله بقضية معينة أخذ يتابع حديثه عنها من خلال غزله في "سمية" فكيف أدار الشاعر حديثه مع صاحبه، يقول:

بكرت سمية بكرة فتمتع	وغدت غدو مفارق لم يربيع
وتزودت عيني غداة لقينها	بلوى البنية نظرة لم تقلع
وتصدفت حتى استبتك بواضح	صلت كمنصب الغزال الأتلع
وبمقلتي حوراء تحسب طرفها	وسنان حرة مستهل الأدمع
وإذا تنازعك الحديث رأيتها	حسنا تبسمها لذيذ للمكرع
بغريض سارية أدرته الصبا	من ماء أسجر طيب المستنقع
لعب السيول به فأصبح ماؤه	غلا تقطع في أصول الخروع
أسمى ويحك هل سمعت بغدرة	رفع اللواء لنا بها في مجمع
إنا نعف فلا نريب حليفنا	ونكف شح نفوسنا في المطمع
ونقى بأمن مالنا أحسابنا	ونجر في الهيجا الرماح وتدعى
ونخوض غمرة كل يوم كرهية	تردى النفوس وغنمها للأشجع
ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا	زما ويظعن غيرنا للأمرع
ومحل مجد لا يسرح أهله	يوم الإقامة والطول لمرتع
بسبيل ثغر لا يسرح أهله	سقم يشار لقاءه بلاصبع
فسمى ما يدريك أن رب فتية	باكرت لنتهم بألكن مترع

محمرة عقب الصبوح عيونهم بمرى هناك من الحياة ومسمع
متبطحين على الكنيف كأنهم يبكون حول جنازة لم ترفع
بكروا على بسحرة فصبتهم من عائق كدم الغزال مشعشع
ومعرض تغلى المراجل تحته عجلت طبخته لرهط جوع
ولدى أشعث باسط ليمينه فسما لقد أنضجت لم يتورع
ومسهدين من الكلال بعثهم بعد الكلال إلى سواهم طلع
لأودى السفار برمها فتخالها هياما مقطعة حبال الأزرع
تخد الفيافي بالرحال وكلها يعدو بمنخرق القميص سميدع
ومطية حملت رحل مطية حرج تتم من العنار بدعدع
وتقى إذا مست مناسمها للحصى وجعا وإن تزجر به تترفع

نلاحظ إن الشاعر يدبر معاني هذه القصيدة حول فكرة واحدة هي
مناجاة "سمية" التي رحلت عنه، كما نلاحظ فيها، لوحة الغزل، و لوحة
الفخر، و لوحة وصف مأساة هؤلاء القوم بعد رحيل "سمية".
أما اللوحة الأولى فقد راح الشاعر ينحت فيها ل "سمية" تمثالا نصفيا،
يلح فيه على إبراز جمال وجهها ووضاعتها، على نحو ما يشخصه لتتصاب
جيدها، و حور عينيها و عنوبة، ريقها.

وأما الثانية فهي لوحة يقصد الشاعر فيها إلى البراءة من كل ما يشينه
أو يشين سلوك قومه، على طريقة الجاهليين حين يعمدون إلى تصفية صفاتهم
من كل ماتأباه تقاليد البيئة وتدينه أعرافها الدينية والخلقية والاجتماعية.
أما في اللوحة الأخيرة، فقد أصاب الجذب ديارهم وأهزل دوابهم،
وأضنى السفر ومتابعة السير شبابهم.

وقد كشف الشاعر في هذه اللوحات عن حقيقة الرموز التي راح يبثها
في الصور والمعاني: فالشاعر حريص في غزله على إبراز صبغة تمتاز بها
صاحبه عن غيرها من النساء، هي عنوبة ريقها التي راح يشخصها

ويؤكددها في صورة ممتدة يقيم فيها صلة بين ريق صاحبتة، في صفائه وطيبه، وذنوبه الماء الذى تدره سحابة طرية ليلا، في هستقع نقيق الحصى، يطيب الماء فيه ويصفو، تماما كما يدر الحالب اللبن من ضرع الناقة. وهذا الماء الذى يشبه في عنوبته ونقائه ريق صاحبتة، يبلغ في كثرته. مبلغ السيل الذى ينحدر من كل ناحية فيجرى ماؤه فى أصول الأشجار جميعا.

ثم نجد حوارا عنيفا فى اللوحة الثانية مع - (سمية) - ويلومها على موقفها من قومه، وسوء ظنهما بهم، مقدما لها هؤلاء فى صورة أخرى تجتمع فيها كل المفاسد القبلية من الوفاء بالوعد ورعاية الجار، والشجاعة فى الحرب، والنود عن الأحساب، والصبر فى المكاره، ثم يعود فيرسم لهؤلاء القوم أنفسهم صورة أخرى، تسجل معاناتهم وضياعهم بسبب ما حل بديارهم من الجذب، وأصاب دوابهم من هزال، وأضنى شبابهم من سير.

هناك صلة بين ريق صاحبتة، وبين الماء والسحاب والسيل، وهناك صلة يقيمها الشاعر بين رحيل هذه المرأة وجذب اللديار وهزال الحيوانات وإضناء القوم، وما يتصل بذلك من حوار يختلط فيه لوحة "سمية" بدفاعه عن قومه وفخره بمآثرهم.

وقد حشد الحادرة فى وصف جمال صاحبتة على صفة بعينها هى "عنوبة ريقها" عناصر الخصوبة من المطر والرياح والأشجار والسيول.

ونجد صورة فنية للثريا ربة الخصب ومانحة الغيث فى اللبنة الجاهلية، يناجيا الحادرة متحذا إلى هذه المناجاة طريق للتراث الدينية.

وقد لفت نظرنا فى عينية الحادرة أو "كلمة الحويدرة"، على حد تعبير حسان بن ثابت التى فتنت الرواة القدماء. فى هذا القسم الثالث أن معجمه اللغوى يثير لونين من المشاعر متناقضين أحدهما قائم كئيب تثيرها ألفاظ وصور مختلفة كالبكاء والجنائز والجوع والكلال والسهاد والعطش، والآخر

مشرق وضاء كما فى هذه المفردات : الفتوة واللذة والخمرة والكرم والقطا ومباكرة اللذة والكرم، والفتيان والشجعان واعتساف الفلوات، والحياة وهى ملء السمع والبصر ...

وهذا التقابل بين هذه المفردات ليس تقابلا ضديا يحكمه التنافر، ولكنه تقابل تكاملى يرجح طرفا على طرف آخر، ويثبت معناه فى النفس، ويغذى أحدهما الآخر وينميه ويعمق صورته فى الوجدان . فهذا الجوع ينمى ويغذى فكرة الكرم، والعطش والكلال والسهاد تغذى فكرة الفتوة، والجنابة والبكاء يغذيان فكرتى الرئاسة والكرم، كما يعمقان مفهوم اللذة والإقبال الرائع على الحياة . وهذه الأفكار والمعانى والمشاعر تتآلف وتتكامل، لترسم صورة فنية، أو قناعا لشخصية الشاعر وحده . وبدهى أن تكون الصورة الفنية مطابقة للشخصية أو للواقع، فنحن أمام صورة مثالية لقبيلة الشاعر كما يحلم بها الشاعر نفسه، وكما يحلم بها المجتمع أيضا . وهذه الصورة الفنية هى ما يسميه الشارحون "الفخر"، وهذا الفخر ضربان : فخر قبلى نراه فى القسم الثانى من القصيدة، وفخر شخصى نراه فى قسمها الثالث . فالشاعر فى القسم الثانى يتحدث عن قومه جميعا دون تخصيص .

إن اللوحة الثالثة فى القصيدة لا تختلف فى دعواها وما تشير من المشاعر والأحاسيس والمعانى عن اللوحة الثانية إلا فى أمر واحد هو أن اللوحة الثانية تدور فى رحاب الجماعة، أما اللوحة الثالثة فتدور فى رحاب الفرد، وهما لوحتان تتكاملان وتقدمان صورة مثالية للقبيلة وشاعرها .

ومن الملاحظ أن الشاعر فى اللوحة الثانية لم يستخدم ضمير المتكلم المفرد قط، بل استخدم ضمير الجماعة المتكلمين : لنا، إنا، نعى، نريب، حليفنا، نكف، نفوسنا، نقى، مالنا، أحسابنا، نجر، ندعى، نخوض، نقيم، بيوتنا، غيرنا...

أما فى اللوحة الثالثة فلم يستخدم الشاعر ضمير الجماعة للمتكلمين قط، بل استخدم ضمير المتكلم المفرد : باكرت، على، صبحتهم، عجلت، لى، بعثتهم، حملت، عرسه، رأسى، رفعت، منى... واستخدم ضمير المخاطب المفرد وهو عائد إليه : أنضجت . والضمير علامة نصية جديرة بالاهتمام والمتابعة، وهى قضية ذات خطر كبير، فعليها يتوقف فهم معانى الشعر، وعلى هذا الفهم يتأسس مذهب فى تفسير هذا الشعر.

أما لوحة غزل الأعشى فى المرأة فيعكس تهكمه بهذه للمرأة الإلهية التى يتغزل فيها، وهو تهكم يغلب على صورته التى يرسمها للمرأة فى شعره، كما يغلب على قصص مغامراته معهن. يقول:

أوصلت صرم الحبل من سلمى لطول جنبها

ورجعت بعد الشيب تبغى ودها بطلابها

أقصر فإنك طالما أوضعت فى إعجابها

أولهن يلاحم فى الزجاجة صدعها بعصابها

أن للقوى يوماً مستهاك قبل حق عذابها

وتصير بعد عمارة يوماً لأمر خرابها

أو لن ترى فى الزبربينة بحسن كتابها

أو لم ترى حجرا وأنت حكيمة ولما بابها

إن للثعلب بالضحى يلعبن فى محرابها

والجن تعزف حولها كالحبس فى محرابها

فخلا لذلك ما خلا من وقتها وحسابها

ولقد غبت لكاعبا تلاحظ من تخابها

وأخون غلاة قومها يمشون حول قبابها

حنرا عليها أن ترى لو أن يطاف بيابها

فبعثت جنينا لنا يأتى برجع جوابها

فمشى ولم يخش الأتيس فزارها وخلا بها

فتنازع أسرار الحديث فأنكرت فنزأ بها

عضب اللسان متقن فطن لما يعنى بها

صنع بلين حديثها فننت عرى أسبابها

قالت: قضيت قضية عدلا لنا يرضى بها

فأرادها كيف للدخول وكيف ما يؤتى لها

فى قبة حمراء زينها لتتلاف طبابها

فدخلت إذ نام الرقيب فبت دون ثيابها

حتى إذا ما استرسلت من شدة للعابها

قسمتها قسمين كل موجبه يرمى بها

فتببت جيدغريرة ولمست بطن حقابها

كالحقة الصفراء صا كعبيرها بملابها

وإذا لنا تامورة مرفوعة لشراياها

وتظل تجرى بيننا ومفدم يسعى بها

هزج عليه للتومتا ن إذا نشاء عدا بها

كلفت عاتسة أمو ناقى نشاطها

وردت على سعد بن قيس نلقى ولما بها

وجميع ثعلبة بن سعد بعد حول قبابها

من شربها للمزاء ما استبطنت من إشراياها

وعلمت أن الله عمدا حصها وأرى بها

وإذا عدنا إلى قضية الضمائر، وهى قضية مهمة فعليها يتوقف فهم

معانى الشعر، وعلى هذا للفهم إذا قرأنا :

إن الثعالب بالضحى يلعبن فى محرابها

فإن الضمير المتصل "ها" لا يعود على "سلمى" بل يعود على مذكور
فى بيت سابق هو "حجر" .

أو لم ترى حجرا وأن ت حكيمة ولما بها
إن الثعالب بالضحى يلعبن فى محرابها
وإذا قرأنا :

وجميع ثعلبة بن سعد بعد حول قبابها

فإن الضمير المتصل "ها" لا يعود أيضا على "سلمى" فالشاعر قد خرج
إلى وصف الصحراء والناقة، ولم ينس صاحبتة ومجلسها، فالضمير هنا يعود
على "ثعلبة بن سعد" بوصفها قبيلة أو جماعة، ولا علاقة له بالمرأة التى
تغزل بها سابقا .

اللوحة الأولى:

يقابل فيها الأعى بين ماضى هذه المرأة وحاضرها، وبين صلة القديم
بها وواقعه الحالى معها، كما يقابل بين ماضيها وحاضرها وبين مستقبلها،
ويمزج الأعى فى هذه الصور المتقابلة، بين الأزمنة أو الأصوات الثلاثة:
الماضى والحاضر والمستقبل، كما يحرص وهو يعرض لوصف حبه معها
وانبهاره بجمالها وفتنته بها على أن ينسب ذلك كله إلى أيام شبابه التى
انقضت، وهو يعجب لنفسه ويلح فى لومها حين تدعوه إلى العودة إلى هذه
المرأة التى صدعت قلبه بهجرها، صدعا لا يجبر مثل الزجاجة المكسورة لا
يصلها ضم ما تفرق منها، وهو يدعو هذه النفس، لتأكيد رغبته فى عدم
العودة إليها، إلى تذكر ما أصابه على يديها من أضرار فى أيامه الماضية،

كما يدعوها إلى معرفة حقيقتها وما أعد لها، في كتب داود، من عذاب، " أو لن ترى في الزير.. " وما كتب على القرى التي ارتبطت بها من خراب بعد عمار، وهو خراب قد أخذ منه زمناً طويلاً يزحف على ديارها حين أصاب ثمود بالشام، فأخذت " الثعالب بالضحي يلعبن في محرابها " كما أخذ عزيف الجن يسمع في محرابها، تماماً كما كانت "الحبش" تصوت وتصيح في هذا المحراب، وحين يصل الأعشى إلى هذه النقطة ينهى كلامه عنها، فإن ذلك كله قد مضى إلى غير رجعة: ماضيه معها، ومكانتها في قومها.

وفي اللوحة الثانية:

يحرص الشاعر على إشاعة السخرية بهذه المرأة التي يصفها بالسذاجة وقلة التجربة لصغر سنها، وهو يحقق هذه السخرية عن طريقين:
الأولى: هذه الصورة التي يرسمها لـ " محرابها " الذي أخذت الثعالب تصيح فيه، بعد خرابه، صياح سدنتها من الحبش فيما مضى.
والثانية: يصف مغامرة جنسية له معها يحرص فيها على أن يكل أمر الإعداد لها إلى جنى له يتخطى أحراس قومها من حولها حتى يصل إليها، ويظل بها حتى يخدعها عن نفسها، فيلين حديثها وتدنو " عرى أسبابها " ويفصل الأعشى في وصف لقائه بها واستمتاعه معها، في صور ومعان حسية، وكأنه بذلك يريد أن يفضحها بين قومها.

وفي اللوحة الثالثة: يقص الأعشى كيف ركب ناقته بعد أن فرغ من مجلسه معها فحملته إلى قومها " بنى سعد بن قيس " اللذين وجدهم عبداً لها يعكفون على أنصاب صاحبه ويتعلقون بها، على الرغم من تلك الإهانة التي لحقت بها، والتي كشفها " الله " للناس جميعاً يرون بها ذلك.

هذه اللوحات تعكس هذا التطور الذي أخذ يجد على عقائد الجاهليين الدينية، وهو تطور يتمثل في سخرية الأعشى من هذه " الربة " التي يفضحها

ويمارس معها تجربة جنسية مكشوفة حين يتخذ من " سلمى رمزا لها، وهو تطور كان الأعشى يحققه هو وغيره من شعراء هذه الفترة، عن طريق تلك المعارف الدينية التي لاشك في أن الأعشى اكتسبها من البيئات المسيحية واليهودية التي كان يتصل بها على نحو ما نقص أخبار القدماء عنه.

وهكذا نجد عند الأعشى صوراً تشكل لوحات متكاملة عن مغامراته، ومن هذه الصور الغزلية التي يعرضها في قالب قصصي، قوله:

فظللت أرهاها وظل يحوطها حتى دنوت إذا الظلام دنالها
فرميت غفلة عينه عن شاة فأصبحت حبة قلبه وطحالها
حفظ النهار وبات عنها غافلا فخلت لصاحب لذة وخالها

فهو يخالس الزوج ويخاتله، حتى يظفر ببغيته. غزل مادي صريح، رقة في الغزل وشدة في الوله والتعلق بالمحبوبة، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبه جزعا وصبابة، وخاصة حين الوداع، استمع إليه يقول في مطلع معلقته:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل
كأن مشيتها من بين جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
صبابة لا نعرفها عند الجاهلين، لكنه صاحب نوق رقيق أثرت فيه الحضارة وجعلته دقيق الحس فهو يتنزل في حبه، ويأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل.

صورة يصف فيها البشرة والشعر والعوارض والمشية اللوانية وحليها وصورة " تعلق للناس بطلعها العطرة".

علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

فهو يحبها وهي تعرض عنه وتحب رجلا آخر والرجل يحب أخرى
ولكنها تشفق عليه:

قالت هريرة لما جئت زائرها ويلي عليك وويلي منك يا رجل

ونقف مع الأعشى عند هذه اللوحة التي تصور فيها للنساء اللواتي
يرفان في ثيابهن الجميلة مع الطرب والموسيقى والخمر، يعرضها من خلال
هذه الأبيات التي يقول فيها:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى	شلو مثل شلول شلشل شول
في فنية كسيوف الهند قد علموا	أن هالك كل من يحفى وينتعل
ناز عنهم قضب الريحان متكئا	وقهوة مزة راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة	إلا بهات وإن علوا وإن نهلوا
يسعى بها نو زجاجات له نطف	مقلص أسفل السربال معتمل
ومستجيب تخال الصنج يسمعه	إذا ترجع فيه القينة الفضل
والساحبات نيول الخز أونة	والرافعات على أعجازها العجل
من كل ذلك يوم قد لهوت به	وفى للتجارب طول اللهو والغؤل

اللوحة الأولى: لوحة للفتيان في مجالس الخمر، وقد سعوا إليها بنظرة
من يغنم من الحاضر لذاته راسما لوانى الخمر وألوانها، وما تفعله بالعقول،
وتحدثه بالقلوب.

أما الثانية: فصورة للساقى بما يتطى به من أقراط، وما يلبسه من
قميص قصير، متحركا في الحانة بجد ونشاط.

واللوحة الثالثة: صورة للنساء اللاتي يرفطن في ثياب الخز
والحرير مع الغناء والموسيقى والرقص.

إنها لوحات متكاملة رأيناها عند الشعراء فى هذا العصر ذات ظلال وإيحاء للعربى، يحس من خلالها بروعة المشاهد التى ينقلها إليه الشاعر فى صور جمعها لتحدث أثرها فى النفس، وهى لوحات يعرفها العربى ويدركها، ولكنه لا يشعر بإحساسها وتأثيرها فى نفسه إلا بواسطة هذا الفنان الذى يخرج مكنونات الأشياء لتجد صداها فى نفس المتلقى. وهذه اللوحات التى يشكها الفنان العربى، صورة للأطلال والظعن والرحلة والصيد، وما يتخلل ذلك من حركة الحيوانات، وحركة الطبيعة المتمثلة فى الرياح والأمطار والسيول، وما تنتشره من تجديد لحياة العربى على أرض الصحراء.

أما المرأة فهى ذات دلالة خاصة عند العربى بصفة عامة، والفنان الشاعر بصفة خاصة، من أجل ذلك غاص فى بحرها، واستخرج مكنوناتها النفسية، فأجاد فى التصوير والوصف بحيث لم يترك شيئا فيها إلا ألقى عليه بفسنه ما يجسده ويشخصه ويسبر أغواره، ثم يجمع هذه الصور ليكون منها لوحة كبيرة، وصورة كلية لمشاهد شتى.

وما هذه الصور الكلية أو اللوحات المتكاملة إلا تركيب من أجزاء الصور المتناثرة التى اختص بها الشاعر. وتناونها فى شعره على حدة بضوء مختلف لكل موقف، ثم جمع هذه الأضواء جميعها فى بؤرة واحدة ليلقى بها مجتمعة على نفس متلقيها، فتحدث الأثر المطلوب تبعا لشدة ضوئها.

ويمكن لنا بعد ذلك العرض للصور الجزئية وللصور الكلية أن نقول : إن الشعراء ينتقلون من تشبيه إلى استعارة إلى كناية إلى صورة شعرية فى أشعارهم، وهم فى تعبيرهم عن معنى من المعانى، وقلما يعبر تعبيراً لغوياً مباشراً.

ومن ذلك يتضح أن الصور عند الشعراء لها طبيعة خاصة تختلف من موقف لآخر، ويمكن أن نقول فيها إنها:

١- صور جزئية متنوعة بينها الشاعر غالبا بناء تشبيها ليعبر من خلاله عن معنى بعينه، وهذا النوع نراه في وصف الليل والخمر والمرأة ووصف الناقة والفرس وغير ذلك عند شعراء هذا العصر القديم.

٢- صور كلية أو لوحات متكاملة من خلال قص الأحداث وحكاية المواقف، ويعرف بصورة الحدث أو الموقف، وهو ضرب من التصوير يغلب على شعر المتأخرين من شعراء الجاهلية أمثال زهير بن أبي سلمى، والأعشى، والنابغة الذبياني، في لوحاتهم عن السيل والصيد والصحراء والمرأة.

فالصور التشبيهية لها جوانبها السلبية كانصراف الشعراء إلى الوصف الخارجى، واعتمادهم على المبالغة والتكرار، وهى تشبيهات أخذت تتردد فى شعر الشعراء اللاحقين دون أن يضيفوا إليها شيئا يخلق منها صورا جديدة وأصيلة.

ونحن نلاحظ فى صور الشعراء أمثال امرئ القيس وعبيد وغيرهما شكلا فنيا وموضوعيا بعينه فقد جاءت سريعة فى حركتها، مركزة فى عناصرها، ثم أخذت تتسع وتمتد شيئا فشيئا.

وقد اعتمد للشعراء على للعنصر للزمنى فى بناء صورهم إلى جانب عنصرى المقابلة والحركة.. وهذا ما نلاحظه فى شعر هذه الفترة القديمة. فهم يحركون مطاياهم ويوقفونها ورفاقهم على المنازل الدارسة إحياء بهذه الحركة وتلك الحياة، وتصوير قوافل الإبل بالنخيل فى ارتفاعها وبالسفن فى علو الأمواج بها وهبوطها ويصورون حركة الرياح وحياة الحيوان، ونزول الأمطار..

ويعمدون إلى المقابلة بين الحاضر والماضى. وهم وصفوا الخيل والنوق والظباء والحمير الوحشية والثور والقطاة وغيرها من الحيوانات والطيور فى قصص الرحيل والصيد، وفى الأماكن التى تنقلوا فيها، وقد

تحولت هذه القصص بالوصف في الشعر الجاهلي إلى اللوحات المتكاملة والنابضة بالحياة والحركة، في صور متجددة متغيرة تكشف عن فنية كل شاعر على حدة.

فالصورة تناولت كل هذه الأحداث والطبيعة تكشف عن فنية للشاعر تجاه ما وقع عليه بصره في حركة وتلوين، وفي تعبير متغير متجدد، يدعو إلى التأمل والتدبر في الصورة الشعرية التي أنتجها الشاعر من فكره وخياله، وهو في تصوير الأطلال وجدناه يصورها بكتاب منق، وفي تصوير الحيوانات منتشرة في الأماكن الصحراوية، وفي وصف الطعن والرحلة والصيد، وهذا ما جعلنا ندرك اختلاف الصورة بشكلها الذي رأيناه عن الصورة التقليدية في إطار استخدام الكلمات والعبارات إلى جانب للمجاز البياني. وهنا يكون انفراد شاعر عن شاعر في هذا المجال.

لقد بعث الشعراء الحياة في الصور الثابتة، وجعلوها تنبض بالحركة والصوت واللون، وأصبح دارس الصورة الشعرية يشعر بأهميتها عند الشعراء القدامى، وأنها عندهم أخذت تنمو وتتجدد على أيدي بعضهم ممن كان لهم سبق في التأثر بالحضارات والثقافات المختلفة المحيطة بهم، ومن خلال ممارستهم الحياتية، وخبراتهم الذاتية، وتجاربهم الشخصية.

فهذه اللوحات التي رأيناها عن السيل والصيد والصحراء والمرأة، جاء التطور فيها بالإضافة والتفصيل، وبت الحركة، وتلوين الصور وتحديدها زمانا ومكانا، على يد هذه الطائفة من الشعراء المتأخرين تطورا سريعا واسعا، فالنابغة الذبياني، والأعشى، وأوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، وغيرهم استحالت صورهم هذه إلى اللوحات الفنية والقصصية الرائعة التي تتسم بالنبض والحياة.

الهوامش

- الرجيع: ما تجتره من طعامها. علق: ما تطعمه الإبل من الشجر. مروح: نشيطة وعنتريس صلبة. نعابة: تمد عنقها في سيرها. معناق: سير واسع للإبل. الإكام: المرتفعات. القتود: الرحل بأواته. العجلة:قربة الماء. تهاق: مد عنقه في السير. السواق: طويل الساق. مستبقل: حمار وحش. زر: طرد وعض. شهباء: سحابة بيضاء بسواد. رجوس: مرعدة. فراق: جمع فارق وهي السحابة المنفردة. الدرداق: دك متلبد من الرمال. الغضف: كلاب الصيد.
- اللوية: الصحراء المقفرة. الورد: الإبل. العيهامة: الناقة القوية. لم ترمه القوايس: لم يكن فيه أحد يقتبس نارا. الدوداة: الأرجوحة. شمط الرجال: كبار السن. الاجتواء: الكره. المضباب: الذي يمنع أصحابه الزاد من شدة بخله. حزه: قطعه. أعرض: ظهر.
- الصعل: صغير الرأس. مصلم: مقطوع الأننين. التتوم والآء: نبتان والسى اسم أرض.
- السحيل: صوت الحمار وبه سمى مسحلا. يمتود: موضع.
- أرل: جبل بأرض غطفان. الصراد: سحاب بارد لا ماء فيه. الصرم: للقطع من السحاب.
- حبي مكلل: سحاب متراكم. قطن والستار ويذبل: أسماء جبال. بالشيم: بالنظر إلى للبرق. صوبه: مطره الذي يصيب الأرض منه. دوح الكنهيل: شجره. تيماء: مدينة بأرض الحجاز. الأطم: الحصن مشيد. المجيمر: جبل. أنابيش عنصل: البصل البرى. بعاعه: ثقله.

- أشحذت: كفت وأقلعت. تشتكر: يكثر فيها الماء. الشجراء: جماعة للشجر
- الملتف: ريقها: أول استهلالها بالمطر. واه: مسترخ. آنيه: موجه. خيم
- وخفاف ويسر: أسماء أماكن. ممر: معتدل الخلق، مفتول العضل.
- العافيات: الدارسات.
- رائف: سحاب. جوز كل شيء وسطه. المفام: العظيم الواسع. عمل: دائم.
- منطق: محاط به. متصل: ليس فيه خلل. للشرب: القوم المجتمعون لشرب
- الخمر. درنا: بابا من أبواب فارس دون الحيرة. شيموا: انظروا. خنزير
- والربو: ما نشر من الأرض. الحبل: جبل أو بلد. للفينة: الأرض
- الشجراء. غرضا: أي غرضا للأمطار، القود: الخيل. للرسل: الإبل.
- المستكف: المطر المنهمر. مسف: قريب من الأرض. هيدبه: للخيوط التي
- تتدلى منه. شطب: اسم جبل في تميم. أقراب: جمع قرب وهي للخصرة.
- الأبلق: الجولا في لونه سواد وبياض. للتج: أحدث صوتا عليا وهو
- الرعد. المنصاح: الذي انشق بالماء. للريط: جمع ربطة وهي للملاء.
- أجش: صفة للرعد، المبترك: المسرع في عدوه. النجوة: ما ارتفع من
- الأرض. المحفل: مستقر الماء في الأرض. المستكن: المقيم في بيته.
- القرواح: الأرض المستوية.
- صوب الغمام: ماء المطر. يعل: يسقى مرة بعد مرة .
- السبينة: الخمر. للخص: حانوت الخمار. يسر: مغلمرون وأغناء ميلسير.
- الصحن: القدح الكبير. شجت: مزجت. خصر: بارد.
- تطور الصورة .
- خنساء: بقرة وحشية. سفعاء: سوداء في حمرة. الملاطم: للخدود.
- مزوودة: مذعورة. الفرقد: ولد البقرة. سلاح: يقصد قرنيها. طباها:
- دعاها. الضحاء: للرعى عند الضحى. الكناس: بيت الطيبي في الشجر.
- المؤسسات: المغريات بالصيد.

- النجا: جمع نجوة وهى المرتفع من الأرض. النواشر: عصب الذرع.
- الممر: الشديد الفتل الموثق الخلق. أسيل الخد: سهله. النهد: الضخم.
- فلوناه: فطمناه. الشظى: عظم لاصق بالذراع. الصفاق: الجلة السفلى من بطنه. الأباجل: عروق فى اليد. المستأسد: ما طال من النبات. القران: مجارى الماء. خرم الطراد: أخذوا جحاشه واحدا واحدا.
- خفاهن: أظهرهن. يداعسها بالسمهرى: يطاعنها بالرمح. الكابى: الساقط على وجهه . قعضب: اسم رجل. نمش: نمسح. المضهب: لم ينضج. الهاديات: أوائل القطيع. ضاف: ذيل طويل. الأصهب: الأحمر المشوب بياضه بسواد.
- مفد: الدلو العظيمة. تجيبب: ارتفاع البياض إلى جيب الفرس. جنم: سريع. مقبوب: مضمر. سلحوب: أملس قليل اللحم. القصب: الخصر. مضطمر: ضامر. صقعاء: عقاب ذات صوت. شناخيبي: رؤوس الجبال. من أمم: من قرب. الدف: الجنب. الشأبيب: الماء .
- لاقينه : الكلاب. ما وتته: استماتت فى طلبه. يوم أنفس: يوم ذهاب نفوس.
- السذبال: الثور الطويل الذنب. سفغ: جمع سفعة وهى سواد يضرب إلى الحمرة. الذرع: بفتحتين، الصغير من ولد البقر. ضراء: الكلاب التى ضربت للصيد، الواحدة ضروة. اندع: لم يجتهد فى عدوه. يلغ: يكذب فى عدوه ولا يجد.
- الدوسرى: الضخم الشديد. بويزل: تصغير البازل وهو الجمل المسن. مردى قذاف: كناية عن صبره على مشقات السفر. يشيح على الفلاة: يجد عليها. أزرع: أسرع، أسبق. المدل: الواثق من نفسه. الأخرى: الحمار الوحشى. العانة: قطيع الأتن الوحشية. المصام: المقام. ساف: شم. الدحيق: الحمار المطرود المبعد عن الأتن. اللويا: النبات أخذ فى الجفاف.

دؤول: شديد النشاط. الطمل: الفقير. الشريانة: القوس. النضى: السهم.
برأة: الحفرة التى يختبئ فيها الصياد. صواديا: عطاشا-كميا: خفيا.
معورات: مكشوفات. رثيما: مخضبا بالدماء.

■ الأنساع: سيور عراض تشد بها الرجال. يحلى: أى الحمار والتحلئة المنع
من الماء. نبلا: ضوامر. الهيم: العطاش جمع هيماء. تفرى الأديم: تشق
الجلد وتقطعاه.

■ مسبوعة: أصابها السبع بافتراس ولدها. الصوار: قطع من بقر الوحش.
الفرير: ولد البقرة الوحشية والجمع فرار. عرض: ناحية. الشقائق: جمع
شقيقة وهى أرض صلبة بين رملتين. قهد: أبيض. الشلو: للعضو والجمع
الأشلاء. غبس: جمع أغبسة وغبساء والغبسة لون كلون الرماد.
الاجتياف: الدخول فى جوف الشيء. للتبذ: التتحى. عجوب: أصل للذنب
جمع عجب. النقا: الكثيب من الرمل والتثنية نقوان ونقيان والجمع أنقاء.
الهيام: ما لا تماسك به من الرمال. الأزلام: قوائمها ومنه سميت الأقداح
أزالاما. علمت: الانهماك فى الجزع والضجر. النهاء: جمع نهى وهى
الغدير. التؤام: جمع تؤام. السحق: الخلق. الخالق: الضرع المملى لبنا.
الرز: الصوت الخفى. الغضف من الكلاب: المسترخية الأذان. دواجن:
معلمات. أعصامها: بطونها. السمهرية: الرماح. تقصد: قتل.

■ العسير: الناقة لم تحمل فى عامها. خنوف: نشيطة. حوار: ولد للناقة أول
ولادته. خمال: داء يصيب قوائم الإبل. النكظ: الجهد. الميط: للبعد.
الأجال: قطعان البقر الوحشى جمع إجل. النطاف: جمع نطفة وهى بقية
الماء. الأمعز: الأرض الغليظة للوعرة. المكوكب: للمتوقد من الحر.
وخدا: ضرب من السير السريع. النواجى: القوائم جمع ناجية. صعدة:
الأتان. الضال: شجر من أشجار البادية. ملمع: حامل. فلاه: أبعداه. نقب
الخف: تشققه.

- المدرى: القرن. العضد: داء ووجع فى العضد. مفتأد: موضع اشتوائهم اللحم. صدق: صلب. واشق: اسم كلب وكذلك ضميران. العقل: غرم الدية، والقود: قتل النفس بالنفس.
- المستأنس: ثور، والجليل شجر. المصير: المعى وجمعه مصران وجمعها مصارين. المحجر: الملجأ.
- زجل: صوت.
- الأتلع: الطويل العنق. السميدع: الجميل الشجاع.

خاتمة

لغة أهمية كبرى على المستوى الفردي والاجتماعي، فهي وسيلة الإنسان للتعبير عن رغباته وأفكاره وأحاسيسه، وهي واسطته فسي تطوير مواهبه، وتنمية عقله، وإخصاب فكره وخياله، وأدواته لاكتساب خبراته ومهاراته، كما أنها وسيلة للتخاطب والتعايش وتبادل المنافع والمصالح، وبناء أو توثيق الروابط مع الأفراد والجماعات، وهي أيضاً للوسيلة الأساسية لنقل الثقافات والحضارات من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أخرى، ومن ثم فهي القاعدة الأولى التي يقوم عليها تطور حضارات الأمم، وتقدم الجنس البشري بنحو عام.

ولغة الكلام من الأهمية بمكان بالنسبة للإنسان، لأنها لغة العقل المفكرو المدير، والذهن الناطق، والخيال الخصب، والنفس الفاعلة، والقوة القادرة على الخلق والإبداع، لقد تميزت هذه اللغة عن بقية أنواع اللغوة، بقدرتها المتناهية على التعبير عن مكنون القلب وطوايا النفس، ودقائق الفكر، وهواجس الوجدان، وهمسات الشعور.

إن أنواع اللغة التي يستخدمها الإنسان ليست في واقعها سوى أدوات يستعين بها ليعوض عن بعض ما قد يفوته إدراكه، أو معرفته من لغة الكلام، أو ما لا يسمح الظرف للتعبير عنه بهذه اللغة.

والكلمة هي القاعدة الأولى، والأساس الرصين للغة الكلام، وهي معجزة الإنسان والهبئة التي خص بها الله سبحانه وتعالى أجل مخلوقاته، حيث أعطى الإنسان ملك الكلام، وجعل الكلمة أداة له للإفصاح عن أعظم شيء تميز به عن سائر الأحياء، عن عقله المفكر، وفكره المبدع، لقد تميز الإنسان بقدرته على النطق، ونطقه يكمن في عقله المدير، وفكره المبدع، ولسانه

المعبر. وتكمن أهمية الكلمة فيما ترمز إليه من معنى أو توجيه من شعور، أو تشير إليه من موقف، فما للكلمات إلا رموز يصطلح على معانيها، وإشارات لمدلولات ومفاهيم منفصلة عنها، يختصر الإنسان بها طريقة التعايش والتفاهم والتكاثر، وتبادل المعارف والتجارب، والخبرات بينه وبين أبناء جنسه، وجعلها وسيلة لتحقيق رغباته، وتحصيل حاجته، وليس غاية في ذاتها.

إن استخدام اللغة يكون للتخاطب والحوار الذي يأتي بعد عملية التفكير، فستستخدمها بعدة طرق، كأن نعطي معلومات عن واقعة أو نستفهم عنها، أو نطلب من أحدهم القيام بعمل ما أو نستفهم عن كيفية استخدام كلمة معينة، والدلالة على موقف انفعالي؛ وهذه الطرق هي على ما يظن أهم الطرق التي تستعمل فيها اللغة، وثمة طرق أخرى عديدة منها على سبيل المثال: نظم الشعر - الإعراب عن التحية والسلام - إلقاء النكتة.. هذه الطرق جميعها هي التي عبر عنها العالم اللغوي "فينجستين" Vingenstin باسم "الألعاب اللغوية" ولعله يكون من الأوضح تسميتها بالطرق المختلفة في الاستعمال اللغوي: فمن الأسباب التي ينشأ عنها التفكير الأعوج، أو المخاطبة للعوجاء، الخلط بين هذه الطرق المختلفة في استعمال اللغة. ومن أنواع الخلط هذا نوع بسيط واسع الشيوع جداً، هو الخلط بين التعبير عن أمر واقع، والدلالة على موقف انفعالي. فالشخص ذو الجلد الأسود قد يشار إليه واقعياً بقولنا عنه إنه "رجل أسود" لو قد يشار إليه على وجه الاحتقار والاستهجان الانفعالي قولنا إنه "رنجي" أو "عبد". وهناك كلمات أخرى تعبر عن احتقار أفراد أجناس أخرى مثل كلمة "خوزي" أو "مخيل" أو "قيط".. ولا يمكن تقبل استخدام هذه الكلمات في أي حديث معقول، فمتى أدر كنا هذا الفرق القائم بين استعمال الكلمات استعمالاً واقعياً، واستعمالها استعمالاً انفعالياً، لاحظنا أن للكلمات التي تتطوي على إحياء شديد نوعاً ما بوجود

مواقف انفعالية شائعة جداً، وهي تستعمل في مناقشة مشكلات متنازع عليها، كمشكلات السياسة والأخلاق والدين، وهذا الموضوع هو سبب من الأسباب التي تجعل الناس مهما طال جدالهم، ومباحثاتهم حول هذه المشكلات لا يقتربون كثيراً من الوصول إلى حلول معقولة لها- وكلمة "صائم" إذا نظرنا لها في النشأة، وجدنا معناها: الإمساك عن الحركة، تقول العرب "تُهار صائم" أي أن شمسها في وسط السماء لا تتحرك، وهي في الشرع معناها: الإمساك عن الطعام والشراب، وما إليهما، ولذلك كانت العرب تقول: من أعلم باللغة، ولكن القرآن الكريم، وهو الذي نزل بلغة العرب - الله أعلم بمراده فيه.

وهذه الكلمات مفيدة ولا شك، ولكنها مصدر خطر يتعرض له التفكير المعقول، ومن ذلك مثلاً: إننا في أيام الحرب يكون تفكيرنا تحت سيطرة اتجاهاتنا الانفعالية من استحسان تجاه قواتنا المحاربة، وتجاه أهدافنا من الحرب، واستتكار قوات العدو، وأهدافه من الحرب، وعندئذ نكون أميل إلى استعمال اللغة الانفعالية، فقد نتكلم عن الروح الطيبة لدى جنودنا، ولكن نتكلم عن "العقلية الخاصة بجنود العدو، أو عن بطولة جنودنا" ولكن عن "تهور" جنود العدو، ولكن متى حل السلام وعدنا بالذاكرة إلى الوقائع، ونظرنا إليها نظرة مجردة من الهوى، فلا بد لنا من أن ندرك أن كلمة "الروح" وكلمة "العقلية" لهما معنى واحد في واقع الأمر، غير أن كلمة "الروح" يرافقها معنى انفعالي من الاستحسان، في حين أن كلمة "العقلية" يرافقها معنى انفعالي من الاستتكار، ثم إننا ندرك كذلك أن الجندي الذي يتقدم في الحرب تحت وابل من نيران القنابل، وخطر الموت المحتمل يقوم بعمل واحد، سواء كان هو أحد جنودنا، أو أحد جنود العدو، وأن محاولة التمييز بينهما باستعمال كلمة "التهور" للتعبير عن عمل العدو، وكلمة "البطولة" للتعبير عن عمل جنودنا،

وهي محاولة فيها تزييف للواقع عن طريق استخدام كلمتين للتمييز بطريقة انفعالية بين عمليين هما في الواقع متطابقان.

إن أخبار الحروب والثورات مصادر غزيرة لدراسة سوء استعمال الكلمات ذات المعاني الانفعالية، وهذا يجعلنا لا نستغرب إذا قرأنا كتاباً عن أي ثورة أو حرب، فإذا اختيرت الكلمات وكانت نوات صبغة انفعالية، فإن الأثر الذي يحدث في النفوس، قد يتم التوصل إليه بمجرد استعمال هذه الكلمات. واستعمال الكلمات في الشعر (كما دلل على ذلك تشارلتن Charlton) في كتابه "The Art of Literary Study" "فن دراسة الأدب"، يكون في مكانه الصحيح لأن إثارة الانفعالات المختلفة تؤلف في الشعر جزءاً مهماً من المقاصد التي تستعمل هذه الكلمات من أجلها.. في قصيدة "The Eve of St. Agnes" للشاعر الإنجليزي "كيتس" Keats - هذه الأبيات:

"أشرق البدر كاملاً في ليلة من ليالي الشتاء على هذه النافذة، فالتى شفرة مدماة على نحر "مادلين" الوضاء" ..

هذه أبيات جميلة ، ولننظر الآن لنرى مبلغ الجمال المتأتي من اختيار الكلمات نوات الصبغة الانفعالية اختياراً صحيحاً، ومبلغ الجمال الذي يزول لو استعضنا عن هذه الكلمات بكلمات أخرى محايدة، فالكلمات هنا التي تجلب الانتباه من حيث أنها كلمات انفعالية هي: النافذة- الحمره- مادلين- الوضاء والنحر..

فكلمة نافذة تعني ببساطة نوعاً من أنواع الشبابيك، ولكن مع إichاءات وجدانية وكلمة "شفرة مدماة" تعني اللون الأحمر في اصطلاح للفروسيه، وتوحي بكل المعاني الرومانسية المرتبطة بالفروسيه، "ومادلين" اسم الفتاة، ولكنه يثير في النفس انفعالات لا يثيرها اسم عادي آخر لفتاة، وكلمة

"وضاءة" لا تعني فقط أن بشرتها بيضاء صافية اللون، وهو شرط ضروري لكي تظهر ألوان النافذة، ولكنها تنطوي أيضاً على تفضيل انفعالي واضح للبشرة النقية البضة على البشرة الصفراء أو الأرجوانية أو السوداء، أو أي لون يكون عادة للبشرة، وكلمة "تحر" لها مثل هذا المعنى الانفعالي. ولو أردنا أن نقدم وصفاً علمياً مجرداً لكأنت كلمة محايدة مثل "الصدر" كافية، ولو أننا استعملنا كلمات واقعية بدل هذه الكلمات الانفعالية، لتغير الإحساس والانفعال، وأن القيمة الشعرية سوف تضيع، كذلك تكون المحادثة فاترة إن لم تتضمن ما يشير إلى إحساس المتكلم وشعوره تجاه الأشياء التي يتكلم عنها، وتؤدي هذه الإشارات بطرق مختلفة منها استعمال كلمات مشحونة بالانفعالات ومنها تغيير نبرة للصوت، وما من أحد يريد أن تخلو المحادثة من هذا العامل.

إن الغرض النفساني من الانفعال، هو حمل الغير على العمل بصورة فعالة ومجدية، ولكي يتمكن المعلم من إيلاغ أفكاره ورغباته إلى المتلقي. فمن الضروري أن يفهم المتلقي معاني الكلمات التي تأتي في النص سواء كان شعراً أو نثراً، وفهم معاني الكلمات يكون أحياناً مضموناً بصورة كافية باستعمالنا كلمات ذات معاني مفهومة، أو تفسر بهذه المعاني المفهومة، وهي التي نسميها "اللغة المعاصرة"، ويجب أن نبعد عن استعمال الكلمات التي لها معنيان، أو أكثر، فاستعمالها إذا كان ليس من السهل التمييز بينهما قد يؤدي بنا إلى كثير من التكرير الخاطيء. وثمة شيء آخر، فإن ما يقدم للمتلقي لا بد أن يكون سهلاً واضحاً، فإن استعمال كلمة ليس لها معنى واضح عيب يستحيل معه أي تفكير دقيق صحيح. ولننظر أولاً في كيفية التخلص من الغموض في عقولنا وتفكيرنا نحن قبل للنظر في كيفية مكافحتنا للغموض في حجة الخصم، وقد نبدأ هذا الأمر بالرجوع إلى تعريفات الكلمات في القاموس، على أن هذا لا يكفي لضمان استعمالها على الوجه الصحيح،

ويكون هذا الحال معنا شبيهاً نوعاً ما بحالنا لو أننا قرأنا مثلاً وصفاً دقيقاً
لسمكة من أسماك أعماق البحر، ووجدنا أن هذا الوصف يقصر عن أن
يمكننا من رسم صورة لهذه السمكة، أو حتى للتعرف عليها عند رؤيتها..

والكلمة لا قيمة لها ما لم تندب فيها الحياة والحرارة وتنتقل من عالم
الركود إلى عالم الحركة، وهي لا تكون كذلك إلا بعد أن تقتزن بغيرها،
وتأنس إلى ما يحاورها، وتعانق ما يضم إليها عنق القرين لقرينه، وتظهر
من صيغة يرتضيها القلب، وتقبلها العين، ويستعذبها السمع، ولا تبلغ
ذلك ما لم يتمكن الإنسان منها، وتكن له البراعة في اختيارها وانتقاء ما
يلبسها ويلائمها، ويقبل الاقتران بها، ومن هنا تنشأ أهمية الثراء في
اللغة وسعة المحصول من مفرداتها، ومن ثم البراعة في صياغة الكلام
وتأليفه.

والبراعة في التعبير لا تعني القدرة على صف الكلمات، وتأليف
الألفاظ، وصياغة العبارات، وإنما تعني شحن هذه العبارات بطاقة من
الأحاسيس والأفكار والمعارف.

معرفة الإنسان باللغة، وبلغة الكلام خاصة، أساس لاكتساب المعارف
والخبرات فباللغة يفهم الإنسان ما ينطق ويستوعب ما يكتب، وكلما زادت
معرفته بها واتسعت حصيلته من مفرداتها ومعانيها، زاد فهمه وعلمه،
واتسعت خبراته وتجاربه، وانطلق فكره، وصقل خياله وموهبته، وزادت
قابليته على العطاء، وكلما قلت معرفته باللغة ونقصت ذخيرته من مفرداتها
ومعانيها، ضعف فهمه وتضاعل على إدراكه وقلت خبرته ومعرفته، ونقص
علمه، فلم يتهياً لفكره أن ينتج، ولا لموهبته أن تبدع، فالإنسان يقاس بما
ينتجه عقله، وتبدعه مواهبه، كما تقاس الأمم بما تنتجه عقول ومواهب أبنائها
من أفكار وأعمال وإبداعات تشارك بها في تكوين وتطوير الحضارة

الإنسانية، وتقدم الجنس البشري. فلغة وألفاظها وتراكيبها أثر على ثقافة الفرد وعلى شخصيته، وعلى نفسيته ومركزه الاجتماعي.

وليس من شك في أن المصدر الأول للغة ولمفرداتها وصيغها المختلفة هو المجتمع، إذ اللغة تولد وتنشأ وتتمو وتتجدد في أحضان المجتمع، والفرد يكتسب لغته من مجتمعه، بدءاً من مجتمعه الصغير المتمثل في أسرته، وإن توقف مدى اكتسابه لها من أسرته على ما رزق من ملكة في تلقنها وتمثلها، وما امتلك من قدرة على المحاكاة والتقليد فيها، وما وهب من قدرة على الفهم، وسرعة في الحفظ، وقوة على التذكر، وما لديه من صفاء الخاطر وطموح النفس، ثم ما لدى هذه الأسرة من معرفة، وإحاطة باللغة، وما تتاح له من فرص فيها للاكتساب والتحصيل.

لقد انتشرت أدوات الاتصال بين الإنسان والإنسان، عن بعد وعن قرب من مثل الراديو والتليفزيون والسينما والحاسب الآلي والإنترنت، والتقت من خلالها الألسن والعقول والثقافات والحضارات على اختلافها، فيكتسب الإنسان بواسطتها المعارف والفنون، ويكتسب الصيغ والألفاظ أيضاً، عن طريقها يلتقي الإنسان بطائفة من أهل لغته، ويسمع حوارهم، ويصغي لأحاديثهم، فيلتقط ذهنه، وتختزن ذاكرته من تراكيب وألفاظ لغتهم على قدر بصغته إليهم، وبمقدار ما يمتلك من فطنة ونباهة ومقدرة على الربط والتمييز والحفظ، ثم على مقدار ما يتمتع به المتحدثون أنفسهم من فصاحة وتصوير تجسد به عباراتهم فتجعلها قريبة من النفوس، عاقلة في الأذهان، مع العلم بأنه قد لا يكتسب منهم ألفاظ اللغة مثلما يكتسبها من الناس عندما يلتقي بهم في واقع حياته وجها لوجه لأنه لا يرى من خلال معظم هذه الأجهزة إلا أشباحاً تتحرك من دون روح، وصوراً تحيا من دون أن تحس، ولا يسمع إلا أصواتاً تتردد دون أن تستجيب، والسنة تنطق لا تحاور، ولذلك فهو لا يجد

مجالاً للرد ، ولا نصيباً من الحوار، وأخيراً فهو لا يمارس ما يكتسبه من ألفاظ بالقدر الذي يكفل له استقرارها في ذاكرته، وهذا لا ينفي أهمية هذه الأجهزة في نشر اللغة، وتلقي مفرداتها، فلها الدور الكبير في تلقين اللغة، للإنسان وفي إيصال ما استقر وما تغير أو تجدد واستحدث من مفرداتها إليه. إنها أدوات نافذة المفعول، سريعة التأثير، قريبة المتناول، كثيرة الانتشار، يصل بعضها إذا لم يكن أكثرها إلى الداني والقاصي، والغني والفقير، والقادر والعاجز، ويأنس إليها الكبير والصغير، الأعمى والبصير، القارئ والأمي، بل لا يكاد يكون لأحد في يومنا للحاضر عنها أو عن بعضها غنى، ولذا يجب رعايتها من رجال اللغة، وأهل العلم وذوي السلطان، وأن يسخروها في نشر اللغة، وإغناء حصيلة كل من يستخدمها من مفردات اللغة وصيغها وتراكيبها السليمة الصحيحة، فهم بذلك ينشرون العلم، ويوسعون مدارك الناس، ويخدمون المجتمع ويرتقون بحضارة الأمة.

ويلتقي الإنسان في المدرسة في مختلف مراحلها بفئات خاصة من أبناء مجتمعه لقاءً منتظماً مستمراً، فيتعلم اللغة، ويتلقن ألفاظها، بالسؤال والدرس الواعي وبالمحاكاة والافتداء يتلقنها من مدرسيه، ويتعلمها مما يقرأ من دروس، ويحفظ من نصوص، ويكتب من موضوعات، وينطق من عبارات، وهو يسأل ويجيب أو يحاور ويناقش، ومما يختاره من قصص وقراءات حرة. ويلتقى من زملائه ألفاظ اللغة، يتحدث إليهم ويحاورهم ويناقشهم أو يجادلهم، فيلتقط الكثير من مفردات اللغة التي اكتسبها من موارد اللغة الخاصة والعامة، كل بحسب أسرته ومحيطه ونشأته، وبذلك فهو يتلقن اللغة ويلتقى تراكيبها وصيغها من هذه الموارد بجميع مستوياتها وأشكالها، الفصحى المنتقاة والعامية الدارجة، ولا بد للمدرسة أن توفر كل الوسائل الممكنة التي تشعر بحيوية اللغة الصافية النقية، وبفاعليتها وشدة ارتباطها بالواقع العملي لتجذب الفرد إلى هذه اللغة، وتشعره بأهميتها، فيتجه لاكتساب

المهارة فيها، وإغناء حصيلته من مفرداتها، كما يجب أن توفر له الفرص الكافية لممارستها وتجسيدها تجسيداً يرتبط فيه للرمز بالمدلول، واللفظ بالمعنى، ليتمكن من إنعاش أو إحياء ما يتوافر له من تركيبها وألفاظها، ومعانيها فتتمو وتتسع، ويكتسب الفرد مفردات اللغة من القراءة الحرة، للقراءة التي يجذب إليها ويتوقها باختياره، فتكون أجدى في تحصيله اللغوي.

فالقراءة مورد خصب لألفاظ اللغة وصيغها إذا أحسن انتقاء المادة المقروءة، وأحسن اختيار الوقت المناسب، وللوضع اللائق، والنهج السليم للقراءة، وعن طريقها يمكن للإنسان أن يطلع على الفصيح من المفردات، إذ أن لغة النتاج الفكري المدون هي الفصحى، كما يمكن أن يطلع على قديم اللغة وحديثها، فهو يختصر الزمان بهذه القراءة، ويتجاوز عصره، وينفذ إلى التاريخ من كل باب، كما يستطيع أن يتجاوز بها حدود المكان فيرى ما استخدم من ألفاظ اللغة ومعانيها بين أفراد الأمة على اختلاف طبقاتهم، ومستوياتهم ومواطنهم، لقد استخدم الإنسان معظم ما ابتكر أو وضع من ألفاظ وتركيب لغته فيما دون من نتاج فكره، وثمر تجاربه وإبداع عقله منذ أن عرف الكتابة، فإن القارئ يجد في تراث أمته المدون، وسجل حضارتها المكتوب كنزاً موفوراً من مفردات اللغة وصيغها.. يجد هذه المفردات والصيغ بكل مدلولاتها ومفاهيمها وإحياءاتها، وبكل ما خضعت له من تغيرات وتطورات عبر مسيرتها على مر العصور. يلتقط منها وهو يقرأ ما يسعفه فهمه، وتمكنه حافظته من التقاطه، ويدرك من معانيها ومدلولاتها ما يساعده نكاوّه وإحساسه على إدراكه.

والمحصول اللفظي الذي يمكن أن يكتسبه الفرد، لا يكون فاعلاً نافعاً، ما لم يكن نشطاً في الذهن، حياً في الذاكرة مرناً طبعاً جاهزاً للاستخدام، ولا

وسيلة لتحقيق ذلك أفضل ولا أهم من الممارسة، فممارسة المكتسب تمنع ركودها، وتحميها من النسيان، وتجدد فيها الحياة، وتكسيها حيوية وحرارة وتخصبها.

ويعد الاستماع نوعاً من ممارسة اللغة، ومثلما يكون له من الأثر في تلقي مفردات اللغة، وفي التعرف على معانيها وطرق استعمالها، وطرق نطقها، يكون له أثر كذلك في تثبيت وترسيخ ما تتلقاه الذاكرة منها، وفي إنعاش أو إحياء ما ترسب منها في هذه الذاكرة، إذ يتردد نطقها ويتكرر استعمالها، وتتجسد في السمع حروفها ومعانيها.

والتحدث إلى الآخرين ومحاورتهم ومشاركتهم ومخاطبتهم في الكلام تعد ممارسة للغة ووسيلة لإثارة وتحريك ما اختزنته الذاكرة من مفرداتها، كما أن القراءة ممارسة فاعلة للغة، ولممارسة اللغة أثر في إنعاش لغة الفرد، وجعل حصيلته من مفرداتها ثرية نابضة بالحياة، نشطة طيعة، مرنة في أداء وظائفها، فمن المهم الحفز على ممارسة اللغة بجميع أشكالها وصنوفها ونشاطاتها، والتشجيع على هذه الممارسة، بتوفير الفرص وتهيئتها لذلك.

ولا ننسى أثر المعاجم في تحصيل اللغة، فإن مقدار ما يمكن أن يكتسبه الفرد من مفردات من معاجم اللغة، يعتمد بصورة أساسية على مدى توافر هذه المعاجم، وتنوع المتوافر منها، وعلى طرق إخراجها، وتصنيف المفردات فيها، ثم على معرفة الفرد بطرق استخدامها، وما يتأتى له من بواعث ودوافع لهذا الاستخدام، ولذلك فإن تعليم اللغة للفرد وتهيئته لاكتساب حصيلة وافية من مفرداتها، يقتضيان توفير المعاجم اللغوية المناسبة له، المتلائمة في أحجامها وأشكالها وأنواعها مع مستواه العقلي والعلمي، وتوفيرها في المدرسة، والفصل والبيت، وفي المكتبات العامة والخاصة التي

يمكن أن يرتادها، ثم تعريفه على مناهج هذه المعاجم، وعلى طرق استخدامها، وحثه المتواصل على الرجوع إليها منذ المراحل الأولى من التعليم..

وعلى ذلك فلا بد من اختيار ماله قيمة لغوية لما يقدم للمتلقى، فإن ما يحتويه المقدم والمعرض من كلمات مشحونة تترك أثرها في نفس المتلقي، وعلى المدرس أن يقوم بهذه المهمة، ولكي يستطيع لابد له من خلفية لغوية كبيرة، فإنه يكون قديراً لو أمكنه أن يعطي مثلاً بسيطاً يفي بتوضيح معنى موقف من المواقف التي تعرض لها صاحب النموذج وقرأها التلميذ في كتابه، وحاول أن يجعلها تفسيراً مرضياً متمشياً مع انفعال القائل، وشحنة الكلمة، وعلى المدرس أيضاً أن يلجأ إلى حيل الإيحاء للحصول على موافقة تلاميذه على ما يقوله، وحقيقة الإيحاء الواقعية من وجهة نفسانية تتمثل في الواقع المعروف بأن الإنسان إذا داوم على تكرير قول مراراً متوالية بلهجة الواثق من قوله، دون حجة أو برهان، فإن السامعين لهذا القول يميلون إلى تصديقه، والإيمان به، والمدرس الذي يستعمل طريقة الإيحاء يعتمد في ذلك على التكرار، والثقة والثبات، على أن الثقة في النفس من أهم عوامل النجاح في مهنة المعلم، ذلك أن المعلم إذا تحدث بلغة الواثق، أقبل عليه تلاميذه راضين، واستطاع أن ينفذ إلى قلوبهم، يدفعه في ذلك أمانته العلمية، وقدرته الثقافية، وتمكنه من مادته، فهي التي تخلق له الواجهة بمعناها الذي يترك هيبة في نفس السامعين.

د. خالد الزواوي

المراجع

- ١- د. إبراهيم إمام: الإعلام الإذاعي والتلفزيوني - دار الفكر العربي ط بيروت، ١٩٨٥م.
- ٢- د. إبراهيم عصمت مطوع: في التربية المعاصرة، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٧٧.
- أصول التربية ط١، دار المعارف المصرية، ١٩٧٩.
- ٣- د. إبراهيم وجيه محمود: لتعلم، دار المعارف المصرية، ١٩٧٩.
- ٤- د. أحمد حسين اللقاني: المناهج بين النظرية والتطبيق ط٢، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢.
- ٥- د. أحمد زكي صالح: علم النفس التربوي ج١، ط١١، وج٢ ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، دت.
- ٦- د. حامد عبد السلام زهران: علم نفس النمو (للطفولة والمراهقة) ط٤، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٧- د. حلمي المليجي: علم النفس المعاصر ط٦- دار للمعرفة الجامعية- مصر، ١٩٨٤.
- ٨- د. الهمد داش عبد المجيد سرحان، إعداد المعلم للتعليم العام- وزارة التربية- بحوث والمناهج- الكويت، ١٩٧٦.
- ٩- د. سعدية محمد علي بهادر: الإفادة من تكنولوجيا التعليم في تصميم برامج تدريب المعلمين المبنية على الكفالية- مجلة تكنولوجيا التعليم- ديسمبر ١٩٨١.
- ١٠- د. عادل عز الدين الأشول: علم النفس للنمو ط١- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٢.

- ١١- د. فؤاد عبد اللطيف أبو حطب، علم النفس التربوي- ط٢- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٨٣.
- ١٢- د. محمد خليفة بركات: علم النفس التعليمي ج ٢ ط١- دار القلم- الكويت ١٩٧٦.
- ١٣- د. محمد صلاح الدين مجاور: المنهج المدرسي- أسسه وتطبيقاته التربوية ط٢- دار القلم- الكويت ١٩٧٤.
- ١٤- د. محمد نبيل النجيجي: فلسفة التربية- مكتبة سعيد رأفت- القاهرة ١٩٧٦.
- ١٥- د. محمد الهادي عفيفي: في أصول التربية- الأصول الفلسفية للتربية- مكتبة الأنجلو المصرية- ١٩٧٧.
- ١٦- د. محمود عبد الرازق شفشوق: التربية المعاصرة - طبيعتها وأبعادها الأساسية ط١- دار القلم الكويت ١٩٧٤.
- ١٧- د. خالد محمد الزواوي: التعليم المعاصر قضاياها التربوية والفنية- مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع- ط١، القاهرة، ٢٠٠١.
- ١٨- والتر ج. أونج: الشفاهية والكتابية، ترجمة د. حسن البنا عز الدين- عالم المعرفة (١٨٢)- الكويت شعبان ١٤١٤ هـ / فبراير، شباط ١٩٩٤.
- ١٩- د. نايف خرماو و د. علي حجاج: اللغات الأجنبية، تعليمها وتعلمها- عالم المعرفة (١٢٦)- الكويت شوال ١٤٠٨ هـ / يونيو/ حزيران ١٩٨٨.
- ٢٠- روبرت هـ ثاولس: التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، ترجمة حسن سعيد الكرمي- عالم المعرفة (٢٠) الكويت رمضان/ شوال ١٣٩٩ هـ- أغسطس / آب ١٩٧٩.

٢١- د. نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة- عالم المعرفة (٩)- الكويت رمضان/ شوال ١٣٩٨هـ - سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨.

٢٢- د. هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال- عالم المعرفة (١٢٣)- الكويت، رجب ١٤٠٨هـ- مارس/ آذار ١٩٨٨.

٢٣- عزيز أباطة: لغة الشاعر" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢٥- رمضان ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩.

٢٤- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢.

٢٥- ابن خلدون: المقدمة، بيروت، دار لبنان، ديت، وطبعة بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩.

٢٦- ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس بيروت: دار للثقافة، ديت.

٢٧- ابن فارس : الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق د. مصطفى الشويمي، بيروت ١٩٦٣.

٢٨- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٤.

٢٩- أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني: الأغاني، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار إحياء الكتب العربي، ط بيروت ١٩٨٥.

٣٠- د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ- ط٦- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٦.
من أسرار اللغة ط٦- مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨.

- ٣١- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة- ترجمة د. كمال محمد بشر-
مكتبة الشباب- القاهرة ١٩٧٥.
- ٣٢- د. السعيد بدوي: مستويات العربية المعاصرة في مصر- دار المعارف
المصرية ١٩٧٣.
- ٣٣- د. كمال محمد بشر: علم اللغة العام، القسم الثاني: الأصوات اللغوية-
دار المعارف المصرية ١٩٧٥.
- ٣٤- مقاتل بن سليمان البلخي: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، دراسة
وتحقيق د. عبد الله محمود شحاتة الهيئة المصرية العامة، ١٣٩٥هـ /
١٩٧٥م.
- ٣٥- أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي: يتيمية الدهر في محاسن أهل
العصر- تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد- مطبعة السعادة- القاهرة
١٣٧٧هـ.
- ٣٦- الجاحظ : البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوى- مكتبة الطلاب وشركة
الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨.
- البيان والتبيين ط٥، تحقيق عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي
١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون- دار الكتاب العربي، بيروت
١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.
- ٣٧- د. حسن حسين جامع: التعلم الذاتي وتطبيقاته التربوية- مؤسسة الكويت
للتقدم العلمي ١٩٧٦:
- ٣٨- د. محمد حسن حسن جبل: الاحتجاج بالشعر في اللغة: الواقع ودلالاته-
دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- ٣٩- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز : قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، ٢٠٠٠م.
- ٤٠- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء: قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، تقديم عبد الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة (النخائر) ٢٠٠١- السفر الأولى والثاني.
- ٤١- أنور الجندي: للفصحى لغة القرآن- دار للكتاب اللبنائى- بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ٤٢- د. محمود فهمي حجازي: علم اللغة بين التراث والهيئة المصرية العامة ١٩٧٠.
- ٤٣- د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ط٣- للهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.
- مناهج البحث في اللغة- دار الثقافة- الدار البيضاء- ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م.
- ٤٤- د. محمد كامل حسين: اللغة العربية المعاصرة- دار المعارف المصرية ١٩٧٦م.
- ٤٥- أحمد عبد الرحمن حماد: عوامل للتطور اللغوي، دراسة في نمو وتطور الثروة اللغوية، دار الأنتلس - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.
- ٤٦- د. حلمي خليل: اللغة والطفل، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، دار النهضة العربية- بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- ٤٧- د. عبد الله درويش: المعاجم العربية- مطبعة الرسالة- للقاهرة ١٩٥٦م.

- ٤٨- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم- دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر- بيروت.
- ٤٩- د. عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية- دار النهضة العربية- بيروت ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢.
- ٥٠- فخر الدين الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق د. بكري شيخ أمين- دار العلم للملايين- بيروت ١٩٨٥.
- ٥١- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ط١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
- ٥٢- د. إبراهيم السامرائي: فقه اللغة المقارن ط٤- دار العلم للملايين- بيروت ١٩٨٧م.
- ٥٣- جلال الدين السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، د.ت.
- ٥٤- فاروق شوشة: لغتنا الجميلة- دار العودة- بيروت، د.ت.
- ٥٥- د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط٩، القاهرة- دار المعارف ١٩٧٦.
- ٥٦- د. حسن ظاظا: كلام العرب: من قضايا اللغة العربية- دار النهضة العربية- بيروت ١٩٧٦.
- ٥٧- أبو هلال العسكري: الصناعتين: الكتابة والشعر ط١، تحقيق وضبط د. مفيد قميحة، دار الجيل- بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٥٨- عباس محمود العقاد: اللغة الشاعرة- دار الإعلان ١٩٦٠م.

- ٥٩- إدريس بن الحسن العلمي: 'مع المعجم للوسيط' في طبعته الثانية،
واللسان العربي، العدد الثالث والعشرون، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٣م، واللسان
العربي، العدد الثلاثون، ذو الحجة ١٤٠٨هـ / يوليو ١٩٨٣م.
- ٦٠- د. أحمد مختار عمر: أخطار اللغة العربية للمعاصرة عند الكتاب
والإذاعيين ط٢، عالم الكتب- القاهرة، ١٩٩٣م.
- ٦١- غيورغي غانشف: الوعي والفن، ترجمة د. نوفل نيوف، ومراجعة د.
سعد مصلوح، عالم المعرفة (١٤٦) رجب ١٤١٠هـ / فبراير- شباط
١٩٩٠م.
- ٦٢- وجدي رزق غالي: للمعجمات العربية، ببلوجرافية شاملة مشروحة،
الهيئة المصرية للعلمة للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
- ٦٣- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط- دار الجيل-
بيروت، د.ت.
- ٦٤- د. شكري فيصل: مناهج للدراسة الأدبية في الأدب العربي ط٥، دار
العلم للملايين- بيروت، ١٩٨٢.
- ٦٥- أبو علي إسماعيل بن القاسم القلي: بنيل الأمالي والنوادر- دار الفكر
للطباعة والنشر، بيروت د.ت.
- ٦٦- حازم القرطاجني: مناهج البلغاء ومراج الأبناء، ط٢- تقديم وتحقيق
محمد الحبيب بن الخوجة- دار الغرب الإسلامي- بيروت ١٩٨١.
- ٦٧- ابن رشيق القيرواني: للعمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ١٩٧٢.
- ٦٨- د. أحمد محمد المعتوق: دور وسائل الاتصال السمعية والبصرية في
تتمية الحصيلة اللغوية، رسالة الخليج العربي، العدد السابع والأربعون،
السنة الرابعة عشرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

- الأدب وأثره في تنمية الحصيلة اللغوية، القافلة، رجب ١٤١٣هـ / ديسمبر ١٩٩٢م، يناير ١٩٩٣م.
- ٦٩- د. محمد مندور: حول الرمزية في اللغة الشعرية "لغة الشعر" مجلة مجمع للغة العربية- العدد الثاني عشر ١٩٩٠م.
- ٧٠- د. مصطفى مندور: اللغة بين العقل والمغامرة- منشأة المعارف- الإسكندرية ١٩٧٤.
- ٧١- د. مصطفى ناصف: نظرية المعنى في النقد العربي- دار الأندلس- بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٧٢- د. حسين نصار: المعجم العربي: نشأته وتطوره- دار مصر للطباعة- القاهرة د. ت.
- دراسات لغوية ط٢- دار الرائد العربي- بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ٧٣- عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني: الألفاظ الكتابية - دار الهدى للطباعة والنشر- بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- ٧٤- د. السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية- دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- ٧٥- د. عبد الحميد يونس: "اللغة الفنية" مجلة عالم الفكر م ٢ ع ١، ١٩٧١.
- ٧٦- د. محمود سليمان ياقوت: معاجم الموضوعات في ضوء علم اللغة الحديث- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، ١٩٩٤م.
- ٧٧- د. خالد محمد الزواوي: الصورة الفنية عند النابغة الذبياني- الشركة المصرية العالمية- لونجمان ١٩٩٢م.
- تطور الصورة في الشعر الجاهلي- مؤسسة حورس للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

سطور عن المؤلف:

الدكتور/ خالد محمد الزواوي ..

- دكتوراه في الأدب العربي من كلية الآداب جامعة عين شمس، بمرتبة الشرف الأولى.
- ماجستير في التربية، كلية التربية جامعة الإسكندرية.
- عضو هيئة تدريس اللغة العربية بدولة الكويت، وجمهورية مصر العربية.
- مشارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية والثقافية والفنية.
- حاصل على وسام عيد العلم، والمعلم المثالي، وميدالية الشرف، وشهادات تقدير وامتياز.
- حرر عددا من المقالات والبحوث الأدبية، والدراسات النقدية بالصحف العربية.
- عضو اتحاد كتاب مصر- وهيئة الفنون والآداب- والجمعية المصرية التشريعية للبيئة.
- تتلمذ على كبار الأباء والمفكرين والعلماء أمثال الأستاذ الدكتور/ طه حسين/ شوقي ضيف/ يوسف خليف/ شكري عباد/ سهير القلماوي/ محمد زكي العشاوي/ إبراهيم عبد الرحمن/ سعيد منصور.

كتب المؤلف:

- النقد والبلاغة للمرحلة الثانوية- بتكليف من وزارة التربية والتعليم بدولة الكويت- سنة ١٩٧٧.

- الصورة الفنية عن النابغة الذبياني - الشركة المصرية العالمية- لونجملن-
سنة ١٩٩٢.
- تطور الصورة في الشعر الجاهلي - مؤسسة حورس للنشر والتوزيع -
الإسكندرية- سنة ٢٠٠٠.
- التعليم المعاصر قضاياها الفنية والتربوية- مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع -
مصر- سنة ٢٠٠١.
- مشاهد أبكتني- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- الإسكندرية- سنة
٢٠٠٢.
- اللغة العربية.
- الماء في القرآن للكرام والسنة والعلوم الحديثة- تحت الطبع.
- الحل لمشكلة البطالة دراسة مقارنة- تحت الطبع.
- الساحة في الأديان ودورها في التنمية- تحت الطبع.

العنوان

بولكلي- شارع أبو هيف- أمام ١٩ شقة ٣ - الإسكندرية.

تليفون:

٠١٢٢٧٣٨٠٤٤

٠١٢٣٢٦٩١٥١

٠٣ /٥٤٦٣٤١٩

المحتويات

٤	إهداء
٥	المقدمة.
١١	- الباب الأول: اللغة والتعليم.
١٣	الفصل الأول: ماهية اللغة.
٢٧	الفصل الثاني: اكتساب اللغة.
٤١	-الباب الثاني: اللغة في مفترق الطرق.
٤٣	الفصل الأول: انحسار اللغة.
٦١	الفصل الثاني: وسائل العلاج.
٦٩	- الباب الثالث: منابع اللغة.
٧١	الفصل الأول: الروافد.
٩١	عصل الثاني: الإثراء اللغوي.
١٢١	- الباب الرابع: وسائل التنمية اللغوية.
١٢٣	الفصل الأول: الألعاب اللغوية.
١٤٩	الفصل الثاني: أسرار اللغة.
١٥٧	الفصل الثالث: اللغة في زمانها الجميل.
٢٣٩	خاتمة.
٢٥٠	مراجع البحث.

